

الكنيسة

ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية

(1099-1187)

أ.د. فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

جامعة الباحة - المملكة العربية السعودية

أشرف صالح محمد سيد

عضو هيئة التدريس

جامعة ابن رشد - المملكة الهولندية





الــكــنــيـــســــة

ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية

(١٠٩٩ - ١١٨٧)

أ.د. فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

جامعة الباحة - السعودية

جامعة لاهاي الدولية - هولندا

أشرف صالح محمد سيد

عضو هيئة التدريس

جامعة ابن رشد - هولندا

جامعة أريس — الولايات المتحدة

الطبعة الأولى

٢٠١٣م/ ١٤٣٤هـ



حقوق النشر الإلكتروني والبث على شبكة الإنترنت © محفوظة لدار ناشري

دار ناشري للنشر الإلكتروني

رقم التسجيل في المكتبة الوطنية الكويتية: ٢٠٠٨/٣٠٦

أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية للقارئ العربي

www.nashiri.net

---

info@nashiri.net

الفهرسة أثناء النشر

٩٤٠,١ عبد العزيز ، فتحي الكنيسة ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية (١٠٩٩ — ١١٨٧)/ فتحي عبد العزيز محمد ، أشرف صالح محمد .- ط ١.- الكويت: دار ناشري للنشر الإلكتروني ، ٢٠١٣. ١٤٥ ص - الناشر: دار ناشري للنشر الإلكتروني (الكويت) www.nashiri.net ١- العنوان ٢- العصور الوسطى ٣- الحروب الصليبية

Publisher:
Nashiri Non-profit E-Publishing House (Kuwait)
www.nashiri.net
info@nashiri.net

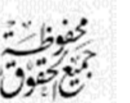
التجهيزات الفنية

دورية كان التاريخية

www.kanhistorique.org

الطبعة الأولى "إلكترونية"

الكويت ٢٠١٣



المحتويـــات

موضوع هذه الدراسة هو "دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى سنة ١١٨٧م"، أي منذ قيام المملكة اللاتينية وحتى استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي. وقد تم اختيار هذا الموضوع لعدة أسباب منها: خلو المكتبة العربية من كتاب قائم بذاته متخصص في هذا الموضوع، من ناحية أخرى فإنه من الأهمية دراسة دور الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس والتعرف عليه، وعلى طبيعته، وأهدافه، حتى يمكن تقدير حجمه، ومعرفة أثره، وما حققه من نتائج كان لها أثرها المباشر على مستقبل الحركة الصليبية. ومع أهمية تناول التواجد الكنسي اللاتيني في الأرض المقدسة، فإن الفترة التي يعرض لها البحث تمثل المرحلة الهامة في تاريخ الكنيسة اللاتينية فقد كانت مرحلة خصبة تعددت فيها أعمال وأنشطة وعلاقات الكنيسة.

ويقع هذا البحث في أربعة فصول، ودراسة نقدية لمصادر الرسالة، وتعرض الدراسة النقدية لأصول ووثائق هذه الدراسة لمدى إفادة البحث منها، ومدى ارتباطها بموضوعه، ومدى حياد أو انحياز بعضها في تناول أحداث الفترة المتصلة بالبحث.

وقد تناولت في الفصل الأول "الكنيسة اللاتينية والشرق"، ظهور الزعامة الكنسية في الغرب، ودخول الكنيسة في نسيج النظام الإقطاعي. كما تناول البحث بالتحليل حركة الإصلاح الكلوني والإصلاح الجريجوري. ولم يفت الباحث أن يتناول في إطار ذلك شكل العلاقات بين الشرق والغرب على المستوى الديني مبينًا اتجاه العلاقات بين البابوية وبيزنطة.

أما الفصل الثاني "الكنيسة اللاتينية والحركة الصليبية"، فقد ناقش فيه الدارس أوضاع الغرب الأوربي وموقف الكنيسة منها من خلال عرض للحروب الإقطاعية وتفسير لها ولحركة السلام وعسكرة المسيحية، ثم موقف الكنيسة من الحرب التي شاع وصفها بحرب الاسترداد أو حركة الاسترداد. وتعرض هذا الفصل لأوضاع الشرق المسيحي، وتحليل نظرة كل من البابا جريجوري السابع والبابا أوربان الثاني لتلك الأوضاع وإطلاق الدعوة إلى الحرب الصليبية، ثم دور الكنيسة في الدعوة والإعداد وقيادة الحملة.

وناقش الفصل الثالث "علاقات الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بالقوى السياسية"، مع تفسير لطبيعة العلاقة بين الكنيسة والدولة، ثم بالأنظمة الدينية الحربية، ثم علاقتها بالكنائس الشرقية.

وجاء الفصل الرابع ليتناول "واجبات الكنيسة في مملكة بيت المقدس" من خلال شكل وتنظيم ومنشآت الكنيسة وثرواتها ثم واجبها في الحرب، بالإضافة إلى واجباتها الرعوية الأخرى. وتجدر الإشارة إلى؛ أن الباحث لم يشأ التعرض للحياة الديرية في المملكة وذلك لأنها خارج نطاق البحث، بالإضافة إلى أن هذه الحياة بزخمها بحاجة إلى دراسة منفردة بذاتها.

وختامًا؛ أتوجه بخالص مشاعر الإعزاز، وأجل مظاهر التقدير، وعظيم صور الثناء لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم، والذي حباني برعايته وتشجيعه ونصحه وعلمه، كما لم يضن على بوقته أو مكتبته، مما كان له أكبر الأثر في تحمل مشاق البحث طوال فترة الدراسة.

الزقازيق - جمهورية مصر العربية
مارس ٢٠١٢

د. فتحي عبد العزيز محمد

أولاً- المصادر اللاتينية

تعددت المصادر اللاتينية الخاصة بالفترة التي يتناولها البحث وخاصةً الباكرة منها، فقد سجل للحملة الأولى عديد من المؤرخين ومن بينهم المؤرخ المجهول، أو الكاتب المجهول، وهو الذي سطر المؤلف المعروف باسم "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس الآخرين" Gesta Francorum et Aliorum Hieroslimi Tanorum وقد اعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية التي أصدرتها روزاليندا هيل. ويعد الكاتب المجهول الرجل العلماني الوحيد الذي تناول قصة الحملة الصليبية الأولى وأرخ لها، وقد كان ضمن فرسان الحملة وشاهد عيان لها، حيث ضمن جيش بوهمند النورماني وتانكرد.

وعلى الرغم من أن الكاتب المجهول فارس قليل الشأن، فإن مؤلفه على قدر كبير من الأهمية، فهو أول كتاب تاريخي يدونه رجل علماني منذ عصر شارلمان في القرن التاسع الميلادي، وللكاتب أسلوبه المتميز والفريد والذي خالف ما عُرف من كتابات تاريخية تقليدية فهو يعالج موضوعه مباشرة وبغير تقديم اعتذاري كما جبل على ذلك معاصريه.

ويبدأ كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس بعرض موجز لأحداث كليرمونت في نوفمبر ١٠٩٥م، وما تلا ذلك التاريخ من أحداث ومعارك حتى أغسطس سنة ١٠٩٩م حيث كانت معركة ضد القوات المصرية في عسقلان.

والكتاب لا يعدو كونه مذكرات يومية لحياة المؤلف الشخصية، غير أنه برع في وصف ما شاهد من أحداث أخذ في استجلائها وعمد إلى إيرادها في رواية سهلة وسليمة. وقد برع المؤلف بصفة خاصة في وصف المعارك الحربية، والأزمات التي اعترضت المحاربين.

كما ترجع أهمية الكتاب كونه عرض لانطباعات محارب عن أعدائه من "الكفار" الذين يستحقون "الموت". وأعدائه من المسيحيين "الهراطقة" مثل البيزنطيين. غير أن الأهمية الكبرى أن الكتاب أوضح بجلاء أن الحملة الصليبية

كانت عملاً معقدًا للغاية، وأية محاولة لتفسيرها في ضوء عامل واحد أو دافع بعينه سوف تبوء بالفشل. وأفاد الكتاب بمدنا بصورة حية عن دور رجال الدين في المساهمة في أعمال الحرب، وأعطى الشكل الذي كانت عليه تلك المساهمة.

أما المصدر الثاني، فهو فوشيه الشارتري وكتابه المسمي "أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس Gesta Francorum Jherusalem Peregrintium وقد اعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية التي نشرها هارولد فينك تحت عنوان A History of the Expedition to Jerusalen 1095-1127 وإذا كان بقية مؤرخي الحملة الأولى من رجال الكنيسة، فإن المثال المتميز بينهم هو فوشيه الشارتري. ولد فوشيه في مدينة شارتر في فرنسا سنة ١٠٥٩م.

وقد لبى مع كثيرين غيره نداء البابا أربان الثاني لشن حرب مقدسة ضد المسلمين في كليرمونت. وكان ضمن جيش روبرت أمير نورماندي وستيفن أمير شارتر وبلوا. وقد انضم إلى بلدوين الأول وعمل في خدمته. وقد تولي بلدوين حكم إمارة الرها الصليبية من (١٠٩٨ – ١١٠٠)، ثم صار أول ملك صليبي يحكم بيت المقدس واستمر حكمه من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١١٨م.

وقد دخل فوشيه الشارتري بيت المقدس وأقام بها طوال هذه الفترة، كما عاصر حكم بلدوين الثاني. وبذلك يمكن القول؛ أن فوشيه الشارتري عاصر فترة هامة من حياة المملكة، وكان شاهد عيان لأحداثها، وقد اختفي من مسرح الأحداث مع سنة ١١٢٢م. وقد أفاد ذلك المصدر الباحث إلى حد بعيد فيما يتعلق بأحوال الكنيسة وتنظيمها وفقا لما أورده فوشيه في موضوعية تميز بها في هذا الشأن.

أما المصدر الثالث الذي اعتمد عليه الباحث، فهو وليم الصوري ومؤلفه "تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار" A History of the Deeds Done Beyond the Sea. ولد وليم الصوري في الأرض المقدسة لوالدين فرنسيين وتلقى تعليمه في بلاد الشام، وغرب أوربا. وقد أمضي قرابة عشرين عامًا في الفترة من (١١٤٥ - ١١٦٥م)، وعند عودته أصبح قسيسًا في مدينة صور، وتدرج في المناصب حتى صار كبير قضاة المملكة اللاتينية في بيت المقدس وكبير أساقفة صور. ويبدو أنه فاز بثقة ملك بيت المقدس الملك أماليريك فقد عهد أبيه بتربية ابنه،

كما عهد إليه بأعمال دبلوماسية في روما وبيزنطة ولم يتحقق ما كان يطمح إليه المجتمع من تولي منصب بطريرك بيت المقدس، فقد كانت وفاة أماليك سببًا لفقده حظوته في البلاط.

وعلى الرغم من أن وليم الصوري من أبناء القرن الثاني عشر، إلا أنه يُعد من أكبر مؤرخي الحروب الصليبية، وقد توفي سنة ١١٨٥ قبل أن يشهد استرداد المسلمين للمدينة المقدسة بقيادة صلاح الدين الأيوبي.

ويعد كتاب وليم الصوري من المصادر الهامة لتاريخ الحروب الصليبية. وقد كتبه بلغة رفيعة المستوى. وترجع أهمية الكتاب الأساسية إلى أن مؤلفه هو المؤرخ الوحيد الذي ولد ونشأ على أرض فلسطين. وقد تميز الكتاب بمقدرة بليغة على تفسير الأحداث التي يعرض لها، وإن جاء في بعض المواطن تفسيره بإيحاء أخلاقي فقد كان يهدف إلى توضيح ما كان عليه الصليبيون الأوائل من إخلاص وشجاعة ليفيد من ذلك معاصريه من الصليبيين، ومهما يكن من أمر؛ فإن المؤرخ تمتع بمقدرة بالغة في تفسير وتحليل الأحداث وإيجاد علاقة سببية لها.

وفيما يختص بموضوع البحث، فقد أفاد الباحث من كتابه إلى حد بعيد خاصةً في موقف رجال الكنيسة تجاه بعضهم البعض، وأيضًا موقفهم من الملكية في بيت المقدس، وفي أمر العلاقات بين الكنيسة اللاتينية والكنائس الشرقية والأنظمة الدينية الحربية وإن كان في هذا المقام أكثر تحيزًا لرجال الكنيسة. غير أن ذلك ما يتوقع من رجل ينتمي للكنيسة. لقد افتقد وليم الصوري الموضوعية في النقاط المشار إليها ولذا حرص الباحث على التدقيق في جدية ما أورده وليم في هذا الشأن. ومهما يكن من أمر؛ فإن كتابه يبقى عملاً جديرًا بالاحترام.

وكان المصدر الرابع هو دانييل ذلك الأسقف الذي قام بالحج إلى الأراضي المقدسة في سنة ١١٠٦، وقد وضع كتابًا تناول فيه تلك المرحلة، وقد اعتمدنا على الترجمة الإنجليزية المعنونة بـ The Pilgrimage Of The Russian Abbot Daniel In The Holy Land. بدأ الحجاج الروس في القيام برحلات الحج مع نهاية القرن العاشر عند تحولهم إلى المسيحية، وقد سبق دانييل كما يقال برحلة الحج

القديس ثيودوسيوس من كييف ويقال أنه أول من قام بالحج، وكان أول اسم لدينا هو القديس فارلام أسقف لورا كييف St. Varlaam, Abbot of the Laura of Kief والذي زار القدس سنة ١٠٦٢م، غير أن أول رحلة مدونة هي رحلة المقدم دانييل.

وتجئ أهمية هذه الرحلة وبالتالي هذا المصدر من كونها تمت إبان الفترة التي تناولها البحث، فقد وقعت خلال الفترة (١١٠٦ – ١١٠٢م)، وهي الفترة المبكرة من وجود المملكة اللاتينية على الأرض المقدسة.

والواقع؛ أن دانييل تناول بالتفصيل أحوال المنطقة بعد سنوات قليلة من الغزو الصليبي، ملقيًا الضوء على جوانب الحياة المختلفة بها، وكان عميق التأثر بالجانب الديني، وقد أعطاه اهتمامًا كبيرًا في كتاباته. زار دانييل كل الأضرحة والأماكن المقدسة سواء في فلسطين أو الضفة الغربية لنهر الأردن، وأيضًا الأديرة وغيرها من الأماكن. وقد تخير الأدلة المهمة لرحلاته ودون كل شيء شاهده، وطبقًا لروايته فإنه لم يسجل شيئًا لم يره بعينه. لذا يعد ما دونه عملاً ذا قيمة كبرى. وقد أفاد منه الباحث إلى درجة كبيرة فيما يتعلق بموضوع الدراسة خاصةً في الجانب المتعلق بالمنشآت الكنسية، وكذلك الواجبات الرعوية للكنيسة.

ثم يأتي يوحنا قس وزبرج كمصدر خامس، حيث اعتمدت عليه في وصفه للأماكن المقدسة وذلك في الترجمة الإنجليزية المعنونة بـ Description of the holy land. ويبدو أن يوحنا قد سجل كتاباته بعد مضي وقت كبير من قيامه بالحج، وزيارة الأماكن المقدسة. ومن المؤكد أن ذلك العمل تم بعد ثلاثين عامًا، حيث زار البلاد والأماكن المقدسة فيما بين سنة (١١٦٠- ١١٧٠م)، بينما كتب زيارته بعد ذلك وبالتحديد في سنة ١٢٠٠م. وقد دفعه ذلك إلى الاقتباس من كتابات معاصرة تصف الأماكن المقدسة.

وميزت كتاباته نظرة خاصة لسكان المملكة اللاتينية في بيت المقدس من قبل رجل ألماني مثله، وبالتالي كان مدافعًا في كتابه عن الصليبيين الألمان. ومهما يكن من أمر؛ فإن عمله جاء كبير الفائدة إلى حد بعيد، وذلك في مجال البحث عن العلاقة بين الكنيسة والأنظمة الدينية الحربية. حيث نقل صورًا ذات فائدة عظيمة عن أعمال تلك الأنظمة، وكذلك عن المنشآت، وأيضًا الأعياد والاحتفالات في

المملكة اللاتينية. وتجئ أهمية رواية يوحنا قس ورزبرج لكونه شاهد عيان لأوضاع المملكة اللاتينية في بيت المقدس قبل سنوات قليلة جدًا من سقوطها.

أما المصدر السادس، فهو فوقاس وكتابه المعنون The Pilgrimage of Johannes Phocas قام فوقاس بالحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين قبل عامين من سقوط المملكة على يد صلاح الدين. ويبدو أنه كان يحيا حياة عسكرية، فقد خدم تحت إمرة الإمبراطور إيمانويل كومنين.

وقد ترك فوقاس تلك الحياة ليتحول إلى راهب، ثم يزور الأماكن المقدسة بغرض الحج في سنة ١١٨٥م، ويجئ كتابه عظيم الفائدة، فهو يصف الأماكن المقدسة وذلك بعد استقرار الصليبيين واستقرار أعمالهم الإنشائية وما أحدثوه من تغييرات، بيد أن الكتاب مجرد وصف مختصر، بالإضافة إلى انجرافه في عرض قصص دينية دارت أحداثها في المناطق التي وصفها، وليس ذلك أمر خاص به.

حيث وقع كل حجاج الأراضي المقدسة في فلسطين في نفس المورد، ويمكن إرجاع ذلك إلى حالة التصوف التي تصيب الحاج إلى مثل تلك المناطق، بالإضافة إلى محاولة كل منهم إبراز ما لديه من خلفية علمية إن جاز التعبير، وإبراز سعة علمه.

وقد أفاد الباحث من المصدر فيما أورده من تفاصيل حول كنائس القدس وما حدث فيها من إضافات.

وكان المصدر السابع هو ثيودريك Theodrich وكتابه وصف الأماكن المقدسة في فلسطين سنة ١١٧٢م، ولذا فهو مصدر له أهميته. وكان ثيودريك راهبًا ألمانيًا تولي أسقفية وورزبرج سنة ١٢٢٣م. ويبدو أنه كتب عما رآه وما سمع عنه، غير أنه كان مسهبًا في وصف ما رآه، مختصرًا في ذكر ما سمع عنه.

ومهما يكن من أمر؛ فقد أمدنا كمصدر بمعلومات لها قيمتها خاصةً في أحوال الأنظمة الحربية الدينية. وكذلك العلاقات. وأيضًا - وهذا هو الأهم - ذكر الاحتفالات والأعياد الدينية.

كما استعان الباحث بمجموعة من مصادر الحجاج - مجهولين - في مواقع مختلفة من الدراسة. ومن بين المصادر الهامة التي استعان بها كتاب المؤرخ اينهارد

عن حياة شارلمان، وقد كتب سيرته فيما بين سنة (٨٢٩ - ٨٣٦م)، ويعد شاهد عيان للفترة الأخيرة من حياة شارلمان، وأسهب في مدحه.

كما استعنت ببعض المراسيم والمراسلات الواردة في سجلات مملكة بيت المقدس والتي نشرها رورخت تحت عنوان Regesta Regni Hierosolymitani وأيضًا المراسيم والمراسلات البابوية والإمبراطورية الواردة في كتب النصوص والوثائق التي أشرنا إليها كاملة في قائمة المصادر في نهاية البحث.

ثانيا- *المصادر العربية*

أما المصادر العربية التي استعان بها الباحث، فإنه تجدر الإشارة بادئ ذي بدء إلى قلة وضآلة ما ورد فيها حول ما يتعلق بموضوع البحث إلى حد بعيد، غير أن هناك بعض المصادر التي استعان بها الباحث ومنها:

ابن ميسر: وهو محمد على بن يوسف المتوفي سنة ٦٧٧هـ، وكتابه "أخبار مصر"، وقد أفاد منه الباحث في بعض أمر حول أحداث استيلاء الصليبيين على المدن العربية. كذلك اعتمدت في مصادري على أسامة بن منقذ: أبو مظفر بن رشد بن على بن مقلد، المتوفي سنة ٥٨٤ هـ، وكتابه "الاعتبار"، وهو كتاب جيد تناول موضوعات شتي عاشها صاحبها بنفسه وهو قريب إلى المذكرات الشخصية، وقد أفاد منه الباحث بحق في حروب المملكة ودور رجال الدين فيها، وقد نشر الكتاب وحققه فيليب حتى.

واعتمدت أيضًا على كتاب عماد الدين الأصفهاني: أبو عبد الله محمد المتوفى سنة ٥٩٧هـ، والمسمى بـ "الفتح القسي في الفتح القدسي"، وهو كتاب طيب لشاهد عيان لأحداث لها قيمتها في الفترة السابقة على انهيار مملكة القدس الصليبية، ومما يؤخذ على الكتاب إفراط صاحبه في العبارة المسجوعة مما كان له أثره على الكتابة التاريخية، وقد أفاد الباحث منه في بعض ما تعلق بما أحدثه الصليبيون في المسجد الأقصى. واعتمد الباحث على بعض النصوص والوثائق المترجمة الواردة في كتاب "الحروب الصليبية - نصوص ووثائق" نشر الدكتور قاسم عبده قاسم.

المدخل

أشرف صالح محمد سيد
عضو هيئة التدريس
جامعة ابن رشد – هولندا

تمثل العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي جانبًا هامًا في دراسات العصور الوسطى سواء في الشرق أو الغرب، فهي تلقي الضوء على طبيعة ونوعية الصراعات بين قوتين لكل منها تكوينها السياسي والإنساني والحضاري المختلف، وتوضح طبيعة ونوعية الصراعات التي حمل بعضها راية الدين ليغلف أطماعه السياسية، بالإضافة إلى إيضاح الجوانب الحضارية والثقافية ومدى الالتقاء الإنساني والفكري، وتأثير ذلك على فكر وحياة المجتمع لكلا الجانبين.(١)

وترجع أهمية تاريخ الحروب الصليبية إلى أنها تمثل تجربة من تجارب العروبة والإسلام سواء في المشرق أو في المغرب، وهي تجربة متعددة الجوانب، خطيرة، مليئة بالدروس والعظات مما يتطلب منا أن نتفحصها ونقلب صفحاتها من وقت لآخر لنستفيد من نتائج أخطاء الماضي، ولنواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها، ولنتفهم أخطار المستقبل ونعمل على تجنبها.(٢)

لقد أطلق المؤرخون مصطلح "الحروب الصليبية" على تلك الحملات التي شنها الإفرنج في القرون الوسطى على بلاد الشام وفلسطين خلال الفترة (١٠٩٥ - ١٢٩٠). إلا أن هذا المفهوم يكاد يكون ضيقًا، فالحروب الصليبية أوسع من ذلك وقد سبقت هذه الفترة. الحقيقة أن الحروب الصليبية بدأت منذ فتح المسلمين لجزر المتوسط وبلاد الأندلس. وبهذا المنظور، يمكن تقسيم الحروب الصليبية إلى ثلاثة مراحل، وهي الحروب الصليبية التي شنها النصارى على مسلمي الأندلس، وذلك منذ فتح شبه الجزيرة في القرن الثامن الميلادي إلى غاية استردادها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، ثم الحروب الصليبية التي شنها الإفرنج على البلاد العربية في المشرق وذلك منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي إلى غاية طردهم منها في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وأخيرًا الحروب الصليبية التي شنها الأوربيون على البلاد

العربية منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي وانتهت باحتلال الأوربيين في القرن التاسع عشر الميلادي لمعظم البلدان العربية والإسلامية في أفريقيا وأسيا.[٣]

وصفوة القول؛ أن "الصليبيات" من نتاج الغرب الأوربي الذي نضجت فيه فكرة الحرب المقدسة بصورة رشحته ليكون الرحم التاريخي الذي خرجت منه "الصليبيات"، التي اقترنت بأخريات القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، فإذا أضفنا إلى ذلك ارتباطها بالغفران الكنسي من الآثام والذنوب، أدركنا بالفعل مكان وزمان ميلاد تلك الظاهرة التاريخية الكبرى في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.[٤]

لقد كان الصراع الإسلامي – الصليبي صراعًا حضاريًا في جوهره، وسياسيًا وعسكريًا في ظاهره، صراعًا بين حضارتين؛ الحضارة العربية الإسلامية التي كانت لا تزال تحتفظ ببعض مقومات قوتها، والحضارة الأوربية التي انطلقت من عقالها تشق طريقها صوب القوة والتوسع الخارجي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، فأرادت أوربا الكاثوليكية التوسع الخارجي على حساب القوى العربية الإسلامية المعاصرة التي كانت تعاني وقتئذ من حالة التشرذم السياسي. ونجح الصليبيون في النهاية في تأسيس كيانات صليبية لهم على التراب العربي، وأسسوا مملكة لاتينية في فلسطين وبلاد الشام عاشت قرابة قرنين من الزمان إلى جانب إمارة الرها وأنطاكية وطرابلس.[٥]

في الحقيقة من المستحيل تفسير الأشياء أو الأحداث مع استبعاد البعد الروحي أو الديني،[٦] فلا يمكننا أن نفهم العصور الوسطى أو الحروب الصليبية نفسها إلا من خلال مفاهيم العصر وعقلية البشر في وقت تميز بتضخم الظاهرة الدينية.[٧] فقد تمثل هجوم الغرب الأوربي على الشرق الإسلامي في عدة دوافع كان على رأسها الدافع الديني لتحرير البقاع المقدسة من براثن المسلمين.

لقد كانت الحركة الصليبية إفرازًا لأحوال أوربا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية في القرن الحادي عشر، هذه الأحوال كنت بدورها نتاجًا للتفاعلات التي جرت على أرض الواقع الأوربي طيلة العصور الوسطى الباكرة، وإذا كان بعض الباحثين يرى في الحركة الصليبية نتاجًا للتفاعل بين المؤسستين

الرئيسيتين في أوربا العصور الوسطى؛ الكنيسة والإقطاع، فإن هناك روافد جانبية خلقت الأفكار، والقيم، والمثل، والظروف التي جعلت الحركة الصليبية أمرًا واقعًا. ومن أهم روافد هذه الحركة الحج Peregrinatio إلى الأراضي المقدسة في فلسطين.(٨)

إن حركة الحج قد هيأت الحروب الصليبية فكريًا وعمليًا؛ فقد اسهمت في تعاظم الأمزجة والميول الدينية الزهدية، وعرفت الأوربيون على الطرق إلى الشرق، وعلى الوضع في البلدان الشرقية.(٩)

الجدير بالذكر؛ أن الحج إلى بيت المقدس، في الفترة السابقة على عصر الحروب الصليبية، كان يحظى بتقدير كبير في مجتمعات أوربا الغربية. والراجح أن الحملة الصليبية كانت التطور المنطقي للحج المسيحي إلى فلسطين، إذ لم تكن فكرة الحملة لتطرأ على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية قد استمرت منذ فترة باكرة وحتى أخريات الزمن الحادي عشر الميلادي. ذلك أن تيار الحج المستمر كان لابد أن يؤدي بالضرورة إلى فكرة أن الأرض التي شهدت قصة المسيح، وفيها ضريحه، لابد من أن تكون تحت سيطرة أتباعه. ولم يكن السبب هو الرغبة في حل المشكلات والصعوبات العملية التي كانت تواجه الحجاج الكاثوليك، ولكن لأن أوربا التي بدأت تشعر بقوتها رفضت بقاء أرض المسيح بأيدي المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية في صورة الكفار المتوحشين.(١٠)

وكانت الفكرة التي ملكت عقول أبناء الغرب الأوربي في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي، وهي فكرة تخليص الأرض المقدسة من المسلمين. وقد أدى هذا بالضرورة إلى بروز أهمية القيام بحملة حج مسلحة (وهي الحملة الصليبية) لتحقيق هذا الهدف.(١١) كما أن الحملة كانت خير فرصة للخلاص في الدنيا والثواب في الآخرة.(١٢)

والحق أن المسيحيين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة يباشرون طقوسهم ويتمتعون بحقوقهم كاملة، وإذا كانت هناك إشارات في كتب التاريخ لقيام بعض الحكام باضطهاد أهل الذمة؛ فإننا يجب أن نذكر دائمًا أن هذه الحالات فردية ومؤقتة وتعد خروجًا على المبدأ العام الذي سارت عليه الدولة الإسلامية منذ قيامها.

فقد كتب بطرك بيت المقدس في القرن التاسع رسالة خاصة سرية إلى زميله بطرك القسطنطينية، جاء فيها بالنص القطعي "إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أي أذى أو تعنت"، ويعلق أحد الكتاب الغربيين على ذلك بقوله: "إن الحق يتطلب منا أن نعترف بأن المسيحيين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية، أسعد حالاً بكثير مما كانت عليه الطوائف المسيحية التي عاشت في كنف الدولة البيزنطية ذاتها".(١٣)

ويذكر أحد كبار المؤرخين الأوربيين، أن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر بالذات، لا يصح أن تتخذ بأي حال من الأحوال سببًا حقيقيًا للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي.(١٤)

حركة الحج المسيحي إلى فلسطين من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي(١٥)

إن الرغبة في الحج راسخة الجذور في الطبيعة البشرية، فوقوف المرء في نفس الموقع الذي وقف فيه مَن يجلهم ذات مرة، ومشاهدة نفس الأماكن التي ولدوا وكافحوا وماتوا فيها، يبعث في المرء شعورًا بالاتصال الروحي بهم، وفي ذلك تعبير عملي عما يشعر به نحوهم من تبجيل، فجماعات الناس تُقبل في تلهف إلى تلك الأماكن التي يعتقدون أن الرب أكسب الأرض قداسة فيها.(١٦) فقد تطور الحج المسيحي من ممارسة فردية بفعل الشوق والحنين إلى الأرض التي شهدت خطوات المسيح إلى ممارسة تكفيرية تباركها الكنيسة وتنظمها لأولئك الْخُطَاةَ الراغبين في التوبة.(١٧)

الواقع أن؛ المسيحية لا تحتوي ضمن أركانها المعروفة في صورة التثليث: التجسد، والصلب، والقيامة، على فكرة الحج،(١٨) ولا توجد أدنى إشارة في العهد الجديد لأمر الحج إلى القدس.(١٩) ومع ذلك فقد شعر المسيحيون منذ وقت مبكر بالرغبة القوية في أن يروا بأنفسهم تلك المواقع التي تنقل فيها الأنبياء والقديسين للتبشير بالدين الجديد. وقد قام الحج إلى بيت المقدس بدور كبير في حياة مسيحي الغرب منذ أزمان بعيدة ولم يقف بعد المسافة بين الأقطار وبين بيت المقدس حائلاً

دون القيام به، بل كلما زادت الشقة (المسافة) بعدًا أمام الحاج، وكلما زاد الطريق مشقة، زادت النفس اطمئنانًا إلى غفران الخطايا ومحو الآثام. ولم يتوقف الحج عند فترة معينة من التاريخ بل استمر متواصلاً طيلة العصور المختلفة، واشتدت حركته عقب تشييد كنيسة القيامة.[٢٠]

كان الحج نادرًا في **أيام المسيحية الأولى** وكان الفكر المسيحي يتجه إلى تأكيد ألوهية المسيح وعموميته أكثر مما يؤكد بشريته، وكانت السلطات الرومانية لا تشجع الارتحال إلى فلسطين. الملاحظ أنه خلال القرنيين الأولين للميلاد لم يكن أمر الترحال بهدف الحج إلى المدينة المقدسة أمرًا ميسورًا،[٢١] فالمدينة (القدس) لم تكن سوى أطلال بعد أن دمرها تيتوس (٣٩ – ٨١م) Titus سنة ٧٠م.[٢٢] وقد بقيت كذلك إلى أن أعاد الإمبراطور هادريان (٧٦ – ١٣٨م) Hadrian بناءها فأصبحت تسمى مدينة "إيليا" الرومانية Aleia Capitolina.[٢٣] غير أن المسيحيين كانوا يتذكرون المكان الذي وقعت فيه أحداث حياة المسيح، وبلغ احترامهم لموقع "كالفاري" Calvary حدًا جعل هادريان يعمد إلى إقامة معبد لفينوس كابيتولينا هناك Venus Capitolina.[٢٤]

وقد عرف مسيحيو **القرن الثالث** الكهف الذي ولد فيه المسيح في بيت لحم معرفةً جيدة وراح المسيحيون يرتحلون إلى هناك وإلى جبل الزيتون. وكان الهدف من زيارة هذه البقع المقدسة هو الصلاة واكتساب الفضائل الروحية،[٢٥] إلا أن التطور البارز في فكرة الحج في المسيحية حدث في عهد قسطنطين (٢٧٥ – ٣٣٧م) Constantius – أول الأباطرة المسيحيين في أوائل القرن الرابع الميلادي- الذي أوقف الاضطهاد الذي لحق بالمسيحية، وعمل على إتباع سياسة متوازنة تجاه القوى الدينية المختلفة في الإمبراطورية الرومانية.[٢٦]

ونجد أن أمه الإمبراطورة هيلانة (هيلينا) Helena انطلقت إلى فلسطين من أجل الكشف عن رفات السيد المسيح والحصول على كافة متعلقاته، ويذكر المؤرخ الصليبي ستيفن رنسيمان Steven Runciman أنها "من انجح علماء الآثار العظام في العالم وأرفعهم شأنًا"،[٢٧] فقد قامت بالعثور على خشبة الصلب،[٢٨] ودعم أبنها الإمبراطور اكتشافها ببناء كنيسة القبر المقدس هناك.

ومنذ ذلك الحين؛ صار الحج إلى تلك البقاع تقليدًا قائمًا لدى المسيحيين. وبدأ على الفور تيار من الحجاج يتدفق إلى المكان الذي بذلت فيه هيلانة جهودها. فقد اعتقد الناس أن زيارة هذه الأماكن سوف يخلصهم من الخطايا والآثام والأمراض، ولهذا سوف يرتك الحاج بلاده ويقطع تلك المسافات الشاسعة من أجل الحصول على الغفران، فما قيمة التعب الذي يصادفه الحاج، أليس المسيح هو القائل: "هذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ، بَلْ لأَجْلِ مَجْدِ اللهِ" (إنجيل يوحنا ١١: ٤).

إذن لا محل للشكوى من أهوال الطريق وما يصادفه الحاج المسيحي من متاعب جثمانيه مظهرها الجوع، والظمأ، وتشقق الأيدي والأقدام، والعري أحيانًا، والسير في حمارة القيظ (شدة الحرارة)، أو تحت زمهرير الشتاء (شدة البرودة)، فكل هذه المتاعب ليست إلا تمجيدًا للرب وللعقيدة الدينة الخالصة، وهذا هو إيمان المسيحي الماضي إلى فلسطين، حيث يعد تعفير قدميه في تراب البقعة التي شهدت مولد المسيح، وتكريزه، وآلامه في سبيل الإنسانية راحة نفسية عميقة تصاحبه دنياه، وزادًا يتقوت به في آخراه.[٢٩]

وفي الحقيقة؛ لا نستطيع أن نعرف أعداد هؤلاء الحجاج لأنهم لم يدونوا في الغالب شيئًا عن رحلاتهم، غير أنه في سنة ٣٣٣م جاء أحد المسافرين من ميناء بوردو Bordeaux الفرنسي إلى فلسطين ودون شيئًا عن رحلته.[٣٠] وبعد حوالي خمسين عامًا كتبت سيدة لا يتطرق الكلل لقلبها تُدعى اثيريا Aetheria وأحيانًا أخرى القديسة سيلفيا St. Silvia قديسة إقليم كتيان الفرنسي وصفًا لرحلة قامت بها اشتملت زيارة مصر وطور سيناء.[٣١] ويعكس هذا الأمر دور المرأة في حركة تاريخ العصور الوسطى، كما يوضح أن الحج لم يكن قاصر على الرجال، وأن الحاج كان يتحرق شوقًا لرؤية أكبر عدد ممكن من الأماكن في فلسطين، ثم يتجه بعدها لزيارة مصر كونها مرتبطة برحلة العائلة المقدسة.[٣٢]

ومع نهاية المائة الثالثة للمسيح غدت الديانة المسيحية بأتباعها داخل الإمبراطورية الرومانية بقوة ليس فقط لا يمكن قمعها، بل لا يجوز تجاهلها والاستهانة بها، وقد دفع هذا العديد من الساسة الرومان إلى إعادة النظر في مواقفهم منها ومن أتباعها، وخاصةً أيام الأزمات الداخلية والحروب الأهلية.[٣٣]

وعند اقتراب نهاية **القرن الرابع** استقر في فلسطين واحد من عظماء آباء العالم المسيحي اللاتيني، وهو القديس جيروم St. Jerome،(٣٤) وجذب إليه جماعة من نساء الطبقة الراقية ذوات الثراء اللائي كن يتلقين العلم عنه في إيطاليا.(٣٥) كان يستقبل في صومعته في بيت لحم موكبًا لا ينقطع من الزوار الذين كانوا يفدون إليه معبرين عن احترامهم بعد مشاهدة الأماكن المقدسة.(٣٦) وعلى الرغم من أن القديس جيروم لم يقر بأن للإقامة في بيت المقدس قيمة روحية، إلا أنه أعتبر أن من الدين التعبد في الموضع الذي وطأته قدما المسيح.(٣٧) ولقد لقي رأيه من الذيوع والقبول ما لم يلقه رأي القديس أوغسطين St. Augustine.(٣٨)

على أن جيروم نفسه أوصى صديقه ديزيدروس Desiderius بزيارة الأماكن المقدسة وذلك في الرسالة التي وجهها إليه، ويشرح جيروم بأنه بفضل زيارته ازداد فهمه للأناجيل. غير أنه في نوبة غضب - كما يظهر في رسالة أخرى- أشار إلى أنه ما من ثمة خسارة إذا لم تجر زيارة بيت المقدس.(٣٩) ويقال أنه في مطلع القرن التالي بلغ عدد الأديرة(٤٠) والنُّزُل التي شُيدت في القدس أو حولها لاستقبال الحجاج مائتين تخضع كلها تقريبًا لرعاية الإمبراطور.(٤١)

وتجدر الإشارة إلى؛ أنه كان للحج في العصور الوسطى تقاليده الخاصة به، لاسيما في الغرب، إذ يتحتم على الراغب في الحج أن يستأذن الأسقف ويتناول منه عصا الحج ومزودًا، يستوي في ذلك الغني والفقير. وأما العصى فتكاد تبلغ طول الحاج، وفي وسطها عقدة، وقد تزداد أخرى في أعلاها، وكثيرًا ما يعقد هذا الطرف على شكل صليب، وأما المزود فيعلق برباط، ويزود الحاج بكتب توصية بجميع الأديرة التي يمر بها.

وكان الحجاج إذا بلغوا حدود بيت المقدس دفعوا للمسلمين رسم الدخول عند باب يُعرف بـ باب الحج، وحينذاك يؤذن لهم بالتجول وأداء مناسك الحج، ومعنى هذا أن أبواب المدينة لا تفتح على الأكثر إلا للأغنياء أو مَن في حكمهم، ويعرج الحاج بعدئذ على كنيسة القيامة والضريح، ويصعد جبل الزيتون ويمضي إلى مغارة بيت لحم، ثم يستحم بماء الأردن، ويأخذ بعض سعف النخل ويحمله معه إلى بلده، حيث يضعه على مذبح الكنيسة.(٤٢)

وشهد منتصف **القرن الخامس** ذروة هذا الإقبال المبكر على القدس. واستقرت هناك الإمبراطورة إيودوسيا Eudocia- ابنة فيلسوف وثني أثيني- بعد حياة تعسة في البلاط وجاء في ركابها كثيرون من الأرستقراطيين البيزنطيين الورعين. وفي الوقت الذي أخذ الناس فيه يكتبون الترانيم كانت هذه الإمبراطورة ترعى الاتجاه إلى جمع الآثار الدينية، التي بدأت في وضع مجموعة منها في القسطنطينية بأن أرسلت إلى هناك لوحة السيدة العذراء التي رسمها القديس لوقا. وقد حذا حذوها حجاج من الغرب ومن القسطنطينية، وبدأ بذلك انتقال بدائع التحف الدينية من الشرق إلى الغرب بعد أن كانت متطلبات الترف المادي في العالم هي التي تأتي من الشرق منذ أقدم العصور.(٤٣)

ومن الملاحظ؛ أن الإمبراطورة استقرت في بيت المقدس وهذا دليل على ظهور تقليعة جديدة وهي الاستقرار في بيت المقدس بجوار الأماكن المقدسة في بيت لحم وغيرها من المدن المليئة بالمزارات الدينية والأضرحة. ومن ناحية أخرى؛ إن الظاهرة الجديدة التي بدأتها الإمبراطورة بتأليف جماعة مجمع الآثار ما لبثت هذه الجماعات أن صارت عادة محببة، وأُسست آلاف الكنائس في أوربا الغربية، وأصبحت مكرسة للآثار التي أحضرها الحجاج من الشرق. وعلى ذلك، نُهبت كنائس القدس ونهبت الآثار التي كانت بعيدة قطعة بعد قطعة على مر القرون.(٤٤)

وقد كان هناك ميل متزايد لتبجيل القديسين، وكان التقاة يقولون إن العون الإلهي يمكن أن يُستمد من قبورهم وإن أجسادهم قادرة على أن تأتي بالمعجزات. وبدأ الرجال والنساء في قطع مسافات طويلة ليروا أثرًا مقدسًا، وجاوزا ذلك إلى محاولة الحصول على واحد من تلك الآثار لينقلوه إلى موطنهم ويضعوه في كنيستهم داخل خزانات خاصة. لقد كان هناك ثمة اعتقاد بأن قطع الجلد تلك وقطع العظم ستتجمع مرة ثانية يوم القيامة للمشاركة في النعيم عندما تتجلى الذات الإلهية ويبعث الله مَن في القبور.(٤٥)

وقد ساعدت التجارة، التي كانت ما تزال قائمة على شواطئ البحر المتوسط على الترابط بين الشرق والغرب، وإن كانت قد أخذت في الاضمحلال نتيجة للفقر الذي بدأ يتزايد في الغرب، فكانت تنقطع بين الحين والآخر كما هو الحال عندما

أحال القراصنة الوندال Vandals البحار في منتصف القرن الخامس إلى مناطق غير آمنة لا يستطيع أن يجوبها التجار غير المسلحين.(٤٦)

وفي **القرن السادس** الميلادي، ازدهرت حركة الحج، وهناك مدونات كتبها حجاج غربيون ارتحلوا شرقًا في سفن تجارية سورية أو يونانية. وكان التجار ينقلون الأخبار والقصص الديني عند نقلهم المسافرين والبضائع. كما تم تأليف كتاب مرشد أو دليل لبيت المقدس The Breviarus of Jerusalem ليكون دليلاً للحج خلال القرن السادس. ومن المفترض أن هذه المؤلفات وزعت في الغرب الأوربي وفي الأماكن المقدسة على المسافرين من الحجاج، نظرًا لكونهم مقبلين على زيارة أماكن جديدة بالنسبة لهم ولم يألفوها من قبل.(٤٧)

وقد حدثت حركة الفتوحات العربية الكبرى في **القرن السابع** الميلادي، ودخلت الشام بما فيها فلسطين تحت السيادة العربية الإسلامية، وبصفة عامة اتسمت سياسية المسلمين تجاه الأماكن المقدسة لدى المسيحيين بالتسامح الديني، ولم تتسم بالتعصب.(٤٨) والجدير بالذكر؛ أن التجار السوريون لم يعد يأتون إلى الشواطئ الفرنسية والإيطالية ومعهم البضائع والأخبار، وظهر القراصنة مرة أخرى في البحر المتوسط، وكان الحكام المسلمون يرتابون في المسافرين المسيحيين القادمين من الخارج. وكانت الرحلة شاقة وباهظة التكاليف بعد أن تضاءلت الثروة في الغرب المسيحي، بيد أن الصلة لم تنقطع تمامًا. فكان المسيحيون الغربيون ما يزالون يفكرون في الأماكن المقدسة في الشرق بتعاطف وحنين. وإذا كنا نعرف أسماء بعض الحجاج الذين ينتمون إلى ذلك العصر فإن أقاصيصهم تبين أن المغامرين وغير المرفهين من الناس هم وحدهم الذين كانوا يحدوهم الأمل في بلوغ القدس، وأن النساء فيما يبدو لم يكن يجازفن بالحج.(٤٩)

وخلال **القرن الثامن** الميلادي، زاد عدد الحجاج، فالحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة في فلسطين شهد عند نهاية هذا القرن ازدهارًا من خلال توطد العلاقات بين الدولة العباسية والإمبراطورية الكارولنجية خاصةً خلال عهد هارون الرشيد.(٥٠) ومن الأمور ذات الدلالة أننا لدينا وثيقة تاريخية تدل على مدى تسامح المسلمين تجاه قضية الحج المسيحي، والوثيقة تُعرف باسم "مفكرة بكنائس بيت المقدس" وتحتوي حصرًا لكنائس وأديرة المدينة والمناطق المجاورة لها، وكذلك أسماء الشمامسة،

والأساقفة، والرهبان الذين يقومون بالخدمة في تلك المؤسسات الدينية المسيحية. وهناك مَن يرى أن تلك الوثيقة قد كُتبت في ظل العلاقات الودية بين الخلافة العباسية والإمبراطورية الكارولنجية، وأنه من المستحيل إنجاز ذلك العمل الكبير الدقيق أو الطابع الإحصائي دون أن يكون ذلك من خلال موافقة رسمية، وقيمة الوثيقة أنها توضح أن المؤسسات المسيحية في فلسطين كانت تعيش مرحلة مهمة من الازدهار حينذاك.[٥١] ويذكر رنسيمان "أنه خلال تلك العلاقات الحسنة بين شارل العظيم Charlemagne (٧٦٨ - ٨١٤م) والخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨م) لابد وأن يكون عدد كبير من الحجاج قد وصل إلى القدس من بينهم بعض النساء".[٥٢]

وفي غضون **القرن التاسع الميلادي** كانت المنشآت التي أنشأها شارلمان في فلسطين لا تزال في حالة تسمح لها بالعمل غير أنها خاوية وآخذه في الانهيار.[٥٣] وفي غرب أوربا في هذا القرن زاد التحمس لعادة جمع الرفات والذخائر المقدسة، لأن المشرعين الكنسيين كانوا قد أعلنوا ضرورة احتواء كل المذابح الكنسية على جزء من رفات القديسين، هذا إلى جانب هواة جمع الرفات الذين تميزوا بالجشع وتكديس مجموعات كبيرة في الكنائس والأديرة الكارولنجية.[٥٤]

ومع بداية **القرن العاشر** الميلادي بدأ العصر العظيم للحج. وكان لتحسن ظروف الحج أثاره على الفكر الديني الغربي، إلا أننا لا نعرف على وجه الدقة التاريخ الذي قضى فيه القانون الكنسي لأول مرة بجعل الحج كفارة. وهو ما يُعرف بـ "الحج التكفيري" الذي يقوم به الشخص الذي يرتكب جرمًا فيبعد بذلك فترة عن المكان الذي أرتكب فيه جريمته. فقد كانت رحلة الحج بمثابة جزء من التعويض الذي يقدمه عن الجريمة التي ارتكبها ومن أجل انقاذ روحه.[٥٥] ولم تصبح فكرة الغفران فعالة حقًا إلا بعد أن ارتبطت بفكرة الحج إلى القدس.[٥٦]

ومن الملاحظ أنه؛ في القرن العاشر حدثت تطورات فعالة في أوربا إذ أن حركة دير كلوني الذي ظهر سنة ٩١٠م وأسس في فرنسا على يد "وليم التقي"[٥٧] قامت بإصلاح أوضاع الأديرة في أوربا وأحدثت نهضة دينية كبيرة، عملت على ازدهار حركة الحج، وإقامة شبكة كبيرة تهتم بأمور الحجاج وشئونهم، وسعت إلى

عـرض كافـة التيسـيرات اللازمـة مـن أجـل تـوفير مـا يلـزم الحجـاج مـن احتياجـات مختلفة.[٥٨]

وتـردد القول خـلال هذا القرن بـأن معجزات الرفـات المقدسـة هـي التـي عملـت علـى حمايـة الممتلكـات والحقـوق الإقليميـة للكنـائس والأديـرة التـي ترقـد بهـا تلـك الرفات.[٥٩] وفي أواخر هذا القرن شهدت أرض فلسطين حجاجًا لم يقدر لها أن تشـهد مثلهم قط، ذلك لأن الاعتقاد ساد يوم ذاك بأن نهاية العالم قد دنت، وأن العصر الألفي قد أزف وأن المسيح سيظهر للمؤمنين على رأس الألـف مـن السنين التـي غبـرت،[٦٠] وبهذا الاعتقـاد شـرعت الجمـوع الغفيـرة فـي التـدفق علـى الأرض المقدسـة مـن العـالم اللاتيني. عندئذ لم تقف رغبة الحجاج عند الزيارة فحسب، بل أراد بعضـهم البقـاء فـي فلسـطين حتـى يوافيـه الأجـل واسـتولت علـى النـاس صـوفية عميقـة. ويقـال أن أحـد الحجاج استلقى على الصليب هاتفًا: "أيها السيد المسيح، يـا مَن تفضلت بـالنزول عن عرش جلالك إلى الأرض لخلاص الجنس البشري، ويا مَن ارتفعت إلـى السـماء علـى شكل أدمي، أتوسل إليك لعظمتك القوية، أن تقبض روحي في نفس المكـان الـذي شـهد صعودك".[٦١]

وقد شـهدت بدايات **القرن الحادي عشر** الميلادي اضطهادًا شديدًا للمسيحيين، فقد قام الخليفة الفاطمي الحـاكم بـأمر الله (٩٩٩ - ١٠٢١م) باضـطهاد العناصـر المسيحية فـي دولتـه،[٦٢] فقد اتخـذ قـوانين صـارمة منـذ حـوالي (٤٠٠هــ/ ١٠١٠م)، فقـد أمـر النصـارى آلا يظهروا صـليبًا أو نـاقوسًـا، فنُزعت الصـلبان والنـواقيس. كمـا منـع أهل الذمة من التظاهر بالأعياد، وأكثر من ذلك هدم الكنائس، والبيع، والأديرة فـي مصـر، وصـادر أملاكها، واحتاط على ما يوجد في الكنائس وجعله ملكًا للدولة "الديوان".[٦٣]

وفي سنة ١٠٠٩م أمر بتدمير كنيسة القيامة، إذ زعم أن مـا يحـدث كل سنة من معجزة النور المقدس، التـي يحتفل بهـا النـاس مسـاء عيد الميلاد، لابد أنهـا مـن قبيـل البهتان ولا تتفق مع الدين. وفي سنة ١٠١٤ بلغ عدد مـا تعرض للحـرق والنهـب مـن الكنــائس نحــو ثلاثــين ألــف كنيســة، وتظــاهر عــدد كبيــر مــن المســيحيين باعتنــاق الإسلام،[٦٤] خوفًا من بطش الحاكم وتضييق العامة عليهم في الطرقـات، وفريـق مـنهم ثـاروا وسـاروا فـي شـوارع القـاهرة والفسـطاط حتـى تجمعـوا تحـت قصـر الحـاكم،

وارتفعت أصـواتهم بالشـكوى، وكـانوا يسـتغيثون بـه أن يخفـف عـنهم هـذا العنـاء، فاستجاب لهم، وانتهت ثورتهم بذلك.[٦٥]

والحقيقـة أن ذلـك التشـدد ضـد المسـيحيين لـيس مـن طبيعـة الإسـلام التـي تـدعو للتسامح والمعايشة الدينية،[٦٦] وينبغـي أن نـذكر أن اضـطهاد الحـاكم بـأمر الله لـم يكـن موجهًا ضد العناصر المسيحية فقط، فيذكر المؤرخ الصليبي رنسيمان "وهذه التدابير جرى اتخاذها أيضًا ضد اليهود. على أنه ينبغي أن يكون ملحوظًا أن المسلمين أنفسهم تعرضوا لهذا الاضطهاد على يد زعيم عقيدتهم (خليفتهم)".[٦٧]

وكان الحج نادرًا ما يحاط بالمخاطرة فيما عدا تقلبات الجو في جبـال الأناضـول، فقد كان الطريق مؤمنًا بالعساكر، ومزودًا بالطعام والماء. وكان الحجاج يلقون حسن الاسـتقبال مـن سـلطات بيـت المقـدس الأرثوذكسـية المحليـة، وإن كـان هنـاك بعـض الصعوبات في بعض الأوقات، فعندما بدأ النورمان بمهاجمة الممتلكات البيزنطية في جنــوب إيطاليــا، عُومــل الحجــاج النورمــان بفتــور شــديد مــن المــوظفين الإمبراطوريين.[٦٨] هذا ولم تقتصر سوء المعاملـة للمسيحيين الغربيين علـى الجانـب الإسـلامي فقط، بـل تعدتـه إلـى الجانـب البيزنطـي، فقد تعـرض الحجـاج بإيعـاز مـن الإمبراطور البيزنطي للحرمان من الدخول إلى القبر المقدس، فقد طلب الإمبراطور باسيل الثـاني (٩٥٨ – ١٠٢٥م) Basil II من موظفيه فرض ضـريبة علـى الحجـاج وخيولهم.[٦٩]

بيد أن هذه المتاعب كانت نادرة فالجدير بالإشارة؛ أن القرن المذكور شهد تزايد أعداد الحجاج المسيحيين إلى فلسطين، ولـدينا إشـارة مهمـة وردت فـي نـص عـن أحـد المعاصـرين وهـو رالـف جلابـر (٩٨٥ – ١٠٤٧م) Ralph Glaber الـذي كـان مـن رهبان دير كلوني تدل على ذلك، فمما جاء في هذا النص: "وفـي الوقت نفسـه بـدأت أعداد لا تحصـى تتجه إلى ضريح سيدنا المخُلص في القدس قـادمين من شتـى أنحـاء المعمـورة، وكانـت أعدادهم أكبـر ممـا كـان أي إنسـان يظـن أنهـا يمكـن أن تكـون فـي الماضي. ولم يكن العامة وأبناء الطبقات الوسطى فقط هم الذين يذهبون إلى هناك، بل كـان بيـنهم العديـد مـن الملـوك الكبـار والكونتـات والنـبلاء. وفـي النهايـة انطلـق بعـض الفقراء - وهذا لم يحث من قبل- وكان كثيرون يتمنون أن يلاقوا الموت هناك بدلاً من العودة إلى الوطن".[٧٠]

ومعنى ذلك؛ أن القرن الحادي عشر الميلادي هو القرن الذي حدثت في أخرياته الصليبيات شهد تعاظم ظاهرة الحج المسيحي إلى فلسطين. ومن الأمور ذات الدلالة أنه خلال المرحلة (١٠٦٤- ١٠٦٥) حدث الحج الألماني الكبير الذي قاده سيجفرد Siegfried رئيس أساقفة ماينز Mainz، وجونسر Gunther أسقف بامبرج Bamberg، ومعه عدد آخر من رجال الكنيسة،(٧١) ويقال أن عدد الحجاج بلغ سبعة آلاف وقيل عشرة،(٧٢) وقدره البعض بأثني عشر ألفًا من الرجال والنساء.

ومن الملاحظ؛ أن الصراع السلجوقي- الفاطمي خلال هذا القرن قد أثر على انسياب الحج المسيحي إلى فلسطين، فلم يعد بنفس التدفق ولم يعد بنفس الدرجة من الأمان، وهو أمر منطقي من خلال المواجهات العسكرية، وغياب السلطة المركزية القادرة على فرض الأمن في مناطق عديدة في بلاد الشام ومنها المناطق التي يمر بها الحجاج المسيحيون، مع ملاحظة أنه لم يحدث من جراء الوضع السابق ما يمكنه وصفه باضطهاد شامل ووقف للحج المسيحي إلى تلك البقاع المقدسة.(٧٣) فقد أورد أكثر من مؤرخ أوربي مسيحي منصف في صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئًا من أوضاع المسيحيين في الشرق،(٧٤) وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وأن ما اعترى المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين.(٧٥)

الجدير بالذكر؛ أن الجماعات الكبيرة من الحجاج المسلحين كانت أيضًا من أسباب المتاعب، فقد أقلقت السلطات الإسلامية المشاكل التي كانوا يثيرونها اعتقادًا منهم بأنهم كلما تعرضوا لمزيدًا من الأذى والمتاعب كانت رحلتهم أكثر نجاحًا.(٧٦) وفي رأي البعض أنه ربما كان المسلمون يفيدون تجاريًا من ازدهار الحج المسيحي إلى البلاد المقدسة، ولكن الدخل الذي كانت السلطات الإسلامية تحصله من الحجاج الكاثوليك كان تافهًا بالقياس إلى موارد المسلمين الهائلة آنذاك، ولاسيما إذا وضعنا في اعتبارنا أن التقشف كان أحد المثل العليا التي يسير الحجاج على هديها تشبهًا بالحواريين.(٧٧)

ومها يكن؛ فإن فرنجة أوربا اتخذت شكوى الحجاج إلى بيت المقدس ذريعة لحروب المسلمين في الشرق، فنجد أن البابا إربانوس (إربان/ أوربان) الثاني

Urbanus II (١٠٨٨ – ١٠٩٩م)، يكلف رجل الدين الفرنسي بطرس الراهب Pierre L'Ermite بالدعوة إلى حرب المسلمين، لتخليص الأماكن المقدسة.[٧٨] وعقد البابا في كليرمون فران Clermont Ferrand (كليرمونت) بجنوب فرنسا، مؤتمرًا اجتمع فيه الفرنجة من جميع أركان أوربا، خطب فيه كل من البابا وبطرس حاضين فيه على حرب المسلمين، فقال البابا في خطابه: "إنه من الواجب على النصارى أن يحموا أرواحهم بالذهاب في طريق المسيح، وإذا لم يستطيعوا فليقدموا أموالهم"، وقال بطرس الراهب: "إني نظرت قبر المسيح محتقرًا مهانًا وزواره مضطهدين".[٧٩]

فصرخ الحاضرون بالحرب، وهم يرددون "الله يريد ذلك" Dieux le volt وهي العبارة التي أصبحت صرخة المسيحية في حرب المسلمين. فأخذ الفرنجة يتجمعون من كل مكان لقتال المسلمين، وهم يعلقون على الكتف الأيمن أو على الكتفين صليبًا من قماش أحمر، لذلك عُرفت التي قاموا بها ضد المسلمين بـ الحروب الصليبية Cruzada،[٨٠] أما المؤرخون العرب مثل ابن تغري بردي فسموها بـ "حركة الفرنج"، أما المشتركون فيها فسماهم العرب "الفرنجة"، ويقصدون بهم كل محارب مسيحي غير عربي.[٨١]

وبذلك يتضح؛ أن الحج المسيحي لعب دورًا بارزًا في اندلاع الحركة الصليبية، بعد خطاب البابا أوربان الثاني الذي أشعل نيران الحماس التي لم تنطفئ في نفوس اهل الغرب الأوربي، فلم يحدث في تاريخ القرون الوسطى في أوربا أن وجد خطاب أحدث مثل ذلك الأثر الفعال، على نحو ضمن لتلك الكلمات التي ألقيت في ذلك اليوم المشهود المكانة العليا في تاريخ أوربا العصور الوسطى، بل وعلاقاتها الدولية بأسيا وأفريقيا. لقد حول هذا الأمر المسيحية من ديانة مسالمة ترفض الحرب وتنبذ لغة القوة إلى ديانة محاربة، يحشد معتنقوها آلة الحرب الضخمة من أجل الاعتداء على الشعوب غير المسيحية.[٨٢]

المقدسات المكانية المسيحية في القدس[٨٣]

أما فيما يتعلق بالأعمال الأساسية من بناء وعمارة للمواقع الدينية المسيحية في القدس، فقد بدأ ذلك منذ عهد قسطنطين،[٨٤] وسرعان ما أصبحت القدس هي المدينة المقدسة بامتياز، ومركز الحج الأهم في العالم المسيحي كله.[٨٥] وبعد اكتشاف أجزاء من الصليب قرب الجلجثة[٨٦] وقبر المسيح (سنة ٣٢٥)، خلال رحلة قامت بها القديسة هيلانة، بنيت بفضل سخاء قسطنطين بازيليكة الشهادة (حيث تم وضع الصليب المكتشف، في جوار الجلجثة) وكذلك الكنيسة المقببة فوق قبر المسيح، وكذلك بازيليكة إيليونا على جبل الزيتون (فوق المغارة التي كان يجتمع فيها المسيح مع تلاميذه ويعلمهم ويحاورهم).[٨٧]

وخلال القرن الرابع، شُيدت أيضًا بمبادرة من أساقفة القدس وعدد من الأغنياء المتبرعين كنائس على جبل صهيون (في موقع تجلي المسيح بعد القيامة وموقع نزول الروح القدس، والذي اعتبر أيضًا فيما بعد موقع العشاء الأخير)، وفي جثسيماني (في موقع الآلام)، وعلى قمة جبل الزيتون (في موقع صعود المسيح إلى السماء بعد القيامة). وفي القرن الخامس الميلادي بُنيت كنائس كثيرة في أنحاء متفرقة من القدس على مواقع نسبت إلى مشاهد من حياة من المسيح، ومنها قصر قيافا الذي أصبح كنيسة القديس بطرس، ومقر ومحكمة بيلاطس (كنيسة القديسة صوفيا)، وقبر العذراء مريم، وبركة سلوة، وبركة الغنم، وقبر لعازر في بيت عنيا ومواقع أخرى أقل أهمية. وبنت الأوغسطا أفدوكيا كنيسة أخرى ضمت رفاة القديس اسطفانوسوس المكتشفة في سنة ٤١٥.

وفي القرن السادس، بنى جوستينيانوس كنيسة القديسة مريم البتول الجديدة حيث وضع فيها بعضًا من ذخر العذراء مريم. وفي جوار هذه الكنائس بُنيت أيضًا مضافات وخانات مخصصة للحجاج. وتضاعف كذلك في المدينة المقدسة عدد الأديرة، وخاصةً على جبل الزيتون - ومنها دير ميلانيا الكبرى سنة ٣٧٢، ودير ميلانيا الصغرى سنة ٤١٧. وفي سنة ٤٥٠ رممت الامبراطورة إفدوكيا التي كانت تقيم في القدس سور المدينة وفق المسار الأوسع له بحيث ضمت جبل صهيون داخل السور.

وكان عدد المسيحيين قد أصبح هو الأكثرية في القدس، وكان اليهود ممنوعين من الدخول إليها، إلا في ذكرى دمار الهيكل، وخلال العهد القصير الذي حكم فيه جوليانوس (٣٦١ ـ ٣٦٣)، حيث جرت محاولة لإعادة بناء الهيكل إنما باءت بالفشل. وكان عدد الحجاج الوافدين من كل أنحاء العالم القديم كبيرًا جدًا. وعبر هؤلاء الحجاج أثرت الطقوس المقدسية بكنائس كثيرة في أرجاء العالم.

في سنة ٦١٤ استولى الفرس على المدينة بعد حصار طويل، وقتل عدد كبير من سكانها، ونهبت معظم معابدها وأحرقت. ودام احتلال الفرس لها حتى سنة ٦٢٩، وفي السنة التالية أعاد هرقل المنتصر على الفرس ذخر الصليب الذي كان هؤلاء قد أخذوه معهم إلى سلوقيا طيسفون. وقام البطريرك مودستوس بترميم جزئي لعدد من الكنائس. ولكن لم يمض وقت كثير حتى كان العرب قد وصلوا لمحاصرة المدينة، وبعد حصار دام سبعة أشهر رضخت المدينة للخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" وفق شروط متسامحة، فأعطيت الحرية المدنية والدينية مقابل جزية سنوية.

أما الأماكن المقدسة للمسيحيين،[٨٨] فكانت تتركز جميعها على التل الغربي، وعلى هذا، ظلت تلك المنطقة بالكامل منطقة مسيحية، ولم يستوطن الفاتحون المسلمون ذلك الجزء من المدينة. ومُنع المسلمون من أيضًا من ارتياد الكنائس الواقعة على جبل الزيتون ووادي قدرون، وخاصةً كنيسة الصعود[٨٩] Ascension وقبر العذراء، حيث كانت هذه الأماكن تجسد مواقع وأحداثًا هي موضع تبجيل من قِبل المسلمين كذلك. وسمح للمسيحيين ببناء وترميم كنائسهم دون قيود. وفي الواقع فقد كان هناك فيض من تشييد الكنائس في فلسطين والشام في القرنين السابع والثامن الميلاديين.[٩٠]

المشرق العربي الإسلامي قبيل الحروب الصليبية[٩١]

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي كان المسلمون في المنطقة العربية موزعين في ولائهم السياسي بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة، وبالإضافة إلى النزاع والتخاصم المستمر بين الخلافتين، فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذي جعل بلاد الشام، وهي المجال الحيوي الذي تنازعت الخلافتان السيادة عليه، موزعة أو مقسمة إلى عدة إمارات صغيرة، كل إمارة مستقلة بذاتها يحكمها حاكم عربي أو حاكم من السلاجقة. وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة سببًا في العداء السياسي والعسكري الذي كان حائلاً دون توحدها في مواجهة الغزو الصليبي.

كانت الأحوال السياسية الداخلية المرتبكة قد جعلت الخلافة أو الدولة العباسية عمليًا في أيدي الأمراء السلاجقة، يتحكمون فيها ويوجهون دفة الحكم بها كيف شاءوا. وعلى الجانب الآخر؛ كانت الخلافة الفاطمية قد دخلت مرحلة التدهور السياسي الداخلي بعد أن سيطر الوزراء فيها على الخلفاء وحولوهم إلى دُمى يحركونها حسب أهوائهم.[٩٢]

وعلى الرغم من المحاولات العسكرية المتكررة، إلا أن الفاطميين فشلوا في استرداد نفوذهم الضائع في الشام. وكانت الخلافات السياسية والمعارك العسكرية تشتعل بينهم وبين السلاجقة حماة الخلافة العباسية، الذين كانوا يطمحون إلى ضم الشام ومصر تحت رايتهم. كما كانت هناك منازعات ومناوشات دائمة بين السلاجقة والسلاجقة، وبين السلاجقة وحكام الإمارات العربية في الشام.

وعندما وصل الصليبيون إلى المنطقة كانت هناك إمارة في حلب يحكمها "رضوان" الموالي للفاطميين، وكان العداء مستحكمًا بينه وبين إمارة الشرق التي يحكمها "دقاق" الموالي للعباسيين، أما إمارة شيراز على نهر العاص قرب حماة فكانت تحت حكم بني منقذ، على حين كانت طرابلس تحت حكم بني عمار الشيعة، أما بيت المقدس فقد ظل بأيدي السلاجقة حتى سنة ١٠٩٨م/ ٤٩١هـ حين استولى عليها الفاطميون في أثناء وجود الصليبيين في أنطاكية، أما مدن الشمال في آسيا

الصغرى وأعالي بلاد الشام فكانت تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين، ثم العكس، بطريقة تبادلية وبإيقاع سريع، وكانت ضحية التخريب المستمر والتدهور.

وهكذا؛ وعلى مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين، كانت المنطقة العربية الإسلامية مقسمة إلى كيانات سياسية صغيرة متصارعة، ولذلك عندما قدم الصليبيون لم يكن لدى حكام العرب والمسلمين سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر.

وفي طيات الموجة الصليبية الأولى غرقت هذه الإمارات الصغيرة الواحدة تلو الأخرى. وكان سقوط مدينة "نيقية" عاصمة دولة السلاجقة في أيدي قوات الحصار المشتركة من الصليبيين والبيزنطيين صدمة ونذير خطر لجميع القوى الإسلامية، ولكن الأنانية وضيق النظر جعل تلك الصدمة وذلك النذير بلا فائدة.

فقد تعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التي نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين،[٩٣] والحقيقة أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها، وانتهزوا فرصة ما حل بالسلاجقة في شمال الشام ليستردوا فلسطين وبيت المقدس، ظنًا منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصليبيين جميعًا.[٩٤]

ولكن إذا كان الفاطميون قد ظنوا أنهم استفادوا من حالة الفوضى التي أمسى فيها العالم الإسلامي نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، فإن الحقيقة المرة لم تلبث أن صدمتهم. فالصليبيون والفاطميون تحالفوا ضد العدو المشترك وهم الأتراك، ولكن باستيلاء الصليبيين على أنطاكية والفاطميين على بيت المقدس، غدا الحليفان وجهًا لوجه، ولا مناص من حدوث صدام بينهما.[٩٥]

بيت المقدس عشية الحروب الصليبية[٩٦]

لم تلعب مدينة من المدن القائمة على وجه هذه البسيطة الدور الذي لعبته مدينة القدس في التاريخ، إنها وإن لم تكن من المدن التجارية الهامة، ولا من المدن الزراعية أو الصناعية رغم وقوعها بين البادية من الشرق والبحر من الغرب، إلا أنها كانت على مر الدهور مطمع أنظار الغزاة والفاتحين فحوصرت مرارًا، وهدمت تكرارًا، وهُجرت، وأعيد بناؤها ثماني عشرة مرة في التاريخ، ولكنها بالرغم من هذا كله ظلت قائمة في هذا الوجود وظل أسمها مذكورًا في طليعة المدن والبلدان، وذلك لأنها مقدسة في نظر جميع الأديان، ولعل هذا السبب في أغلب الأحيان في شقائها، وفيما أصابها من رزايا ومحاسن.[٩٧]

لقد مر على بيت المقدس أكثر من أربعة قرون ونصف منذ خضوعها للحكم الإسلامي، وبعد حصار استمر أربعة وعشرين يومًا سنة ٦١٤م استسلمت المدينة البيزنطية للغزو الفارسي لها، وعلى الرغم من أن المدينة قد تم استعادتها بعد أربعة عشر عامًا على يد الإمبراطور هرقل، فإن الغزو الفارسي لها سنة ٦١٤م كان بمثابة إعلان عن نهاية بيت المقدس المسيحية، إذ سقطت المدينة في أيدي الجيش المسلم بعد عقدين من الزمان، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه". وخلال الأربعة قرون والنصف التالية، توالى على حكمها بعض الحكام العسكريين المسلمين، والذي كانوا يمثلون حكمًا أجنبيًا بالنسبة لها.

حكمها الأمويون من دمشق حتى سنة ٧٥٠م، ثم العباسيون في بغداد حتى سنة ٨٧٨م، فالفاطميون في مصر منذ ٨٦٨م إلى سنة ٩٠٥م، ثم الخلفاء الفاطميون منذ سنة ٩٦٩م وحتى سنة ١٠٧٣م، إلا أنه في شهر يونيو من تلك السنة قام الأتراك السلاجقة بالاستيلاء عليها، وفي سنة ١٠٩٨م، أي قبل وصول الحملة الصليبية بعام واحد، عادت بيت المقدس إلى الحكم الفاطمي مرة أخرى.[٩٨]

وبوجه عام فإن تخطيط المدينة الطبيعي تحت الحكم الإسلامي اختلف بعض الشيء عنه أيام كانت تحت الحكم البيزنطي. والتغير الرئيس الوحيد كان في القرن الحادي عشر الميلادي، عندما تمت إعادة بناء السور الجنوبي لها، والذي جعل من مدينة داود وجبل صهيون خارج الأسوار، كما تم زحزحة السور الشمالي الغربي إلى

مسافة أبعد في اتجاه الغرب. وعلى أية حال؛ فإن التغيرات الرئيسية التي تمت كانت في العمارة المدنية، حيث تم تشييد العديد من المنشآت العامة الجديدة. وأهم هذه المنشآت كانت قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، والقصور الأموية إلى الجنوب من الحرم الشريف.(٩٩)

وفي فترة الحكم الفاطمي اقترب عدد سكان بيت المقدس من العشرين ألفًا. ومنهم عدة طوائف من اليهود، والعديد من الجماعات المسيحية الشرقية، والمسلمين. وبعد عدة مئات من السنين من الفتح الإسلامي، فإن المسلمين ربما كانوا لا يزالون يشكلون أقلية، كما أنهم – وعلى ما يبدو – لم تكن لهم السيطرة التامة على مقاليد الأمور في المدينة. واستمر تدفق الحجاج اليهود والمسيحيين على الرغم من الصعوبات والأخطار التي واجهتهم.

ويصف لنا الرحالة الفارسي "ناصر خسرو" بيت المقدس(١٠٠) بأنها مدينة كبيرة، محاطة بسور حصين من الحجر والجص وعليها بوابات حديدية، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة. وقد سدوا الجهات الجبلية والمرتفعات، وجعلوها مسطحة بحيث تغسل الأرض كلها وتنظيف حين تنزل الأمطار. كما أن الغزو السلجوقي للمدينة في الفترة من ١٠٧٣ وحتى ١٠٩٨م لم يترك أي دليل على وجود منشآت مهمة لهم في تلك الفترة.

وفي شهر أغسطس ١٠٩٨م استعاد الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي(١٠٦٦ – ١١٢١م)(١٠١) مدينة بيت المقدس، استعدادًا لوصول الجيوش الصليبية المتوقع، والتي كانت تقترب من أنطاكية في تلك الآونة، كما قام الحاكم الفاطمي افتخار الدولة بحشد جيش كبير مدرب، وزود الحامية بعدد من خيرة الفرسان المصريين بلغ (٤٠٠) فارس. واستعد المسلمون لوصول الصليبيين بتقوية أسوار المدينة، وعلى وجه خاص من الجهة الشمالية، حيث قاموا بتقوية بعض الحصون وبناء بعض الحصون الأمامية، كما حفروا خندقًا في جبل صهيون، وقاموا بتقوية السور الأمامي، وتحصن سكان القرى المحيطة في داخل الأسوار. في حين تم استبعاد أكبر عدد من السكان المسيحيين من المدينة إلى القرى المجاورة، كنوع من الوقاية من حدوث خديعة من جانب المسيحيين والذين كان يحدوهم الأمل في عودة الحكم المسيحي.

وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسي للصليبيين أرسل إليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين؛ كما تحمل لهم عرضًا من الخليفة الفاطمي خلاصته أن يسهل لهم مهمة الحج إلى أماكنهم المقدسة على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج، بشرط ألا يكونوا مسلحين.[١٠٢] ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً، ولكن بمعونة الله وإرادته، وكان معنى ذلك بداية الحرب بين الصليبيين والفاطميين من أجل بيت المقدس.

فقد استولى الصليبيون على أنطاكية بعد حصار استمر نحو سبعة أشهر،[١٠٣] وكان هدفهم التالي بيت المقدس،[١٠٤] الذي كان بأيدي الفاطميين، فحاصروه شهرًا كاملاً، حتى سقطت المدينة في يوليو ١٠٩٩م، تحقيقًا لهدف الحملة الصليبية المنشود.[١٠٥] وبعد مشاورات بين قادة الحملة تم انتخاب جودفري البويوني ليكون حاكمًا للكيان الجديد، تحت لقب "حامي القبر المقدس"،[١٠٦] وهكذا قامت مملكة بيت المقدس الصليبية[١٠٧] وعاصمتها بيت المقدس أولاً، ثم عكا بعد معركة حطين ١١٨٧م.[١٠٨] استمر هذا الكيان ما يقرب من مائتي عام ما بين سنة ١٠٩٨،[١٠٩] وهو العام الذي شهد تأسيس إمارتي أنطاكية والرها، وسنة ١٢٩١م التي شهدت طرد البقايا الصليبية من بلاد الشام على يد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون.

ونستطيع القول؛ أن احتلال القدس ١٠٩٩ كان البداية في حركة الإفاقة والتجمع في العالم الإسلامي وبعثه من جديد بعد الهوان الذي أصابه، فكانت قضية احتلال القدس واستعادتها، وما قبل الاحتلال من أسباب في سقوطها، وما قبل استعادتها من أسباب جعلت من القضية في الفترة التي قاربت مائتين عام صفحة ناصعة للمسلمين، أعادت إلى الدين الإسلامي هيبته، والفكر الروحي في طياته، وللمسلمين تثبيت إيمانهم، وللصليبيين أن لا جدوى من قرع الباب.[١١٠]

الهوامش والمراجع:

(١) جزء من كلمة تقديم أ. د. زبيدة محمد عطا الله، لكتاب: **العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي**.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٩. ص ٧.
(٢) محمود سعيد عمران، **تاريخ الحروب الصليبية (١٠٩٥ – ١٢٩١)**.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠. ص ١١.
(٣) محمد عباسة، **"الحروب الصليبية ونزعة الحب الكورتوازي"**.- مجلة إنسانيات، العدد (٩)، سنة ١٩٩٩، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر.
(٤) محمد مؤنس أحمد عوض، **الحروب الصليبية: العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين (١٢ - ١٣م/ ٦ – ٧ هـ)**.- ط١.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٩. ص ٣٢.
(٥) يوشع براور، **الاستيطان الصليبي في فلسطين: مملكة بيت المقدس اللاتينية/** ترجمة: عبد الحافظ عبد الخالق البنا.- ط١.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠١. (مقدمة المترجم، ص ١).
(٦) عبد العظيم رمضان، مقال بعنوان **"خواطر مؤرخ"**.- جريدة الجمهورية (القاهرة).- العدد ١٧٥٥٣، بتاريخ ١٨ يناير ٢٠٠٢. ص ٩.
(٧) فطبقًا لأفكار ذلك العصر كانت الحروب الصليبية ليست إلا نوعًا جديدًا من الخلاص وطريقًا جديدًا مؤديًا إلى السماء، لابد من اجتيازه، ابتغاء نيل السعادة التامة، ومن أجل غفران الذنوب. راجع: ارنست باركر، **الحروب الصليبية/** ترجمة: السيد الباز العريني.- ط٢.- بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٦٧. ص ٩ – ١٠.
(٨) قاسم عبده قاسم، **الحملة الصليبية الأولى: نصوص ووثائق تاريخية**.- ط١.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠١. ص ٤١.
(٩) ميخائيل زابوروف، **الصليبيون في الشرق/** ترجمة: إلياس شاهين.- موسكو: دار التقدم، ١٩٨٦. ص ٢٤.
(١٠)قاسم عبده قاسم، **ماهية الحروب الصليبية**.- الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مايو ١٩٩٠. ص ٢٢ (سلسلة عالم المعرفة، ١٤٩).
(١١)قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ٢٢ - ٢٣.
(١٢)أنتوني ويست، **الحروب الصليبية/** ترجمة: شكري محمود نديم.- بغداد: شركة النبراس للنشر والتوزيع، ١٩٦٧. ص ٢٤ – ٢٥.
(١٣)سعيد عبد الفتاح عاشور، **أضواء جديدة على الحروب الصليبية**.- القاهرة: دار القلم، ١٩٦٤. ص ١٦ – ١٧.
(١٤)سعيد عبد الفتاح عاشور، **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**.- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩١. ص ٢٠.
(١٥) أشرف صالح محمد سيد، مقال بعنوان **"حركة الحج المسيحي إلى فلسطين: من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي"**، الفسطاط: المجلة التاريخية (الولايات المتحدة).- عدد أيلول وتشرين الأول ٢٠٠٧م.- متاح على الرابط: (*http://www.fustat.com/I_hist/salih_9_07.pdf*)
(١٦) ستيفن رنسيمان، **الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم/** ترجمة: نور الدين خليل.- القاهرة، ١٩٩٤. (ج١، ص ٦٧).
(١٧)قاسم عبده قاسم، **الحملة الصليبية الأولى**، ص ٤١ – ٤٢.
(١٨) محمد مؤنس أحمد عوض، **الحروب الصليبية**، ص ١٤.
(١٩) محمد مؤنس أحمد عوض، **الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩ -**

١١٨٧).- ط١.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧. ص ١٧.

(٢٠) عليه عبد السميع الجنزوري، **الحروب الصليبية: المقدمات السياسية**.- ط١.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩. ص ٢٤٩. يذكر روسيه؛ أن الرغبة الشديدة لهؤلاء الصليبين في الذهاب إلى فلسطين لم تكن لأهميتها الجغرافية، أو الاستراتيجية، بل لأنها المكان الأعلى الذي يناديهم منه الله.

(٢١) محمد مؤنس أحمد عوض، **الرحالة الأوربيون**، ص ١٧.

(٢٢) دخلت جيوش تيتوس المدينة المقدسة في سبتمبر من سنة ٧٠م، وأضرمت النار فيها، وهدم المعبد المزخرف الذي بناه "هيرودوس الكبير" – ملك اليهودية- وأشعلت النار في قدس الأقداس، وخيم الخراب على أورشليم، وهدم كل شيء فيها، وصدق فيها قول المسيح (عليه السلام): "يَا أُورُشَلِيمُ يَا أُورُشَلِيمُ يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلاَدَكِ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةُ فِرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا وَلَمْ تُرِيدُوا.. هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَاباً". راجع:
سيد أحمد علي الناصري، **تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري**.- ط٣.- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٦. ص ٢١٣. مصطفى كمال عبد العليم، **محاضرات في تاريخ الإمبراطورية الرومانية**.- القاهرة: كلية الآداب (جامعة عين شمس)، ١٩٩٨. ص ٦٦. محمد بيومي مهران، **بنو إسرائيل**.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩. (ج٢، ص ١٠٢٠ - ١٠٢١).

(٢٣) راجع: مصطفى كمال عبد العليم، **اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان**.- القاهرة: د.ن، ١٩٦٨. ص ١٩٥ – ١٩٦.

(٢٤) ستيفن رنسيمان، **الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم/** ترجمة: نور الدين خليل.- القاهرة، ١٩٩٤. (ج١، ص ٦٧). يُذكر أن هادريان حاول أن يحمي هذا الأثر المقدس فعمد إلى ردم القبر والجلجثة.

(٢٥) ستيفن رنسيمان، **الحملات الصليبي**ة، (ج١، ص ٦٧ – ٦٨).

(٢٦) عن قسطنطين الإمبراطور المسيحي، راجع: نورمان ف. كانتور، **التاريخ الوسيط: قصة حضارة البداية والنهاية**.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٩. ص ٦٢ – ٧٢.
Cockrane (Charles Norris), *Christianity and Classical Culture*.- Oxford, 1940. P. 216.

(٢٧) ستيفن رنسيمان، **الحملات الصليبية**، (ج١، ص ٦٨).

(٢٨) فقد أغرت أحد اليهود المسنين بالذهب لإرشادها عن مكان الصليب، ويذكر التقليد أنها تمكنت من إزالة الردم، فوجدت ثلاث صلبان، وكان من بينها صليب المسيح وصليبا اللصين الذين صُلبا معه، وحينما وضعت أحد الصلبان الثلاثة على أحد الموتى قام، فأدركت أنه صليب المسيح. عن حقيقة قصة الصلب، راجع: أحمد شلبي، **مقارنة الأديان**.- ط١.- القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٩٣. (ج٢، المسيحية، ص ١٤٣). وعن فكرة الصلب بين الحقيقة والخيال، راجع: عبد الفتاح حسن الزيات، **ماذا تعرف عن المسيحية**.- ط٣.- ب.م: مركز الراية للنشر، ٢٠٠١. ص ١٢٨. وعن تقديس الصليب، راجع: محمد أبو زهرة، **محاضرات في النصرانية تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم**.- ط٣.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦١. ص ١٠١. وتحتفل الكنيسة المقدسة في الرابع عشر من شهر أيلول (سبتمبر) من كل عام بعيد ارتفاع الصليب المقدس، ويرتبط هذا العيد بحادثة صلب وموت السيد المسيح على جبل الجلجلة.

(٢٩) حسن حبشي، **الحرب الصليبية الأولى**.- ط١.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٨. ص ٢٠.

(30) *See*: Itinerary from Bordeaux to Jerusalem / 'the Bordeaux pilgrim' (333 A.D.); translated by Aubrey Stewart and annotated by Sir C.W. Wilson. London : Palestine Pilgrims' Text Society, 1896. 68 pages.

(31) Steven Runciman "*The Pilgrimages to Palestine before 1095*." In A History of the Crusades (Editor in Chief, Kenneth Meyer Setton) Vol. I The First Hundred Years. Edited by Marshall W. Baldwin 68-80 Madison: University of Wisconsin Press, 1969-89. P. 69.

(٣٢) رحلة العائلة المقدسة (المسيح وهو طفل، وأمه السيدة مريم العذراء، ويوسف النجار): خرجت مريم وطفلها الرضيع تسلك طرقًا موحشة ودروبًا وعرة عبر الجبال والصحراء حتى تجاوزت الحدود الفلسطينية (الآن)، ووصلت إلى سيناء المصرية، ثم واصلت العائلة رحلة اللجوء عبر سيناء لداخل مصر في موضع شجرة العذراء (لازالت موجودة في منطقة المطرية وعمرها يزيد عن ١٠٠٠عام وهي دائمة الخضرة). ثم إلى نقطة على شاطئ النيل في مصر القديمة، وهي موضع الكنيسة المعلقة الآن، ثم أخذت العائلة المقدسة مركب شراعي في النيل واتجهت جنوبًا حتى المنيا، ثم واصلت العائلة رحلتها إلى مدينة أسيوط، حيث استقرت هناك في المكان الذي أقيم فيه فيما بعد ذلك دير المحرق.

(٣٣) وليم الصوري، **تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار/** ترجمة: سهيل ذكار.- ط١.- دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩. (مقدمة المترجم، ص ١٣).

(٣٤) القديس جيروم من أكثر آباء الكنيسة تعليمًا وثقافة. درس في روما مدة ١٨ عامًا، وفي سنة ٣٧٤م اتجه إلى بلاد الشام وعاش بين جموع الرهبان والمتنسكين. راجع:

JND Kelly, *Jerome: His Life, Writings, and Controversies*, New York: Harper & Row, 1975. pp. 13–14. Walsh, Michael, ed., *Butler's Lives of the Saints*, New York: HarperCollins, 1991. P. 307.

(٣٥) وهذا دليل على أن الطبقات العليا التي معها إمكانيات السفر والحج استحوذت عليها العاطفة الدينية، ولم تلهي الدنيا هذه الطبقة الأرستقراطية عن الورع والتمسك بالدين.

(٣٦) قاسم عبده قاسم، **ماهية الحروب الصليبية: الأيديولوجية، الدوافع، النتائج**.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٣. ص ٢٤.

(٣٧) ستيفن رنسيمان، **الحملات الصليبية،** (ج١، ص ٦٩).

(٣٨) فقد رأى أن رحلات الحج لا تنطوي على الإيمان، وليست عمل قيم، وحتى أنها خطيرة، فالحاج ممكن أن يذهب لمناطق ذات خطورة، وبها لصوص وقطاع طرق يسرقون أشياءه وقد يقتلوه. راجع: علي زيعور، **أوغسطينوس**.- ط١.- الدار البيضاء: دار إقرأ، ١٩٨٣. ص ٩٥ – ١١٧.

(39) Steven Runciman "*The Pilgrimages to Palestine before 1095*." In A History of the Crusades (Editor in Chief, Kenneth Meyer Setton) Vol. I The First Hundred Years. Edited by Marshall W. Baldwin 68-80 Madison: University of Wisconsin Press, 1969-89. P. 69.

(٤٠) الدير: بيت يتعبد فيه الرهبان والراهبات، ويوجد في الصحاري وعلى رؤوس الجبال، فإذا كان الحضر كانت كنيسة (أو بيعة). وأصله الدار والجمع أديار. ومن الممكن أن يصير الدير مأوى للمسافرين وعابري السبيل، إلا أن الهدف الأساسي من قيام الدير هو الانقطاع للعبادة وخدمة الدين.

(٤١) ستيفن رنسيمان، **الحملات الصليبية،** (ج١، ص ٦٩).

(٤٢) يوشع براور، **الاستيطان الصليبي،** ص ٢٣٩. حسن حبشي، **الحرب الصليبية،** ص ٢١ – ٢٢.

(٤٣) ستيفن رنسيمان، **الحملات الصليبية،** (ج١، ص ٦٩ - ٧٠).

(٤٤) عزيز سوريال عطية، **الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب/** ترجمة: فيليب صابر سيف.- ط٢.- القاهرة: دار الثقافة، ١٩٩٠. ص ٢٩.

(٤٥) جوناثان ريلي- سميث، **الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية/** ترجمة: محمد فتحي

الشاعر، القاهرة، ١٩٩٣. ص ١٧– ١٨. وعن ثقافة الرفات المقدسة، راجع:
Jonathan Sumption, *The Age of Pilgrimage: The Medieval Journey to God*.- Paulist Press, 2003. pp. 21 - 50.

(٤٦) ستيفن رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية/** ترجمة: السيد الباز العريني.- ط٣.- القاهرة: د.ن، ١٩٩٣. (الحروب الصليبية وقيام مملكة بيت المقدس، ص ٧٨).

(٤٧) قاسم عبده قاسم، **الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية**: دراسة عن الحملة الأولى (١٠٩٥ – ١٠٩٩م).- ط١.- الجيزة: عين للبحوث والدراسات، ١٩٩٩. ص ٣٠.

(٤٨) محمد مؤنس أحمد عوض، **الحروب الصليبية**، ص ١٦.

(٤٩) ستيفن رانسيمان، **الحملات الصليبية**، (ج١، ص ٧١ – ٧٢).

(٥٠) محمد حلمي محمد أحمد، **مصر والشام والصليبيون**.- ط٢.- القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٨٢. ص ٤٥ – ٤٦.

(51) John Wilkinson, *Jerusalem Pilgrims Before the Crusades*.-Warminster: Aris and Philips, 1977. P.12.

(٥٢) عباس عاجل جاسم الحيدري، سمير صالح حسن العمر، "**الحروب الصليبية: تطور المصطلح والمفهوم**".- مجلة جامعة بابل للعلوم الصرفة والانسانية.- المجلد: (١٩)، الاصدار: (٤)، ٢٠١١. ص ٦٨٦.

(٥٣) ستيفن رانسيمان، **الحملات الصليبية**، (ج١، ص ٧٢ – ٧٣).

(٥٤) جوناثان ريلى- سميث، **الحملة الصليبية**، ص ٣٠.

(٥٥)يوشع براور، **الاستيطان الصليبي**، ص ٢٣٤.

(٥٦) قاسم عبده قاسم، **ماهية الحروب الصليبية**، ص ٢٧.

(٥٧) وقد ظهرت حركة الإصلاح الكلوني أو "الإصلاح من داخل الأديرة" في حوض الراين الأعلى، حيث أسس "وليم كونت أوفرن" ديرًا جديدًا في "كلوني" (سنة ٩١٠م)، وقد عمد زعماء الحركة إلى الفصل بين الكنيسة والدولة أي الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية، وإصلاح الحياة الديرية بل إصلاح الكنيسة إصلاحًا شاملاً. راجع: أشرف صالح محمد سيد، **قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى/** تقديم: فتحي عبد العزيز محمد.- ط٢.- القاهرة، ٢٠١١. ص ٦١ – ٧٤.

(٥٨) وعن تأثير دير كلوني في أوربا، والدور الديني والفكري له، ودوره في الدعوة للحروب الصليبية. راجع هذه الدراسة الممتازة: محمود علي عبد الله علي، **دير كلوني ودوره في الحروب الصليبية/** إشراف: إمام الشافعي محمد حمودي سليمان.- أسيوط: كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر، ٢٠١٢. (أطروحة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ والحضارة).

(٥٩) جوناثان ريلى- سميث، **الحملة الصليبية**، ص ٣١.

وتجدر الإشارة إلى؛ أنه في أواخر القرن الحادي عشر تحول العمل الدفاعي للرفات المقدسة إلى منح الشفاء من المرض لحراسة الأضرحة أو زوارها. غير أنه من المهم بمكان التأكيد على الطبيعة الانتقامية والمدافعة عن تلك العجائب المرتبطة بمراكز العبادة، والتي لم تكن قاصرة على التعبير عن آمال الأتقياء، ولكن جعلتهم يتشربون فكرة القوة الخارقة التي تتمتع بها الأماكن المقدسة أيضًا. كما ساعدت المشاعر المتزايدة تجاه تبجيل وتوقير رفات القديسين على تفسير الإجراءات غير العادية التي تمثلت في سرقات رفات القديسين التي يمكن تبريرها إذا ما تمت بنجاح وفقًا للاعتقاد بأن القديس الذي سُرقت رفاته إنما هو الذي أراد أن تنقل رفاته إلى مكان جديد، كما أن العامة أخذوا ينظرون باحتقار للرفات الموضوعة في دير عندما يتعرض هذا الدير للنهب ويفقد ممتلكاته أو مزاياه على أساس أن هذا القديس فشل في القيام بدوره كمدافع عن هذا المكان. راجع:

Bloch, *Feudal Society* (1961), pp. 81 - 7; B. Ward, *Miracles and the Medieval Mind* (1982); passim, P.J. Geary, Furta Sacra (1978); passim, J.Sumption, *Pilgrimage* (1975), pp. 11-167.
نقلاً عن: Jonathan Riley-Smith, *The First Crusade and the idea of crusading*.- London: 2003

(٦٠) حسن حبشي، **الحرب الصليبية**، ص ٢٠.

(٦١) عليه عبد السميع الجنزوري، **الحروب الصليبية**، ص ٢٤٩ – ٢٥٢.

(٦٢) راجع: كلود كاهن، **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية/** ترجمة: أحمد الشيخ.- ط١.- القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٥. ص ٣٦ – ٣٧. عبد المنعم ماجد، **"بيت المقدس بين الفاطميين والسلاجقة".-** مجلة التاريخ العربي (جمعية المؤرخين المغاربة).- ع١١ صيف ١٩٩٩. متاح بتاريخ ٣٠ مارس ٢٠١٣ على موقع المجلة الإلكتروني: (http://www.attarikh-alarabi.ma)

(٦٣) ويبدو أن العوام المسلمين انتهزوا هذه الأوامر، فكانوا يأتون بأمور فظيعة لم تشاهد من قبل، مثل أنهم يدخلون الأديرة والمقابر، ويأخذون توابيت الموتى، ويحرقون الكتب. ولكن الحاكم بأمر الله أنكر فعل ذلك، وأمر بالكف عنه. وقد نُسب إلى الحاكم أفعالاً ظالمة كثيرة نحو أهل الذمة، مع انها من أفعال رعاياه المسلمين المتعصبين، وهو برئ منها. راجع:
عبد المنعم ماجد، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر: التاريخ السياسي.-** ط٤.- القاهرة: دار الفكر العربي،١٩٩٤. ص٢٩٦ – ٢٩٧.

(٦٤) ستيفن رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية**، (الحروب الصليبية وقيام مملكة بيت المقدس، ص ٦٠ – ٦١).

(٦٥) محمود خلف، **ثورات المصريين في العصر الفاطمي (٩٦٩ – ١٠٣٥)**.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢. ص ١٨٤ – ١٨٧. (سلسلة تاريخ المصريين، ٢٩٣)

(٦٦) عليه عبد السميع الجنزوري، **الحروب الصليبية**، ص ٢٥٢.

(٦٧) ستيفن رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية**، (الحروب الصليبية وقيام مملكة بيت المقدس، ص ٦٠ – ٦١).

(٦٨) عليه عبد السميع الجنزوري، **الحروب الصليبية**، ص ٢٥٢.

(٦٩) ميشيل بالار، **الحملات الصليبية والشرق اللاتيني: من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر/** ترجمة: بشير السباعي.- ط١.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٣. ص ٢٥، ٢٦، ٣٥ – ٣٧.

(٧٠) قاسم عبده قاسم، **الحملة الصليبية الأولى**، ص ٤١ – ٤٢.

(٧١) محمد مؤنس أحمد عوض، **الحروب الصليبية**، ص ١٩.

(72) Steven Runciman "*The Pilgrimages to Palestine before 1095*." In A History of the Crusades (Editor in Chief, Kenneth Meyer Setton) Vol. I The First Hundred Years. Edited by Marshall W. Baldwin 68-80 Madison: University of Wisconsin Press, 1969-89. P. 76.

(٧٣) محمد مؤنس أحمد عوض، **الحروب الصليبية**، ص ٢٠.

(٧٤) محمد مؤنس أحمد عوض، **الرحالة الأوربيون**، ص ٢٦.

Thompson, J. W., *Economic and social history of the Middle Ages (300 - 1300)*.- London : Constable & co, 1959. (Vol. 1, P. 391).

(٧٥) عليه عبد السميع الجنزوري، **الحروب الصليبية**، ص ٢٥٢.

(76) *See*: Paul Alphandéry, *La chrétienté et l'idée de croisade : les premiers croisades*.- Paris : Michel, 1954. Pp. 25-26.

(٧٧) قاسم عبده قاسم، **ماهية الحروب الصليبية**، ص ٣١.

(٧٨) وكان من أهم الدوافع التي شجعت الصليبيين على السير إلى الأراضي المقدسة والاستيلاء عليها هو رغبة الكنيسة اللاتينية الغربية في نشر المذهب الكاثوليكي في جميع أنحاء العالم آنذاك حتى لو اضطرت إلى استخدام السلاح من أجل تحقيق هدفها. انظر:
مصعب حمادي نجم الزيدي، "**المؤسسة الدينية: فيدولة القدس الصليبية**".- مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية.- المجلد: (٧) الاصدار: (٣) عدد خاص بمؤتمر كلية التربية، ٢٠١٢. ص ٤٩٠.

(٧٩) عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٣٦٧.

(٨٠) راجع: فيليب حتى، **مختصر تاريخ لبنان/** تعريب: كمال اليازجي.- بيروت: دار الثقافة، د.ت. ص ١٢٨. فقد كان شارة الصليب مدلولاها الخاص في أذهان الذين حملوه، إذ آمنوا بأنه يجلب لهم الحماية من مغبة الشرور وأهوال الطريق. أنظر: إسحاق تاوضروس عبيد، **روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين (٨٦٩ – ١٢٠٤)**.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠. ص ٧١.

(٨١) عبد المنعم ماجد، **ظهور الخلافة الفاطمية**، ص ٣٦٨.

(٨٢) محمد مؤنس عوض، **سندباد في عصر الحروب الصليبية**.- ط١.- الجيزة: عين للبحوث والدراسات، ٢٠٠٢. ص ١٥. محمد مؤنس أحمد عوض، **الرحالة الأوربيون**، ص ٢٦ – ٢٧.

(٨٣) موسى ديب الخوري، "**تاريخ القدس المسيحية قبل الإسلام**".- مؤسسة القدس للثقافة والتراث.- منشور بتاريخ ٢٨ مارس ٢٠١١. على الرابط: (*http://alqudslana.com/index.php*)

(٨٤) راجع: صلاح الدين محمد نوار، **العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠ – ٥١٥هـ/ ١٠٩٧ – ١١٢١م)**.- ط١.- الإسكندرية: دار الدعوة، ١٩٩٣. ص ٢٥. شوقي شعث، **القدس الشريف**.- الرباط: بابل للطباعة والنشر، ١٩٨٨. ص ١٨٢.

William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea*/ trans. Emily A. Babcock and A.C. Krey.-New York: Columbia University Press, 1943. (Vol. 1, P.66).

(٨٥) وعن أهمية أورشليم للمسيحيين، راجع:

Hunt Janin, *Four Paths to Jerusalem: Jewish, Christian, Muslim, and Secular Pilgrimages, 1000 BCE to 2001 CE*.- North Carolina: McFarland, 2006. Pp. 24 -25.

(٨٦) كالفاري Calvary (الجلجه/ الجلجثه): اسم المكان الذي صُلب فيه المسيح بالقرب من القدس، وهو آخر مرحلة في الرحلة التي سارها السيد المسيح حاملاً الصليب لتنفيذ الحكم بصلبه في طريق يسمى طريق الآلام أو الصليب. وقد أجمع المؤرخون وعلماء الآثار على أن تل الجلجثة (مكان الصلب) كان واقعًا خارج أسوار القدس الشمالية الغربية في أيام المسيح. راجع:
أحمد دراج، **وثائق دير صهيون في القدس الشريف**.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٦٨. ص ١٣٧ هامش (٤٤). ميخائيل مكس إسكندر، **القدس وبيت لحم**.- القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٩٩. ص ٧٩.

(٨٧) كنيسة القيامة: قامت ببنائها هيلانة أم قسطنطين سنة ٣٢٥ فوق الجلجة، في الموضع الذي تم اكتشاف خشبة الصلب فيه، وقد قام الفرس بإحراقها في عهد كسرى سنة ٦١٤م، وتمت إعادة بناءها على يد الراهب مورسطس سنة ٦١٧م، وفيما بعد عندما قام الخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" بفتح بيت المقدس سنة ٦٣٩م لم يصب كنيسة القيامة بأذى، بل إنه رفض أن يصلي فيها حتى لا يتم تحويلها إلى مسجد، وقام الخليفة الحاكم بأمر الله بتدميرها، ثم عمل ابنه الظاهر من بعده على إعادة تعميرها. انظر:
محمد مؤنس عوض، **الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية**.- ط١.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٥. ص ٦٢ هامش (٥٠).

(٨٨) رغم الإخلاص والاهتمام الذي أبداه المسيحيون الأوائل بالحفاظ على الذكريات الخاصة بالمواقع المقدسة، يجب أن لا نغفل عن إمكانية وجود بعض الشكوك المبررة بخصوص الدقة التاريخية الخاصة بالمواقع والأحداث الإنجيلية. راجع: "**الأحداث الإنجيلية الخاصة بأماكن الحج في منطقة نهر الأردن**"، ضمن الدليل الكتابي والسياحي للأرض المقدسة.- متاح بتاريخ ٥ أبريل ٢٠١٣ على الرابط: (*http://198.62.75.1/www1/ofm/jordan/Biblicalevents_Ar.html*)

(٨٩) راجع: عرفه عبده علي، **القدس العتيقة: مدينة التاريخ والمقدسات**.- ط١.- القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧. ص ٨١ (سلسلة هوية المكان)

(٩٠) كارين أرمسترونج، **القدس: مدينة واحدة، عقائد ثلاث/** ترجمة: فاطمة نصر، محمد عناني.- القاهرة: دار سطور للنشر والتوزيع، ١٩٩٨. ص ٣٩٣.

(٩١) مصطفى وهبه، **موجز تاريخ الحروب الصليبية**.- ط١.- القاهرة: مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، ١٩٩٧. ص ١٦ – ١٧. كلود كاهن، **الشرق والغرب**، ص ٤١ – ٥١.

(٩٢) راجع: محمد العروسي المطوي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**.- ط٢.- بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢. ص ١٥ – ١٧.

(٩٣) أبو المحاسن، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. (نسخة إلكترونية: www.alwarraq.com)

(٩٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**.- ط٤.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٨٦.(ج١، ص ١٨٤) وعن حقيقة موقف الدولة الفاطمية من الحركة الصليبية راجع: سعيد عبد الفتاح عاشور، "**شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية**".- ضمن كتاب: **بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى**.- بيروت: دار الأَحَد، ١٩٧٧. ص ١٦٥ – ٢٢٣.

(٩٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، (ج١، ص ١٨٧)

(٩٦) أدريان بوس، **مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية/** ترجمة: علي السيد علي.- ط١.- القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠. ص ٣٢ – ٣٣.

(٩٧) عارف باشا العارف، **تاريخ القدس**.- ط٢.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤. ص ١٨٥.

(٩٨) راجع: محمد سامي أحمد امطير، **الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية (١٠٩٩ – ١١٨٧م)/** إشراف: جمال جودة.- نابلس: كلية الدراسات العليا، ٢٠١٠. ص ٢٧ – ٣٠. (أطروحة ماجستير غير منشورة).

(٩٩) راجع: وليم الصوري، **الحروب الصليبية/** ترجمة وتعليق: حسن حبشي.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢. (ج٢، ص ٨٨ – ٩٠).

(١٠٠) راجع: مصطفى الحياري، **مدينة القدس في عصر الفاطميين والفرنجة**.- عمان: مكتبة عمان، ١٩٩٤. ص ١٠٣ – ١٠٥.

(١٠١) الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي: من أصل ارمني، كان والده مملوكًا أرمينيًا لجمال الدولة بن عمار، فعُرف بـ الجمالي، ثم ظل يرتفع إلى أن صار حاكمًا على الشام، وقد استنجد به الخليفة الفاطمي المستنصر بالله للقضاء على فتن طوائف الجند في مصر، فأضاف بذلك عنصرًا جديدًا في الجيش والدولة، وهو العنصر الأرمني. وقد خلف الأفضل أباه بدر الجمالي في منصب الوزارة. راجع: فهمي توفيق محمد مقبل، **شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية**.- ص ٤٥ هامش (١١). نسخة إلكترونية من الكتاب متاحة بتاريخ ٢٠ مارس ٢٠١٣ على الرابط: (*www.uop.edu.jo/download/Research/.../306_703_Fehm.pdf*)

(١٠٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، (ج١، ص ١٨٧)

Michaud, Joseph Francois. *Histoire des Croisades*.- Paris: Michaud/Pillet, 1817. (Vol. 1, Pp. 362 - 363).

(١٠٣) عن وصول الفرنجة إلى أنطاكية وفظائع الحصار، راجع: فوشيه الشارتري، **تاريخ الحملة إلى القدس (١٠٩٥ – ١١٢٧)/** ترجمة: زياد جميل العسلي.- ط١.- عمان: دار الشروق، ١٩٩٠. ص ٥٣ – ٥٥.

(١٠٤) كانت مدينة بيت المقدس عشية الاحتلال الصليبي لها مجرد أسقفية تابعة لأسقفية قيسارية، راجع: جان ريتشارد، **"تكوين مملكة القدس اللاتينية"**، ضمن كتاب: **الصراع الإسلامي – الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى/** تحرير: هادية دجاني.- بيروت، ١٩٩٤. ص ١٦٠ – ١٦١. سعيد عبد الله البيشاوي، **الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية**.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠. ص ١٠٦.

(١٠٥) بطرس توديبو، **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس/** ترجمة: حسين محمد عطية.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩. (مقدمة المترجم، ص ١٠). وراجع: أمين معلوف، **الحروب الصليبية كما رآها العرب/** ترجمة: عفيف دمشقية.- ط٢.- بيروت: دار الفارابي، ١٩٩٨. ص ٦١ – ٨٣. ومن الملاحظ؛ أنه لو كان الهدف الوحيد من الحملة الصليبية هو بيت المقدس، لاكتفوا بهذا الانتصار الكبير. فقد صار بيت المقدس تحت حكم المسيحيين لأول مرة في التاريخ، إلا أن الذين جاءوا يحملون الإنجيل ويرفعون الصليب قاصدين القدس، لم يتوقفوا عند القدس، بل راحوا ينتشرون في أرجاء المشرق الإسلامي، ويقيمون فيه ممالك مسيحية. انظر: عبد الحميد الكاتب، **القدس: الفتح الإسلامي، الغزو الصليبي، الهجمة الصهيونية**.- طبعة خاصة.- القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨. ص ٨١، ص ٨٣.

(106) *See*: Tyerman, Christopher.- *God's War: A New History of the Crusades*.- Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 2006. pp. 159- 160.

سالم محمد الحميدة، **الحروب الصليبية: عهد الجهاد المبكر**.- ط١.- بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠. (ج٢، ص ١٢).

(107) *See*: Riley-Smith, "*The Title of Godfrey of Bouillon*", Bulletin of the Institute of Historical Research 52,1979. pp. 83–86. Murray, Alan V., "*The Title of Godfrey of Bouillon as Ruler of Jerusalem*", Collegium Medievale 3, 1990. pp. 163–178.

(١٠٨) كانت معركة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ واسترداد المسلمين بعدها لبيت المقدس بمثابة ضربة قاصمة للكيان الصليبي في بلاد الشام الذي بدأ في الانهيار، ذلك لأن المدن الصليبية كانت تتهاوى واحدة تلو الأخرى في يد المسلمين. ولهذا حشدت أوربا قواتها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وذلك في صورة حملة صليبية جديدة، وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة. راجع: أشرف صالح محمد سيد، **الدبلوماسية الأيوبية الصليبية (١١٩١ – ١١٩٢)**.- بيروت: شركة الكتاب العربي الإلكتروني، ٢٠٠٧. ص ٩ وما بعدها. (سلسة المؤرخ الصغير، ٢)

(١٠٩) ستانلي لين بوول، **صلاح الدين وسقوط مملكة القدس/** ترجمة: فاروق سعد أبو جابر.- ط١.- القاهرة: وكالة الأهرام للتوزيع، ١٩٩٥. راجع: ص ٤٥ وما بعدها.

(١١٠) ابتسام رسول حسين، **"الغزو الصليبي للقدس: الجذور والتأريخ"**.- مجلة التراث العلمي العربي (جامعة بغداد).- الإصدار٢ السنة ٢٠١٠. ص ١٢.

الكنيسة

ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية

أ.د. فتحي عبد العزيز محمد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
جامعة الباحة - السعودية
جامعة لاهاي الدولية - هولندا

الفصل الأول

الكنيسة اللاتينية والشرق

- ظهور الزعامة الكنسية في الغرب.
- دخول الكنيسة في نسيج النظام الإقطاعي.
- حركة الإصلاح الكلوني.
- حركة الإصلاح الجريجوري.
- اتجاه العلاقات بين البابوية وبيزنطة.

الفصل الأول
الكنيسة اللاتينية والشرق

إن المدى الذي بلغته البابوية من حيث القوة والمكانة وصل أقصى حد له مع اقتراب القرن الحادي عشر من نهايته. ولا ريب أن البابوية لتحقق ذلك مرت بمراحل وخطوات خرجت منها في النهاية وقد أمكنها أن تساهم بدور فعال في مجريات الأحداث.

لقد خاضت البابوية تلك المراحل متسلحة بما سمي بالنظرية البطرسية التي يرجع الفضل في صياغتها إلى البابا ليو الأول (٤٤٠-٤٦١). وتقوم هذه النظرية على أساس ما نسب للمسيح، قال لهم: "وأنتم من تقولون أني أنا؟ فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت المسيح ابن الله الحي، فأجاب يسوع وقال له: طوبي لك يا سمعان بن يونا، إن لحما ودما لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السموات، وأنا أقول لك أيضا: أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماء وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماء"[١]. ولم تجد هذه المزاعم قبولاً لدى أساقفة الشرق، في الوقت الذي اعترفت فيه جميع كنائس الغرب أيام ليو بالنظرية البطرسية.

وترتكز النظرية البطرسية على الحديث السابق، ويرى ليو أن المسيح قصد أن يكون بطرس وكل من يخلفه في كرسيه رئيسًا للكنيسة بأسرها، ولأن بطرس بشر بالمسيحية في روما، فإن أسقف روما هو الوحيد الذي يمتلك مفاتح ملكوت السموات، وهو وحده نائب المسيح على الأرض، وهو الراعي الأول لشعب المسيح[٢].

وإن كان ليو الأول قد صاغ النظرية البطرسية ليبرر مزاعم البابوية في الأسبقية، فإن الأوضاع التي كان يمر بها الغرب الأوربي في النصف الأخير من القرن الخامس ساعدته في تأكيد دعواه، وذلك عندما أتت بالنظرية إلى محك الواقع في محاولة أخرى لتأكيد أسبقية البابوبة (السلطة الروحية) على السلطة الزمنية.

---

(١) إنجيل متي: ١٦: ١٥- ١٩.

(٢) نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، قصة حضارة: البداية والنهاية، ق١، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، القاهرة، دار المعارف ١٩٨١، ص٩٩ - ١٠٠، للمزيد عن النظرية البطرسية أنظر:
Baldwin, M.W., Medieval Church, New York, U.S.A. 1962 p.22.

لقد تعرض الغرب الأوربي لسلسلة من الهجمات الجرمانية منذ سنة ٤١٠م حيث دخل آلاريك والقوط المدينة الإمبراطورية، وبدت المدينة في أعين المعاصرين تواجه انهيارها الحضاري واستباحها الوندال سنة ٤٥٥م(٣).

ولأن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية هي المؤسسة الوحيدة التي قدر لها البقاء وسط ذلك الدمار، فإنها قبلت القيام بالتفاوض مع الغزاة المنتصرين، وبالفعل تفاوض البابا ليو مع ملوك الجرمان الذين غزوا إيطاليا. ورغم الدلائل أمام ليو على زوال السلطان الإمبراطوري فإنه لم يكن مقتنعا بنهاية الإمبراطورية. بيد أن مسلكه في مفاوضة الجرمان أظهر أن الفرصة باتت سانحة أمام البابوية لزعامة الغرب الأوربي(٤).

وبالفعل جاء سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦م على يد الجرمان لصالح البابوية، حيث أخذت البابوية في العمل جاهدة للخلاص من أي نفوذ بيزنطي في أي صورة من الصور، متبلة فرصة التفاف الإيطاليين حولها عندما وجدوا فيها الزعامة والسند الكفيلين بحمايتهم(٥) على الرغم من أن إيطاليا كانت منذ ذلك الوقت من الوجهة القانونية - على الأقل - تابعة للإمبراطورية البيزنطية(٦). وبذلك يتضح أن انهيار السلطة الإمبراطورية في الغرب قدم للبابوية فرصتها لإبراز زعامتها، وأنها لم تتقاعس عن اغتنام الفرصة.

وباقتراب القرن الخامس من نهايته وفي جو ملئ بالخطر، لم تتوان البابوية عن تذكير إمبراطور بيزنطة بقوة سلطانها، وسمو مكانتها، ذلك أن البابا جيلازيوس الأول Glasius 1 (٤٩٢-٤٩٦) كتب إلى الإمبراطور أناستاسيوس الأول

---

(3) Deanesly .Margaret, A History of the Medieval Church, 590-1500, London1973, p.83.
أنظر أيضًا: ك سانت ل. ب. موس: ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ - ٨٠٤، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة السيد الباز العريني، عالم الكتب، الألف كتاب ١٩٦٧م، ص ٨ - ٧.

(٤) عاصر البابا ليو الأول الأحداث المهولة التي صاحبت غزوة آتيلا وغزوة جايزريك ملك الوندال، لذا أوفده شعب المدينة على رأس سفارة لمقابلة آتيلا والتفاوض معه كذلك أمكنه أن يقنع ملك الوندال أن يرجع من حيث أتي. لمزيد من التفاصيل أنظر: عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطي، دار دمشق، دمشق ١١٨٠م، ص١٠٠، اسحق عبيد: الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، مع دراسة عن مدينة الله، دار المعارف القاهرة ١٩٧٢، ص١٧٩ - ١٨٠، كانتور المرجع السابق، ق١، ص٩٨ - ٩٩.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطي، التاريخ السياسي، ج١، القاهرة ١٩٧٨، ط٧، ص٨٠.

(6) Thatcher, o.d McNeal, G.h., A Source Book for Medieval History, New York, U.S.A.1905, p, 48

Anastasus 1 (٤٩١ - ٥١٨) وبتأييد من ثيودريك[٧] Theodoric متحديا ما يدعيه الإمبراطور من حق في التدخل في شئون العقيدة، مبينًا له أن الله قد قسم سلطان هذا العالم بين اثنين البابا والإمبراطور "وأن العبء الملقى على كاهل البابا أثقل بكثير من العبء الذي وكل به إلى أمير الدنيا"[٨].

ولا شك أن جيلازيوس في محاولته للفصل بين السلطتين الزمنية والروحية، كان يؤكد على أسبقية الأخيرة وسموها. وبذلك يكون قد وضع الأساس للعلاقة بين البابوية والسلطة الزمنية أي أنه وضع "أسس نظرية السمو البابوي في صورتها الأولى"[٩].

وقد عملت الإمبراطورية البيزنطية من جانبها في فترة لاحقة على إثبات أحقيتها كوريث شرعي للإمبراطورية الرومانية في الغرب حيث نجد أن الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) يعمل على إعادة الغرب إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية الشرقية من خلال مشروع استردادي بدأ تنفيذه في سنة ٥٣٠م[١٠].

---

(٧) كان ثيودريك زعيم القوط الشرقيين وانتخب ملكا عليهم سنة ٤٩٣م وحطموا مملكة أدواكر وقهروا إيطاليا، واتخذ ثيودريك من رافنا عاصمة له، وبدأ يفكر في تأسيس مملكة تخت قيادة القوط منسلخا بذلك عن الإمبراطور البيزنطي، وقد جلبت عليه سياسته تلك عداء بيزنطة التي تحالفت مع الفرنجة ضده، وقد عمل على كسب تأييد البابا له، وتأييد الشعب الإيطالي. وخلال معظم عهد ثيودريك كان الإمبراطور في نزاع مع البابا. للمزيد أنظر: كانتور المرجع السابق: ق١، ص١٩٨- ٢٠٤.

(٨) اسحق عبيد: المرجع السابق، ص٨٠.
Dvornik.F., ' Constantinople and Rome" in C.M.H., Vol.4, pr.2 (1966) pp 432- 472.
ل. ب. موس " المرجع السابق، ص١٣٧-١٣٨.

(٩) رأفت عبد الحميد: السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، مج ٣، تحرير: قاسم عبده قاسم، رأفت عبد الحميد ص١٥٧-٢٢٧، القاهرة ١٩٨٥، ص١٧١، عن النظرية الجيلازية أنظر: كانتور المرجع السابق، ق ١، ص١٦٠- ١٦١.

(١٠) عن حروب جستنيان الاستردادية أنظر:
J.Thompson, The Middle Age 300-1500 vol.1, London 1931, pp 125-130.
أيضًا: سانت موس: المرجع السابق، ص١٧٠ - ١٨٣. وستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة زكي على، مكتبة النهضة، الألف كتاب، القاهرة ١٩٦١، ص٣٢، أيضًا: ج، م، هسي: العالم البيزنطي، ترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢ ص١١٠ت١١١، محروس عبد القدوس جستنيان وسياسة الاستردادية، رسالة ماجستير لم تنشر، إشراف قاسم عبده قاسم، آداب الزقازيق، سنة ١٩٨٤م.

ورغم أن الكنيسة اللاتينية كانت في صف الإمبراطور فإن قوى بيزنطة لم تكن أهلاً لمهمة استعادة الإمبراطورية كلها، ذلك أن طرد الجرمان من غرب أوربا عامة وإيطاليا خاصة كان أكبر من إمكانيات جستنيان(١١).

والواقع أن البابوية خرجت من هذه التجربة وقد أدركت أن تحالفها القصير مع الإمبراطور كان له أسوأ الأثر(١٢)، لقد أدى فشل مشروع جستنيان الاستردادي إلى خلق فراغ سياسي وعسكري في الغرب. وعمت الفوضى إيطاليا وغرب أوربا وبدا الموقف خطيرًا.

فقد تم القضاء على الأوستروقوط، في الوقت الذي اجتاحت شمال إيطاليا غزوة جرمانية جديدة لجماعات اللومبارديين Lombardi وفي بلاد الغال كانت رحي الحرب دائرة بين الفيزيقوط والفرنجة. بينما كانت الكنيسة تواجه متاعب من قبل المونوفيزتيين(١٣)، بالإضافة إلى انهيار مستوى القيم والأخلاق لدي رجال الدين(١٤).

واعتلي جريجوري الأول أو الكبير(١٥) Gregory the Great (٥٩٠ - ٦٠٣) عرش البابوية في ذلك المناخ الذي كان فيه موقف الكنيسة الرومانية مزعزعًا للغاية، وكان على جريجوري أن يبذل ما في وسعه لتدعيم مكانة البابوية. وكانت البداية من

---

(١١) برتراند راسل: حكمة الغرب، ج١، ترجمة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٣، ص٢٦١.

(١٢) وقفت البابوية إلى جانب جستنيان في حربه الاستردادية - كما تؤكد احدث الدراسات - وذلك لأنه منح البابوية حرية التصرف حتى في أمورها العلمانية، وإن لم يكن ذلك يعني الاعتراف بأسبقيتها. انظر: زينب عبد المجيد عبد القوي: العلاقات الدينية والسياسية بين الإمبراطورية البيزنطية وغرب أوربا في الفترة من ١٠٧١-١١٠٤م، رسالة ماجستير لم تنشر، آداب الزقازيق سنة ١٩٨٥م. إشراف قاسم عبده قاسم، كذلك فإن جستنيان تمسك إلى حد بعيد بالسلطة الإمبراطورية على البابوية أو ما اصطلح عليه بالقيصر وبابوية، انظر: محروس عبد القدوس: المرجع السابق، المقدمة.

(١٣) تخلت جموع كبيرة من أبناء مصر وسوريا عن المذهب التقليدي في التجسد، وأخذوا بالمذهب المنوفزيتي Monophysite مذهب الطبيعة الواحدة الذي يزعم أن للمسيح طبيعة روحية واحدة. وكان هذا الرأي ملعونا في نظر الكنيسة اللاتينية في الغرب لأنها كانت تؤمن بأن في شخص المسيح طبيعيتين إحداهما إنسانية، والثانية إلهية. للمزيد أنظر: كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٢٢٢.

(14) Ault Warren, Europe in the Middle Ages, Bosston, U.S.A. 1946, p.143.
راسل: المرجع السابق: ص١٨١- ١٨٢.

(١٥) ينحدر جريجوري الأول من أسرة متميزة في روما، وقد تعلم ليعد للحياة العامة، وفي سن الثلاثين حكم مدينة روما تحت إمرة الإمبراطور، غير أنه استقال فجأة وأصبح راهبا وكان يدرك أن مصير البابوية يجب أن يتحدد في غرب أوروبا وأن الزعامة البابوية للمجتمع الأوربي يجب أن تتم من خلال التحالف مع النظم الديرية والملكية الفنجية، رسل المرجع السابق، ص٢٧٢ - ٢٧٨.
Thompson, Op.Cit., v.1, p.174, Ault., Op.Cit., p.193.

الداخل للتخلص من المفاسد المنتشرة بين رجال الدين فقام بحركة تطهير في البيت اللاتيراني[١٦]. وكان جل اهتمام جريجوري الأول منصبًا على تأكيد زعامة البابوية في غرب أوربا، وتحقق في عهده للبابوية من السلطان والنفوذ ما لم يتحقق لسابقيه[١٧].

لقد كان جريجوري الأول بارعًا في موقفه من الإمبراطور البيزنطي حيث عمل على إبقاء السلام بينهما، رغم ما شاب ذلك السلام من قلق. كما كان على استعداد للتغاضي عن أي شطط من جانب الإمبراطور ليضمن للبابوية حرية متابعة أهدافها في أوربا الغربية[١٨].

لقد اعتلي جريجوري الأول عرش البابوية في وقت كانت فيه أحوج ما تكون إلى مهارته وحنكته، وتضعه جهوده في مصاف سلفيه ليو الأول وجيلازيوس الأول الذين أمكن لهم أن يجعلوا من كنيسة روما زعيمة الغرب.

وأيا ما كان الأمر، فإن ما حققه جريجوري الأول من مكانة وسمو، كان حريا به أن يلقي معارضة من جانب الأباطرة البيزنطيين، وانقلب السلام القلق إلى معاملة مشينة من الأباطرة الذين أخذوا يسيئون إلى البابوات، وبدت البابوية مرة أخرى في موقف ضعيف[١٩].

وحانت فرصة الخلاص من النفوذ البيزنطي إبان الحركة اللاأيقونية، تلك الحركة التي قادها الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ - ٧٤١) ونادي فيها بتحريم استخدام الصور وغيرها من المواد الفنية الممثلة للأشخاص (الأيقونات)

---

(١٦) اسحق عبيد: المرجع السابق، ص١٨١.

(١٧) عن جهود جريجوري الأول ومنهجه أنظر:

Baldwin, Op.Cit., p.27, Thompson, Op.Cit., v.1, p.167.

(١٨) كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٢٧٧، موس: المرجع السابق، ص١٨٧.

(١٩) قام قنسطانز الثاني (٦٤١- ٦٦٨م) بالقبض على البابا مارتن وحوكم في بيزنطة، ونفي إلى القرم حيث مات سنة ٦٥٥م. كذلك قام جستنيان الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥) بالإساءة إلى البابا سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١) وقد ناصر نبلاء روما وسكان وسط إيطاليا البابا مهددين بالثورة ضد الإمبراطور البيزنطي، أنظر:

Thatcher & Mcneal, Op.Cit., pp.95-96., Deanesly, Op.Cit ., p.89.

باعتبارها مظاهر وثنية، وعبادة أصنام، وأمر بإزالتها من الكنائس[٢٠]. كانت الأيقونية منتشرة في الغرب وساعد على انتشارها الأمية والتدهور العقلي.

والواقع أن الغرب الريفي الأمي كان يري في الأيقونية شيئًا مقدسًا، في الوقت الذي عدها معارضوها في الشرق البيزنطي نوعًا من عبادة الأصنام، وقد يرجع ذلك إلى العقلية الشرقية المثقفة، ولا يغفل كذلك التأثر بالمسلمين وأفكارهم. وتجدر الإشارة إلى أن الحركة اللا أيقونية قد عمقت الخلاف بين الشرق والغرب وأضافت إلى قائمة الخلافات مشكلة جديدة.

ويبدو أن البابوية وجدت في الحركة اللا أيقونية فرصتها الحقيقية لتأكيد استقلالها وزعامتها في آن واحد. ولقد كان موقف البابوية من تلك الحركة متشددًا وصلبًا. وظهر جليًا إبان تلك الحركة مدى الاختلاف في المستوى الحضاري بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني، الأمر الذي أدى إلى تزايد شقة الخلاف بينهما.

ولأن التعبير الكنسي كان أسلوب العصر، فقد وجد الخلاف بين الجانبين من خلاله متنفسًا، ووصل الأمر إلى حد التحدي الصريح لسلطة الإمبراطور البيزنطي. فنجد البابا جريجوري الثاني (٧١٥ - ٧٣٤م) يوجه في رسالته إلى الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ - ٧٣٤م) عبارات لوم وتأنيب قاسية، مخبرًا إياه أنه لاحق له في أفعاله، وموضحًا له ما سيلاقيه من خزي يوم البعث بسبب آثامه وعقوقه ويطالبه "بالتوبة والرجوع إلى الإيمان، أطع الحقيقة كما وجدتها وتلقيتها"[٢١].

كما أن البابا جريجوري الثالث (٧٣١ - ٧٤١م) كان من أشد المتحمسين للأيقونية، ففي سنة ٧٣١م، قام بإصدار مرسوم أعلن فيه حرمان كل اللا أيقونيين ومن تبعهم حيث يجب أن يقطع من جسد ودم مخلصنا السيد المسيح[٢٢].

---

(٢٠) للمزيد من التفاصيل عن الحركة اللا أيقونية وموقف الكنائس الشرقية والغربية منها، أنظر:
Fortescue .Adrian, The Uniate Eastern Churches, ed. By J.R.Smith, London1923, pp.80-81.
كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٢٩٩ - ٣٠١، اسحق عبيد المرجع السابق ص٩٤-٩٦، رنسيمان الحضارة البيزنطية، ص١٣٤.

(21) Letter of Pope Gregory11 to the Emperor Leo111, in A Source Book for Medieval History, eds. By Thatcher & McNeal, pp.96-100.

(22) Gregory 111 Excomunicate Iconolasts, in A source book., p.101, Forteascue, op.cit, p.80.

ويمكن القول أن؛ السياسة الإمبراطورية في هذه المرحلة أدت إلى تصاعد الأزمة، وعدت روما بيزنطة مهرطقة، وعدت بيزنطة بدورها روما متمردة. وقامت بيزنطة بتجهيز حملة بحرية لفرض سياسة اللا أيقونية بالقوة والقبض على البابا جريجوري الثالث وذلك في سنة ٧٣٢م، إلا أن الأسطول تحطم في البحر الأدرياتي(٢٣).

ويهمنا هنا ما ترتب على هذه الحركة، لقد ازداد نفوذ البابوية وارتفعت مكانتها في الغرب بل أن سكان إيطاليا ضاق أغلبهم بسياسة الإمبراطور وتمردوا عليه وارتبطت مشاعرهم بالبابوية(٢٤).وما كان إلا أن ضعفت سلطة الإمبراطور إلى الحد الذي أصبح ممثله في إيطاليا مجرد شبح لا يملك نفعا ولا ضرا(٢٥).

لذا فقد عمد ليو الأيسوري إلى توجيه ضربة انتقامية للبابوية، فضم إلى بطريركية بيزنطة كل من صقلية وجنوب إيطاليا ودالماشيا، مما كان له أثره على البابوية ونفوذها، وقد انسحب ذلك الأثر ليلقي بظله على العلاقات الدينية بين البابوية وكنيسة بيزنطة (٢٦).

وإذا كانت البابوية قد خرجت من النزاع اللا أيقوني قوية، نتيجة وقوف الغرب الأوربي إلى جانبها فإن ذلك يرجع إلى تبني البابوية وجهة نظر الثقافة الغربية ومعتقداتها قبالة أفكار بيزنطة، إلا إنه يجب التأكيد على أن البابوية فقدت عون الإمبراطور وقت الشدة. وكان عليها أن تطلب عون الفرنجة بعد محاولة الغزو الفاشلة من جانب اللومبارديين سنة ٧٣٩م.

ويوجد خطاب أرسله جريجوري الثالث إلى شارل مارتل في هذا الشأن(٢٧). وقد تعمد الأخير تجاهل طلب البابا وكانت له أسبابه: لقد كانت تربطه علاقات طيبة مع

---

(٢٣) يذكر سعيد عاشور أن ذلك الأسطول كان الغرض منه استرداد أملاك الإمبراطورية من اللمبارديين، بالإضافة إلى القبض على جريجوري الثالث الذي أوقعه تحمسه للأيقونية في عداء مرير مع الإمبراطور البيزنطي، انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطي، ج١، ص١٥٣- ١٥٤.

(٢٤) كريستوفر دوسن: تكوين أوربا، ترجمة ومراجعة مصطفي زيادة، سعيد عاشور، الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٧، ص٣٠٩.

(٢٥) ج. باراكلاف: الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطي، ترجمة وتقديم جوزيف نسيم يوسف، دار المعارف القاهرة ١٩٧٠، ص٣٥.

(26) Runciman The Eastern Schism, A Study of the Papacy and the Eastern Churches during the XIth and XIIth Centuries, Oxford, 1955, p.20., Fortescue, Op.Cit., p.82.

(٢٧) عن نص الرسالة أنظر:

The Pope Gregory 111, Asks Aid of the Franks Against The Lombards 739, in A Source

اللومبارديين بالإضافة إلى أنه لم يكن على وفاق مع رجال كنيسته بسبب استيلائه على أراضي الكنيسة هو ونبلائه ومنحها إقطاعيات لأفضالهم(٢٨). غير أن البابوية كانت تلح على ضرورة التحالف مع الفرنجة في تلك الفترة خاصة وأنها كانت تطمع أن تخلف القوة الإمبراطورية المنهارة في إيطاليا(٢٩).

ولقد واتت البابوية فرصة التحالف مع الفرنجة، عندما كان ببن بحاجة إلى رأي يؤكد شرعية أن يكون حاكما رسميا، ورأي البابا زكريا (٧٥١ - ٧٥٢م) صحة ذلك، وقام بونيفاس بتتويج ببين ملكًا على الفرنجة في كاتدرائية سواسون سنة ٧٥١م(٣٠).

وكان على البابوية أمام تزايد الخطر اللومباردي أن تطور تحالفها مع الفرنجة إلى مرحلة أقوي. وبالفعل قام البابا ستيفن الثاني (٧٥٢ - ٧٥٧) بزيارة مملكة الفرنجة "وقام بتتويج ببين ملكًا"(٣١).

وكان مسلك البابوية بارعًا فقد حصلت بالفعل على حماية الفرنجة، بالإضافة إلى حصولها على مدينة رافنا وبعض الأقاليم الأخرى طبقًا لما جاء في منحة ببين للبابوية، ولا شك أن ذلك كان في صالح البابوية وعلى حساب التواجد البيزنطي في الغرب(٣٢).

كانت البابوية حريصة على تحالفها مع الفرنجة بصورة دائمة، فنجدها بعد وفاة ببين تسعي إلى كسب ابنه شارلمان إلى جانبها. ويبدو أنها وجدت فيه سندا لها لما بدا فيه من قوة بعد إطاحته بالجيوش اللومباردية سنة ٧٧٤م، وقيامه برد كل ما استولي عليه اللمبارديون من البابوية(٣٣).

Book for M.H ., pp.101-102.

(٢٨) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص١٥٤ - ١٥٥.

(٢٩) انضمت كل من البندقية واستيريا ودوقية روما وسبولينو وبنفنتو، واضعين أنفسهم تحت حماية البابا خشية أستولف Aistulf ملك اللومبارديين، الذي استولي على رافنا وطرد الاكسارخ وأنهي الوجود البيزنطي في أواسط إيطاليا انظر:

Thatcher & Mcneal, Op.Cit., p.103.

(٣٠) فيشر: المرجع السابق، ق١، ص٨٤.

(31) Einhard, The Life of Charlemgne, in Two Lives of Charlemagne: The Vita of Caroli of Einhard, and the De Carlo Magna of Notker the Strammerer, Trans. Levies Thorpe, Pinguin Books, 1969, p.57.

(٣٢) عن منحة ببين أنظر: كريستوفر دوسن:المرجع السابق. ص٢٦٥.

Donation of Pippin, in Source Book, p.104.

(33) Cf. Einhard, Op.Cit. p.60-61., Deanesly, Op.Cit.p.85.

غير أن الخدمة الكبرى التي أسداها شارلمان للبابوية هي حمايتها من خطر الأسر النبيلة وكبح جماح تلك الطبقة التي كانت على استعداد دوما للقيام في وجه البابا. حيث تعرض البابا ليو الثالث (٧٥٩ - ٨١٦) لتآمر نبلاء روما ضده في سنة ٧٧٩م وأفلح بصعوبة بالغة في الهرب، ولجأ ليو الثالث إلى شارلمان متوسلاً فقام الأخير بعقد محاكمة ترأسها بينما قام أمامه ليو بتبرئة نفسه، كان ذلك في الثالث والعشرين من ديسمبر لسنة ٨٠٠م وأعيد ليو في الوقت الذي أمر شارل بمحاسبة المتآمرين[٣٤].

ويبدو أن الطريقة التي تمت بها المحاكمة والشكل الذي جرت عليه قد أساء إلى البابا في مواجهة الحاكم الكارولنجي، وهو الذي يبغي استعادة هيبته. ولقد دفعه تصميمه على استعادة تلك الهيبة إلى الإقدام على عمل أثار كثيرًا من التساؤلات، واختلفت الآراء في تفسيره، ففي يوم عيد الميلاد من تلك السنة وبينما شارلمان ينهض من الصلاة وضع البابا ليو التاج على رأس الملك وصاح الجميع صيحة يبدو أنهم لقنوا إياها من قبل "شارل أغسطس إمبراطور الرومان العظيم مانح السلام، له الحياة والنصر"[٣٥].

لقد رأت البابوية في التتويج ورقة سياسية تؤكد من خلالها سلطتها وأحقيتها في تتويج الملوك والأباطرة. يذكر اينهارد مؤرخ شارلمان، أن شارلمان لم يكن على علم مسبق بما اعتزمه البابا، ولو علم لما ذهب إلى الكنيسة في ذلك اليوم،[٣٦] إلا أن الدلائل تؤكد عكس ما أورده اينهارد، لقد كان شارلمان يعد بالفعل لحمل التاج واللقب، وقد يرجع عدم رضاه إلى الطريقة التي تم بها والوقت الذي تم فيه ذلك. وقد يفسر استياء شارلمان للطريقة التي تم بها التتويج وإدراكه مغزاها، قيامه بنفسه - فيما بعد - بتتويج ابنه ووريثه - لويس - إمبراطورًا[٣٧].

ومهما يكن من أمر، فإن إحياء اللقب الإمبراطوري في الغرب أعطى البابوية الفرصة لمضايقة الكارولنجيين المتأخرين من خلال براعة البابوات في استخدام

---

(٣٤) كانتور، المرجع السابق، ق١، ص٢١٠، سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطي، التاريخ السياسي، ج١، ص١٩٣١٩٤.

(٣٥) كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٣١٠، اسحق عبيد: الإمبراطورية الرومانية، ٢١٦.

(36) Einhard, Op.Cit., p.81.

(٣٧) كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٣١١.

سيطرتهم على منح اللقب. بيد أن الأمر لم يطل، ويرجع ذلك إلى سيطرة النبلاء الرومان على مصير البابوية وانهيار القوة الكارولنجية[٣٨].

وكان طبيعيًا أن تسود فترة من الفوضى نتيجة المصير الذي آلت إليه الإمبراطورية الكارولنجية. وقد لجأ الملوك والنبلاء الإقطاعيون في ظل الفوضى المتفشية إلى تجريد الكنائس والأديرة من الثروة التي جمعت في الأزمنة السابقة، وأصبحت الكنيسة بالجملة تحت رحمة الأرستقراطية الحربية الجديدة[٣٩].

ويمكن إرجاع مسلك أولئك الملوك والنبلاء إلى ما اعتادوه زمن الملوك الكارولنجيين خاصةً على عهد شارل مارتل - كما سبقت الإشارة. لقد أجبروا الكنائس على منح الإقطاعيات لأفضالهم، وكان لهذه السياسة أثرها من حيث صبغ الكنيسة بالصبغة الإقطاعية إلى حد ما.

وجاء وقت صار فيه بعض الأساقفة ومقدمي الأديرة أفصالاً للتاج الكارولنجي، ثم استخدموا بعض أراضيهم كإقطاعيات حربية يمنحونها لأفضالهم مثلما فعل الأمراء العلمانيين. ويعني هذا تورط الكنيسة في العلاقات الإقطاعية بشكل مباشر[٤٠]، بالإضافة إلى ما سبق، فإن المناصب الكنسية ذاتها لم تسلم من مطامع الذين يطمحون إلى الحصول على السلطة والثروة[٤١].

وإذ أدرك الأساقفة ما آلت إليه الكنيسة، فإنهم أخذوا يعملون بصورة مستقلة عن سلطة البابوية، وكان على الكنيسة أن تواجه أسوأ وأحلك فترات تاريخها، فقد شهد القرن العاشر انحطاطًا مؤسفًا عم كل الكنيسة الغربية مما عاقها عن أداء مهامها بالشكل المطلوب، وصار الأساقفة - فيما عدا قلة منهم - غارقين في أمور دنيوية[٤٢].

---

(٣٨) كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٣١٢.

G. Barraclough, The Medieval Papacy, London 1968, p.63., Lowis Haphen, The Church from Charlemagne to SelvesterII, in Cmh., Vol. III, p.2 (1966), (pp.443-457), p.455.

(٣٩) كريستوفر دوسن: المرجع السابق، ص٣٤٣.

(٤٠) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩)، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣، ص١٠٣- ١٠٤.

(٤١) نفسه، ص١٠٤.

(42) Stephenson, Medieval History, Washington, 1944, p.284.

ويبدو أن الفوضى التي عمت جميع مناحي الحياة في أرجاء أوربا طوال مدة النصف الأول من القرن العاشر كان لها آثارها على رجال الكنيسة وبشكل سيء. لقد تعرضت الأطراف الأوربية في تلك الفترة لهجمات الشماليون، في الوقت الذي تفككت فيه أوصال أوربا الغربية إلى ممالك وأقاليم إقطاعية ومدن مستقلة.

كما تعرضت ألمانيا لأخطار المجريين. وامتد خطر هؤلاء وتخريبهم إلى إيطاليا وفرنسا وغيرها من البلاد(٤٣)، وفي ظل تلك الفوضى العارمة والمتفشية عمل رجال الدين والأساقفة منهم على تحقيق مآربهم الشخصية وبذلك غرقوا في لجة المجتمع الإقطاعي، وأصبحوا من رجاله وضمن نسيجه الأساسي، يتقلدون وظائفهم الدينية من الملوك أو الأمراء الإقطاعيون شأنهم في ذلك شأن سائر الإقطاعيين، وعرفت تلك الظاهرة التي كانت من أخطر أمراض الكنيسة بالتقليد العلماني(٤٤).

وينسحب القول على الأديرة أيضًا حيث لاقت نفس المصير من الانحدار إبان انهيار الكنيسة الغربية وأوشكت قيمها ومبادئها الدينية على الانقراض، وصار لمقدمي الأديرة اهتمام أكبر من الاهتمام بالمبادئ البندكتية، حيث شغلوا بأمور السياسة والصراعات الدنيوية(٤٥).

وإذا كان ذلك هو حال الكنيسة والأديرة، فإن الحال لم يكن مختلفًا بالنسبة للبابوية فهي إفراز لبيئة سيئة، لقد كان البابوات أنفسهم النماذج السيئة للسلك الكهنوتي في الغرب، وصاروا يأتون أعمالاً شريرة، ويتخذون لأنفسهم محظيات ويعاقرون الخمر(٤٦).

ويمكن إرجاع ذلك إلى الأرستقراطية الإقطاعية، وارتباط البابوية بها، ذلك أن البابوية مع بداية القرن العاشر صارت فريسة للإقطاعيين من نبلاء روما، وخاضعة لتحكم الأرستقراطية المحلية. وصار منصب البابوية ألعوبة في أيدي بعض العائلات

---

(٤٣) للمزيد أنظر: فيشر: المرجع السابق، ق١، ص١٣٨.

(٤٤) كريستوفر دوسن: المرجع السابق، ص٣٤٣.

Thopson Op. ،cit. ،Vol. I ،p.176.

(45) Stephenson, Op., Cit., pp.284-285.

(٤٦) اسحق تاوضروس عبيد: روما وبيزنطة من قطيعة فوتيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م، ص٢١.

الأرستقراطية[٤٧] وبرز من المتآمرين على الكرسي البابوي وتدبير المكائد حوله إلى جانب النبلاء من الرجال شخصيات نسائية مثل ماروزيا Marozia، وأمها ثيودورا Theodora[٤٨].

صار مصير البابوية إذن في المجتمع الإقطاعي إقطاعًا يمنح، ولا شك في أن ذلك الانحدار كان بعيدًا عما تطلع إليه وعمل لأجله بابوات سابقون مثل ليو الأول، وجريجوري الكبير، كما يلاحظ أنه مع بداية القرن الحادي عشر وحتى سنة ١٠٥٩م - وهي فترة قصيرة نسبيا - اعتلي عرش البابوية سبعة عشر بابا. ويوضح ذلك مدي سيطرة نبلاء روما الفاسدين على البابوية، وانعكس ذلك بدوره على مقدرة البابوات في ممارسة نفوذهم الروحي. ولا يخفي أن فساد البابوات وانعدام وجود حليف قوي يساندهم كان له الأثر الأكبر في فقدان ذلك النفوذ.

وقد حاول البابا يوحنا الثاني عشر (٩٥٥ - ٩٦٤م) أن يوفر للبابوية تلك الحماية التي افتقدتها، وذلك بالتماس عون أوتو الأول[٤٩]. (٩٦٢ - ٩٧٣م) ضد الماركيز برنجر وأعداء البابوية في إيطاليا، وذلك لقاء تتويجه إمبراطور[٥٠].

وعلي الرغم مما ساد أوربا من فوضي وما صاحب تلك الفوضى من ظهور النظام الإقطاعي الأوربي الغربي[٥١]، فإن الدولة العالمية التي لم تسع أرضها ما

---

(٤٧) رأفت عبد الحميد: المرجع السابق، ص١٧٧م،

Walker, Williston, A History of the Christian Church, U.S.A. 1949, p.215.

(٤٨) كانت ماروزيا محظية لأحد الباباوات، وأما لبابا ثان، وقاتلة لبابا ثالث بينما كانت ثيودورا محظية البابا حنا العاشر (٩١٤- ٩٢٨م) وقد عملت المرأتان من خلال أزواجهما أو عشاقهما على تحويل البابوية لأبنائهما أنظر:

H.Pirenne, A History of Europe vol.I (trans.by Bernard Mail), New York 1956., p.145, Tout, The Empire and Papacy, London 1924, p. 29., Walker, Op., Cit., p.215.

(٤٩) اختير أتو الأول ملكا بعد أبيه هنري الأول، وكان في العشرين من عمره وتم تتويجه في آخن، وكان أوتو الأول يعتقد سمو مركزه، فأراد أن يجعل من وظيفته الملكية سلطة فعلية، وقد أدت سياسته لتحقيق ذلك الغرض إلى كثير من الثورات والحروب الأهلية الأمر الذي جعله يتجه نحو الكنيسة ليتخذ رجالها سلاحًا يشهره في وجه الدوقات وكبار الأمراء، للمزيد من التفاصيل أنظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج١و ص٢٨٧.

(٥٠) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٩٠.

Tout, Op., Cit., p.31, Prinne, Op., Cit., 146.

(٥١) يربط بنتر بين الفوضى التي عمت أوربا وبين النظام الاجتماعي المعروف بالإقطاع في القرن العشر، للمزيد أنظر:

Painter, Sideney, A History of the Middle Ages (284-1500) New York 1954, p.114.

وسعت المسيحية من الأرض لم تبارح عقول الناس بعد شارلمان. وكان تتويج أوتو إمبراطورًا على يد البابا يوحنا الثاني عشر سنة ٩٦٢م إحياء الإمبراطورية وفي ذات الوقت تحقيقًا لمطلب من مطالب المجتمع الأوربي الغربي(٥٢).

بيد أن ما قامت به البابوية هذه المرة لم يكن بنفس القدر من النجاح الذي أحرزته عند تتويج شارلمان الذي كان يقدم خدماته طواعية للكنيسة ويدعمها في مواجهة أعدائها. لقد كان أوتو يعمل من أجل تحقيق أغراضه في السيطرة على الكنيسة الألمانية. وذلك من خلال السيطرة على البابوية وضمان خضوعها له(٥٣).

لذلك لم يكن مستغربًا أن يتمرد البابا يوحنا الثاني عشر على الإمبراطور الذي قام بعزله، وتعيين ليو الثامن (٩٦٣ - ٩٦٥م) في مجمع ديني عقده في روما سنة ٩٦٣ م. وقد اعتبرت الكنيسة الرومانية ليو الثامن بابا مضادًا، لأن أوتو طبقًا للنظرية البابوية، لم يكن يملك سلطة خلع البابا(٥٤). وكان رد ليو الثامن لجميل أوتو أن منحه ذلك الحق، وحق اختيار البابا وتقليد الأساقفة(٥٥).

ويعد نجاح الإمبراطور أوتو الأول أمام البابوية دليل على اختلال التوازن السياسي لصالح الإمبراطورية الرومانية المقدسة - وهو الاسم الرسمي لإمبراطورية أوتو - التي كانت أقوي كيان سياسي في أوربا الإقطاعية حين ذاك. ويعني ذلك انتكاسة كبري لنظرية السمو البابوي التي راح البابوات العظام يبذلون الجهد لرفع راياتها.

وقد حاول الأباطرة الألمان خلفاء أوتو الأول تأكيد سيطرتهم على البابوية، وإن اختلفت طريقة كل منهم في التعامل معها، فنجد أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢م) يتطلع إلى جعل روما مركزا للسلطة الروحية والزمنية معًا، وقد فشلت محاولته لصعوبة تحقيق ذلك الهدف، ومن ناحية أخري اضطراره للهرب أمام ثورة أهل روما(٥٦). وحاول هنري الثاني (١٠٠٢ - ١٠٢٤م) أن يقدم العون إلى بندكت الثامن (١٠١٢ - ١٠٢٤م)، وكان الأخير قد لجأ إليه بعد أن وقعت البابوية تحت رحمة أمراء من عائلة

---

(٥٢) فيشر: المرجع السابق، ق١، ص١٣٩.

(53) Tout, Op.Cit., pp. 26-27.

(54) Thatecker & McNeal, Op.cit., p. 118.

(55) LeoVIII Grant the Emperor the Right to chooce the Pope and Invest all Bishops, 963, in Thatecker & McNeal, Op.cit, p.118.

(56) Pirenne, Op.cit, p. 147.

كرسشنتي Cresecenti وعائلة تسكاليوم Tuscalum كل من ناحية. وقد قام بندكت نظير ذلك العون بتتويج هنري الثاني إمبراطورا في روما مع بداية سنة ١٠١٤م.

وقد لجأت البابوية إلى تكرار عملية التتويج في مقابل الحصول على عون الملوك الألمان حكام الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ففي عهد كونراد الثاني (١٠٢٤ - ١٠٢٩م) تم تدعيم موقف الكنيسة في إيطاليا، وفي المقابل توج كونراد إمبراطورا بيد البابا يوحنا التاسع عشر (١٠٢٤ - ١٠٣٢) في ربيع ١٠٢٧م[٥٧].

مما سبق نرى؛ أن البابوية كانت تبحث عن نصير لها، غير أنه لم يكن بالقوة التي توفر لها الدعم الدائم، في الوقت الذي صارت فيه البابوية ألعوبة في أيدي نبلاء روما.

وقد بلغت المأساة ذروتها عندما تصارع ثلاثة رجال على المنصب البابوي زمن هنري الثالث (١٠٢٩- ١٠٥٦م) مما دفعه إلى عزلهم جميعًا، وكانت الإمبراطورية المقدسة في عهده قد بلغت ذروة قوتها وبدت في صورة القوة الكبرى الفعالة في توجيه مصائر غرب أوربا[٥٨].

ومهما يكن من أمر، فقد بلغت الكنيسة أقصى حالات التدهور والانهيار، ويمكن تفسير ذلك المصير الذي آلت إليه الكنيسة ومؤسساتها في الغرب في ضوء النظام الإقطاعي، وقبول الكنيسة الدخول في نسيجه، مما جعلها أسيرة العلاقات الإقطاعية والتزاماتها[٥٩].

ونجم عن دخول الكنيسة في نسيج النظام الإقطاعي الأوربي بعض الظواهر الخطيرة، فقد ظهرت السيمونية أي بيع الوظائف الدينية، وتفشي ذلك الداء الخطير في جسد الكنيسة اللاتينية. وكان لثروات الكنيسة فعلها في عقول الطامعين الذين لم يضنوا بتقديم الأموال الكثيرة إلى الحكام العلمانيين أو كبار

---

(٥٧) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٣٠٤.
(٥٨) نفسه، ص٣٠٩،

S. Painter, Op.Cit., pp.130.

(٥٩) للمزيد من التفاصيل حول النظام الإقطاعي وكيفية ظهوره كنظام اجتماعي وتطوره في بعض الدول بغرب أوربا أنظر:

Painter, Op.Cit., pp. 104 -122, also.

كانتور: المرجع السابق، ص٣٣١-٣٦٦، فيشر: المرجع السابق، ١٣٩ - ١٤٤.

الأساقفة مقابل تعيينهم على تلك الأديرة والأسقفيات. وقد توصل نتيجة ذلك كثير من المجرمين والفاسدين إلى المناصب الدينية الكبرى، مما أضعف الكنيسة وأضر بسمعتها(٦٠).

وقد وجد الكثير من أبناء الأسر الإقطاعية ممن لا يرثون الإقطاعيات فرصتهم في الانخراط في سلك الكنيسة رغبة في السيطرة على إقطاعيات المؤسسات الكنسية من كاتدرائيات أو أسقفيات أو أديرة(٦١). وترتب على تلقي أولئك الأشخاص لمناصبهم والإقطاعيات التي ترتبط بتلك المناصب القيام بتقديم خدمة عسكرية لمن تلقوا منهم مناصبهم الكنسية من دوقات أو ملوك، الأمر الذي كان له أثره في تخلي رجال الكنيسة عن دورهم الديني. وقد برزت ظاهرة أخري نجمت عن رغبة رجال الدين في التمسك بالإقطاع الكنسي.

تمثلت تلك الظاهرة في قيام رجال الدين باللجوء إلى الزواج ليتمكنوا من توريث الإقطاع لأبنائهم، غير أن ذلك لم يكن ليتحقق فالأبناء لا يمكنهم وراثة الإقطاع بحكم القانون الإقطاعي لأنهم كانوا غير شرعيين(٦٢).

لقد كان ضروريًا عمل إصلاح جذري في مواجهة تلك الأحوال، وهو ما حدث بالفعل، فقد ظهرت حركات كان هدفها إصلاح الكنيسة الغربية وإنقاذها من المصير الذي آلت إليه. وكان أشهر تلك الحركات على الإطلاق حركة الإصلاح الكلوني، وقد نسبت إلى الدير الذي انبثقت منه.

تأسس دير كلوني سنة ٩١٠م على يد دوق أكوتين وفقًا للنظام البندكتي، وقد أضحي الدير مركزًا هامًا للعقيدة، وصار أسقفه أهم وأقوي شخصية دينية في الكنيسة اللاتينية بعد البابا(٦٣). ويبدو أن الدير كان حريصًا على ألا تقع الكنيسة في قيود

---

(٦٠) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطي، ج١، ص٣٣٠.

(٦١) للمزيد من التفاصيل أنظر:

Stephenson, Op.Cit, p. 286, Walter, Op.Cit., p.236.

(٦٢) كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٣٥٢.

(٦٣) للمزيد عن دير كلوني والحركة الكلونية، انظر: كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٣٦٩-٣٧٠.

Lynn Thorndike, The History of Europe, U.S.A.1956, pp. 285-287., Stephenson, Op.Cit., pp. 186-287., Tout, Op.Cit., pp.97-99, Hulme. Edward, The Middle Ages, London 1963, pp.408-409.

التزامات إقطاعية، وبالفعل فقد قام على أساس نظام جديد يجعل الكنيسة الغربية غير مرتبطة بأية التزامات إقطاعية مقابل الأرض التي يمنحها لها النبلاء، وبذلك تكون جميع المنح لقاء دعوات رجال الدين للمانحين لا أكثر(٦٤).

ولأن الدير كان محصنًا ضد التدخل العلماني، فقد ساعده ذلك على تحقيق النجاح في مهمته إلى حد ما. ورغم أن الدير كان تحت الإشراف المباشر للبابوية، فقد تمتع رؤسائه بحرية تامة في تصريف شئونهم وتوجيه مصيرهم، بينما ظلت البابوية إلى منتصف القرن الحادي عشر تعاني من التدهور الشامل(٦٥).

تبنت حركة الإصلاح الكلوني برنامجًا غايته إصلاح الكنيسة والعالم ضمن النظام القائم وفي إطاره، غير أن ذلك البرنامج يمكن انتقاد بعض جوانبه، ففي الوقت الذي حرص فيه دير كلوني على التخلص من أي سيطرة علمانية فإنه لم يحرص على جعل ذلك الاستقلال مطلبًا أساسيًا للأديرة الكلونية والأديرة المنتسبة إليه(٦٦). ويبدو أن ذلك توافق مع اهتمام الرهبان الكلونيين، فقد تطلعوا إلى الحصول على حماية الملوك والدوقات لأديرتهم.

وقد كان مقدم دير كلوني يرى في الحاكمين في ألمانيا، وفرنسا، ونورمانديا وغيرها من دول غرب أوربا أصدقاء الكنيسة الجديرين بالاحترام والإعجاب. وتزعم الكلونيون بالفعل حركة تبجيل الحاكم باعتباره حاميًا للكنيسة وتقبلوا انتشار الملكية الثيوقراطية في ألمانيا(٦٧). وكان لاهتمام الإمبراطور هنري الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦م) بالحركة الكلونية أثره في دفعها إلى الأمام، حيث عاون بنشاط تلك الحركة، وقد عد نفسه راعيا وحاميا للكلونية في مملكته(٦٨).

---

(٦٤) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٣٦٩.

(٦٥) كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٣٦٩.

(٦٦) انتشر تأثير الكلنية في إرجاء الغرب المسيحي، حيث وجدت أديرة في فرنسا وألمانيا وأسبانيا وانجلترا وشمالي إيطاليا تتبنى المبادئ الكلونية، ومع اقتراب القرن الحادي عشر فإن أكثر من مئة ألف راهب فيما يقارب ٢٠٠٠ جماعة دينية ارتبطوا بالحركة الكلونية، وقد صار أوربان الثاني الرجل الثاني في دير كلوني ثم صعد إلى رأس الكنيسة في روما. أنظر:
Thomas Asbridge, The First Crusade, p.10.

(٦٧) للمزيد من التفاصيل حول البرنامج الكلوني أنظر: كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٣٦٩-٣٧٠.
Walker, Op.Cit., p 236, Painter, Op.Cit., p 129.

(٦٨) دخلت الحركة الكلونية إلى ألمانيا عن طريق برجنديا، وكذلك اللورين في مطلع القرن الحادي عشر

وإذا كنا نري اهتمامًا من جانب الأباطرة الألمان بهذه الحركة فإن دافعهم إلى مساندتها تم في إطار محاولة من جانبهم لإحكام سيطرتهم على الكنيسة(٦٩). ولم يجد المصلحون الديريون في موقف الإمبراطور تعارضًا تامًا مع أهدافهم، ذلك أنهم رأوا فيه حليفهم الحقيقي في محاولة تحرير الكنيسة من قبضة الأرستقراطية العلمانية الثقيلة(٧٠).

وقد اتجهت جهود المصلحين إلى رأس الكنيسة اللاتينية - أي البابوية - وعملوا على إصلاحها. وكان هنري الثالث من جانبه مستعدا لأي محاولة من هذا النوع لتقوم البابوية بحركة إصلاح مماثلة في الكنيسة ككل(٧١). وكما سبق القول، كان لهنري الثالث دوره أثناء تصارع البابوات الأدعياء على العرش البابوي، وكان أكثرهم همة وأعلاهم لشأنها البابا ليو التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤ م) والذي سعى بجدية لتحقيق استقلال البابوية. وسهل له ذلك انشغال هنري الثالث بتسوية المشاكل في ألمانيا وترك له حرية التصرف(٧٢).

بيد أن البابوية شهدت في الفترة التالية حركة إصلاحية جذرية كان غايتها إعادة الموازين لصالح البابوية والكنيسة اللاتينية. وقد عرفت تلك الحركة بـ "الإصلاح الجريجوري"(٧٣). وتبدو تلك الحركة الإصلاحية امتدادًا لحركة الإصلاح الكلوني، أو استلهاما منها، بيد أن ذلك يناقض الحقيقة تمامًا، فقد ثار الجريجوريون ضد توازن العصور الوسطي وبالتالي ضد كثير مما يمثله الكلونيين(٧٤).

ومنذ البداية تعاطف معها إلى حد بعيد هنري الثاني (١٠٠٢ - ١٠٢٤)، وأيضًا كونراد الثاني (١٠٢٤ - ١٠٣٩) الذي كان يحبذ انتشارها في مملكته وساندها هنري الثالث. للمزيد أنظر: كانتور: المرجع السابق، ق ١ وص ٣٧١.

(٦٩) للمزيد من التفاصيل حو البرنامج الكلوني انظر: كانتور: المرجع السابق، ق١، ص٢٦٩-٢٧٠. Walker, Op.Cit., p.236, Painter, Op.Cit.p.129.

(70) Barraclough, Op.Cit., p.70.

(71) Painter. ‹Op.Cit. ‹p.130.

(٧٢) السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١)، دار النهضة، القاهرة ١٩٦٥، ص٧٥٨.

(٧٣) عن تلك الحركة انظر:
كانتور: التاريخ الوسيط، ق٢، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، القاهرة دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٦، ص٣٤٢ - ٣٧٤.

(٧٤) تناول كثير من المؤرخين حركة الإصلاح الجريجوري على أنها امتداد أو استلهام من الحركة الكلونية،

وكان على الجريجوريين أن يعملوا في مواجهة خطر فقدان الكنيسة لهويتها وزعامتها للمجتمع الغربي نتيجة التداخل بين الكنيسة والعالم من ناحية ونتيجة لانتشار مشاعر التدين بين العلمانيين من ناحية أخرى[٧٥]. ووجدت الكنيسة الحل لبقاء زعامتها وسيطرتها من خلال تدعيم القيم الأخلاقية وزيادة مشاعر التقوى بين الرهبان، وقد قدمت الديرية الجديدة رجالا احتلوا مكان الصدارة في البلاط البابوي وعملوا على إصلاح الكنيسة والعالم وتكمن قيمة ذلك الإصلاح في ثورته على كافة الأوضاع[٧٦].

وقد تشرب جريجوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٥٨م) كافة الأفكار الثورية التي انتشرت في أيامه وعمل على صياغتها في برنامج شامل حاول فرضه لدى اعتلائه العرش البابوي.

وقد عرف ذلك البرنامج من خلال وثيقة الإملاء البابوي Dictatus Papae[٧٧]. لقد أكد البابا في وثيقة الإملاء البابوي على سلطة البابوية، فالبابا صاحب السلطة العليا، وله وحده حق عزل أو إعادة الأساقفة لوظائفهم، أو نقلهم إلى أسقفيات أخرى، ولا يمكن أن يكون ثمة مجلس كنسي شرعي دون موافقة البابا، وأن البلاط البابوي هو أعلي محكمة في العالم ...إلي آخر تلك الفروض والتي تؤكد سلطة البابوية إلا أن أهم نقاط ذلك الإملاء ما تعلق بالعلاقة بين الدول والبابوية.

فقد أكد الإملاء البابوي على أن من حق البابا الاحتفاظ بشارات الإمبراطورية، وأن من حقه أيضًا عزل الأباطرة، بالإضافة إلى حق الرعايا التقدم باتهاماتهم ضد حكامهم إلى المحكمة البابوية[٧٨].

وأن جريجوري قام بهذه الإصلاحات بسبب تشربه العميق بالأفكار الكلونية، انظر:

Thorindik, Op.Cit., pp.285-286, Tout, Op.Cit., p.99., Keen. Murice, AHistory of Medieval Europe, London 1967, pp. 55-60.

إلا أن ما قام به جريجوري السابع يعد ثورة شاملة ضد كل الأوضاع الموجودة والرموز التي يمثلها الكلونيون، انظر: كانتور: المرجع السابق، ق٢، القاهرة ١٩٨٦ ص٢٣٩.

(٧٥) كانتور: المرجع السابق، ق٢، ص٣٤٠ - ٣٤١.

(٧٦) نفسه، ص٣٤١

(٧٧) عن نص الإملاء البابوي أنظر: قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية نصوص ووثائق، الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥ - ١٠٩٩م). القاهرة ١٩٨٥، ص ٥٠ - ٥٢، اسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص٤٤ - ٤٥، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٧٠٤ - ٧٠٥.

(٧٨) كانتور: المرجع السابقة، ق٢، ص٣٥٢ - ٣٥٣.

ولقد أثارت النقاط الخاصة بالعلاقة بين الدول والبابوية إن لم يكن كتاب الإملاء البابوي كله غضب ملوك غرب أوربا، ومرجع ذلك إلى ما يدعيه جريجوري من تفوق وسمو البابوية على الملكية. لقد كان ذلك الإملاء البابوي صدمة لزعامتهم في المجتمع وسلطتهم في الكنائس(٧٩).

وتتضح نظرة جريجوري السابع تجاه سلطة الحكام العلمانيين بجلاء من خلال مراسلاته إلى ملوك غرب أوربا، وأمراء الشرق، وهي دليل طيب لما كان يخطط له جريجوري السابع من سلطان عالمي للبابوية(٨٠).

ومهما يكن من أمر، فقد كان على جريجوري السابع أن يبدأ تطبيق برنامجه، وكان الرجل على قدر كبير من الشجاعة عندما تحدى سلطة الإمبراطور الألماني في سنة ١٠٧٥م، والذي يعد أقوى حكام أوربا في ذلك الوقت. ولم يتورع عن أن يطلب من الملك الألماني وقف نظام التقليد العلماني في مملكته.

بدأ الخلاف بين الرجلين بينما كانت أسقفية ميلانو شاغرة، وكل من الإمبراطور والبابا يعتزم تعيين أسقفا لها من قبله، وعمل كل منهما على ضمان فوز مرشحه لمنصب الأسقفية، وزاد الخلاف اشتعالاً بتوجيه جريجوري إنذار إلى الإمبراطور هنري في ١٠٧٥م يعلن فيه إنه لن يكتفي بحرمانه بل سيقوم بعزله(٨١).

ويبدو أن هنري الرابع وجد في تأييد رجال الكنيسة الألمانية له فرصة للتصدي بقوة لمطالب جريجوري السابع. وكان رجال الكنيسة الألمانية رافضين لبرنامج جريجوري لما قد يترتب على تنفيذه من تغيير لنظام العلاقات السائد بين الكنيسة والدولة في ألمانيا(٨٢).

سارع العلماء الكنسيون بإعداد خطاب تم إرساله باسم الملك إلى البابا وفيه تمت مهاجمة جريجوري بأقذع عبارات السباب(٨٣). وقد يبدو أن إدراك هنري الرابع

---

(٧٩) نفسه، ص٣٥٤.

(٨٠) اسحق عبيد: المرجع السابق، ص٤٢ - ٤٤، وعن مراسلات جريجوري السابع لأمراء وملوك أوربا والشرق انظر:

Thatcher, Op. Cit., pp139-145.

(81) Letter of Gregory VII to Henry IV, December1075, In Thatcker, Op.Cit., p.145-151.

(٨٢) كانتور: المرجع السابق، ق٢، ص٢٦٣.

(٨٣) عقد هنري مجمعا في مدينة وورمس في ٢٤ يناير سنة ١٠٧٦م، ووقع الأساقفة المجتمعون قرارًا

لحرج موقفه وموقف الملكية كلها كان دافعه للتصدي لذلك البابا بكل قوة، وإن أي تهاون قد يقلب الموازين لصالح البابوية، ويري كانتور أن خطاب هنري الرابع كان صرخة يائسة من جانب ملكية العصور الوسطي لتبرير كيانها(٨٤).

رد جريجوري السابع على خطاب هنري الرابع بإجراء سريع وحاسم، فبادر بخلع هنري، وعمل على تأليب العناصر المناوئة ضده الأمر الذي كان له خطورته خاصة وأن رجال الكنيسة الألمانية تخلو عنه بدافع الخوف، مما أفقده مساندة عسكرية ضخمة كانت تقدمها له الكنيسة. وبدا القرار البابوي بخلع هنري ذا أثر مباشر في انهيار السلطة الملكية بشكل مروع(٨٥).

لقد خاض هنري الرابع صراعه مع البابوية بكل ضراوة، بيد أن قرار الحرمان كان له أثره كسلاح فعال مع الأخذ في الاعتبار أن هنري كان يواجه أوضاعًا داخلية مضطربة(٨٦).

وكان عليه أن يجد مخرجًا للأزمة التي نتجت عن صراعه مع البابوية، وأشار عليه رجال كنيسته باللجوء إلى البابا لطلب الغفران حتى لا تزداد الأمور تأزما ويتعرض لفقدان عرشه. وبالفعل ذهب إلى قلعة كانوسا بإيطاليا حيث كان البابا في ضيافة الكونتيسة ماتيلدا، أميرة توسكانيا(٨٧).

بخلع جريجوري السابع عن عرش البابوية وتم إجبار جريجوري السابع بقرارات المجمع في رسالتين إحداهما من هنري الرابع والثانية من رجال الكنيسة. انظر:

The Desposition of Gregory VII by Henry IV, January 1076, in Thatcher and Mc Neal, Op.Cit., pp.151-152, Letter of the Bishops to Gregory VII January 24, 1076 in Thatcher and Mc Neal, Op.Cit., pp. 153-155.

انظر: خطاب مجمع وورمس: قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، ص ٥- ٣.

Tout, Op.Cit ., p.130, Barraclough, Op.Cit., p.80.

(٨٤) كانتور: المرجع السابق، ق ٢ وص ٢٦٤.

(٨٥) أنظر:

"Tout, Op.Cit., p.130, Barraclough, Op.Cit, p.80.

كانتور: المرجع السابق، ق٢، ص٣٦٥.

(٨٦) عن تلك الأوضاع أنظر:

Walter, Op.Cit., p.161, Barraclough, Op.Cit., p.82., Painter, Op.Cit., 134., Baldwin, Op.Cit, p.40.

(87) Keen, Op.Cit., p.60, Deansly, Op.Cit., p.81, Baldwin, Op.Cit., p.40.

كانتور: المرجع السابق، ق٢، ص٣٦٦. كانت ماتيلدا "ابنة القديس بطرس" كما تحب أن تدعي أعظم أميرة في الغرب اللاتينية مساندة وداعمة للبابوية وقد جلبت إلى بلاطها العديد من رجال الدين والعلماء المتميزين،

وقد كان جريجوري السابع بما عرف عنه من صلابة لا يرغب في العفو عن هنري الرابع في لحظة بدت فيها طموحاته تتحقق على أرض الواقع وبدا فيها سلطان البابوية في قمته. وبالفعل تردد في العفو عن هنري الأمر الذي أبقي الإمبراطور ينتظر ثلاثة أيام ليحصل عليه نتيجة تدخل الكونتيسة ماتيلدا وهيو رئيس دير كلوني(٨٨).

لقد كانت أحداث كانوسا قمة الصراع المرير بين البابوية والملكية في العصور الوسطي، ومحاولة من البابوية لتحدي سلطة الملكية وقلب الموازين لصالحها. فقد كان لكانوسا أكثر من دلالة، إن تسليم الملك الألماني أمام البابوية وطلبه الغفران بدا وكأنه إعلان بسمو سلطان البابوية بيد أن ما قام به الملك كان تسليما ظاهريا للحفاظ على عرشه، كما أن قيام جريجوري السابع بمنح هنري الغفران كان عملاً اضطراريًا فلا يجوز لرجل دين أن يتردد في أن يحل مخطئ نادم(٨٩).

ومهما يكن من أمر، فإن كلا من الرجلين أراد أن يبدو في صورة المنتصر، فقد أرسل البابا إلى الأمراء الألمان خطابا يخبرهم بانتصاره وبقسم هنري بأن يكون خادما مخلصا للبابوية(٩٠).

في الوقت الذي عاد هنري إلى مملكته في صورة من أنقذ عرشه.(٩١) ويدل ما قام به هنري بعد أقل من عام على أنه لم يكن مخلصًا في موقفه من البابوية. فقد قام بعزل جريجوري السابع وتعيين أسقف رافنا باسم كلمنت الثالث، وبرغم معاونة النورمان لجريجوري فإنه مات في منفاه الاختياري سنة ١٠٨٥م بعيدا عن روما(٩٢).

أنظر كذلك:

Thomas Asbridge, The First crusade, p.28.

(٨٨) كانتور: المرجع السابق، ق٢، ص٣٦٦.

(٨٩) كانتور: المرجع السابق، ق٢، ص٣٦٧.، Balwin، Op.Cit. p.41

(٩٠) ذكر جريجوري في رسالته إلى الأمراء الألمان" وأخيرا تغلبت علينا مظاهر التوبة التي أبداها هنري وإلحاح الحاضرين فحررناه من قيود عقوبة الحرمان وتقبلناه في رحمة الكنيسة الأم المقدسة وقبلنا منه الضمانات الواردة أدناه وشهد عليه مقدم دير كلوني بتوقيعه كما شهدت أيضًا ابنتنا الكونتيسة ماتيلدا، وابنتنا الكونتيسة أوديلا وغيرها من الأمراء والأساقفة والعلمانيين الذين كانوا في خدمتنا". أنظر نص الرسالة خطاب من جريجوري السابع إلى الأمراء الألمان، نشر قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية، ص٥٥-٥٦.

(٩١) كانتور: المرجع السابق، ق ٢، ص٣٦٧.

(٩٢) راسل: المرجع السابق، ص٢٨٠، Painter، Op.Cit.، p 135

أيًا ما كان مصير البابا جريجوري السابع، فقد أمكنه إقرار العدل الذي كان ينشده والمتمثل في الإصلاح، وإذا كانت غايته النهائية تأكيد نفوذ وسمو البابوية وسلطانها قد قادته إلى صراع مرير مع الإمبراطورية المقدسة، فإن تلك الغاية كانت مطمعا لمن خلفه من البابوات وإن اختلفت وسائلهم في تحقيقها.

وقد تمكن البابا إربان الثاني (١٠٨٨- ١٠٩٩م) - دون أن يصطدم بالإمبراطور- من توحيد أوربا خلفه في فترة من الزمن بدت خلالها البابوية وقد امتلكت زمام السلطتين الروحية والزمنية من خلال الدعوة إلى الحرب الصليبية. وقد اصطدمت البابوية في محاولتها تأكيد نفوذها وسموها مع الحقوق التاريخية لبيزنطة. لقد كانت البابوية ترى ضرورة امتداد سلطانها على الغرب والشرق معًا. وكان ذلك المطلب البابوي في السيطرة على جسد الكنيسة العالمية يمثل تهديدًا لبطريركية بيزنطة.

ونظرت روما إلى بيزنطة على أنها كنيسة منشقة ومنحرفة الأمر الذي انعكس بدوره على العلاقات بين الجانبين. وقد وصلت العلاقات بين الطرفين إلى حد القطيعة كما حدث في القرن التاسع فيما عُرف بـ "قطيعة فوتيوس"، وهي القطيعة التي نجمت بسبب رفض البابا نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧م) الاعتراف بفوتيوس بطريرك شرعي لبيزنطة[٩٣].

كما حدثت قطيعة أخرى بين البابوية وكنيسة بيزنطة سنة ١٠٥٤م، وعرفت بـ "قطيعة كريولاريوس"[٩٤] نسبة إلى بطريرك القسطنطينية. وكان وراء تلك القطيعة الموقف الهجومي المتجدد للبابوية، ذلك الموقف الذي استدعي إعادة النظر في

(٩٣) للمزيد من التفاصيل حول أسباب وأحداث ونتائج تلك القطيعة، انظر:

Forttescue, The Uniate Eastern Churches., pp. 80-85., Deansly, Op.Cit., pp77-78., Dvornik F., Costantinople and Rome., p. 451., Zernov. Nicolas, History of Religion Eastern Christendom, London1961, pp.92-94.

اسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص٧- ٨، زينب عبد المجيد: المرجع السابق، ص١٠٢.

(٩٤) عن تلك القطيعة انظر:

Deansely, Op.Cit., pp.78-89, Baldwin, M.Church., p.99, Fortescue, The Uniate, pp85-92, Zernov, Op.Cit, p.99.

أيضًا: السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٧٥٦.

العلاقات بين الجانبين خاصة مع عودة المزاعم المتعارضة بين البابا والإمبراطور البيزنطي إلى سطح الأحداث.

وقد كان هيومبرت من سلفا كانديدا - المبعوث البابوي إلى بيزنطة - قد سلك هناك مسلكًا متشددًا مما صعد الأمور الخلافية إلى حافة القطيعة، فقد قام الرجل وأمام أهل القسطنطينية - المحتفلين في كنيسة آيا صوفيا - بحرمان بطريركهم، ويري كانتور أن ذلك العمل كان بمثابة إعلان رسمي للانقسام الذي أخذ يتطور عبر القرون رغم محاولات الوفاق إلا أن ذلك الانقسام لم ينته حتى يومنا هذا[٩٥].

(٩٥) كانتور: المرجع السابق، ق٢و ص٣٤٨.

الفصل الثاني

الكنيسة اللاتينية والحركة الصليبية

- الحروب الإقطاعية.
- حركة السلام: سلام الرب ـ هدنة الرب.
- عسكرة المسيحية.
- حركة الاسترداد.
- الكنيسة وأوضاع الشرق المسيحي.
- الدعوة إلى الحرب الصليبية.
- دور الكنيسة في الدعوة والإعداد.
- الزعامة الدينية الأسباب والنتائج.

الفصل الثاني
الكنيسة اللاتينية والحركة الصليبية

شهدت نهاية القرن الحادي عشر ظاهرة تاريخية فريدة استمرت تشغل مدى زمنيًا كبيرًا، ودارت أحداثها فوق ميدان امتد من الغرب الأوربي وحتى الشرق الإسلامي، ومضت في التاريخ باسم الحروب أو الحركة الصليبية. وكانت تلك الحركة ذات ارتباط لصيق بالكنيسة الغربية وبالبابوية رأس تلك الكنيسة. وكان الدور الذي لعبته الكنيسة الغربية في دفع تلك الحركة إلى أرض الواقع كبيرًا. فقد تعهدت الكنيسة الغربية الحركة الصليبية برعايتها وعنايتها طيلة مراحلها(٩٦).

ويبدو أن الكنيسة الغربية وجدت في تلك الحركة فرصتها الذهبية في التخلص من السادة الإقطاعيين ومضايقاتهم لها، والتخلص من حروبهم الإقطاعية التي كانت تمزق أوصال الغرب الأوربي. تلك الحروب التي بدأت نتيجة الحاجة إلى الأرض وتزايدت بتزايد من لا أرض لهم من النبلاء الذين كان عليهم أن يبحثوا لهم عن أرض جديدة(٩٧). وقد نتج عن تلك الحروب المتعددة الناجمة عن حالة الجوع إلى الأرض. والتي تفاقمت خلال القرنين العاشر والحادي عشر انهيارًا تامًا للأوضاع الأمنية في كل أنحاء غرب أوربا(٩٨).

وكانت حالة الجوع إلى الأرض أبرز ما تكون في فرنسا. ويرجع ذلك إلى شكل ونمط الحياة الإقطاعية هناك، فقد كان حق وراثة الإقطاع قاصرًا على الابن الأكبر فقط ضمانًا لعدم تفتت الملكية الزراعية في الأسرة بالقدر الذي يضعف من قوتها وسلطانها القائم على ملكية الأرض(٩٩).

وكان طبيعيًا أن تكون الحروب الإقطاعية والتطاحن من أجل المزيد من الإقطاعيات بين السادة الإقطاعيين أوضح ما تكون في فرنسا، وأن تقوم

---

(٩٦) جوزيف يوسف نسيم: العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٧، ص٥٧.

(97) Hulme, Op. Cit., p.472.

(98) Ibid.

(٩٩) قاسم عبده قاسم: الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، مج ٢. تحرير: قاسم عبده قاسم، رأفت عبد الحميد، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٣، ص (١٨٩-٢٣٣)، ص٢١٠.

المحاولات لوقف تلك الحروب الإقطاعية في فرنسا ذاتها. وكان حريًا أن تكون تلك المحاولات من جانب الكنيسة، لما لها من نفوذ وتأثير على فكر ومشاعر الرجال في تلك الفترة(١٠٠).

وبالفعل بدأت الكنيسة دعوتها إلى السلام بوضع قواعد للأمن، وذلك انطلاقًا من إيمانها بمساوئ الحرب الإقطاعية وضرورة الحد منها لحماية الأبرياء العزل المنتجين في مواجهة صراعات السادة الإقطاعيين. لقد هدفت الكنيسة من وراء تلك الدعوة حماية غير المحاربين وأملاكهم، غير أن الهدف الأول كان حماية ممتلكات الكنيسة التي صارت عرضة للسلب والنهب(١٠١).

وكان أول شكل من أشكال محاربة شرور الحرب الإقطاعية هو "سلام الرب". وقد أطلقت الدعوة إلى سلام الرب من قبل مجامع عقدت في وسط وجنوب فرنسا وشهدها إلى جانب رجال الكنيسة السادة العلمانيين.

ومن هناك انتشرت الدعوة إلى سلام الرب عبر أنحاء فرنسا، بينما امتدت في بطء إلى بعض أقاليم أوربا الغربية الأخرى(١٠٢)، ولدينا عدة مجامع كنسية لفرض سلام الرب، ففي سنة ٨٩٨م اجتمع أساقفة أكوتين لذلك الغرض، وقد توصلوا إلى أن واجب الكنيسة هو توفير الأمان لغير المتحاربين ومنع العدوان على المسالمين من التجار والنساء والمزارعين(١٠٣).

لقد كان واضحًا أن الكنيسة تسعى بجدية لفرض السلام وجعل النبلاء يقسمون على عدم الاعتداء على أولئك المسالمين في حروبهم، بالإضافة إلى ممتلكات الكنائس والأديرة ولدينا وثيقة تؤكد ذلك وتنص على العقوبات التي تقوم الكنيسة بتوقيعها على الخارجين على سلام الرب وقد صدرت تلك الوثيقة عن المجتمعين في مجمع شارو بفرنسا سنة ٩٨٩م.

---

(100) Prine, Op. Cit., pp. 152-153.

(١٠١) ارنست باركر: الحروب الصليبية، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، مطبعة البيان العربي، القاهرة ١٩٦٠، ص٧.

Baldwin ‹M.Church ‹p33..

(102) Ault-Warren, Europe in the M. Ages., p.315.

(103) Paul Johnson, A History of Christianity, London, 1980.

وفي تلك الوثيقة نجد أن عقوبة الحرمان من نصيب من يقتحمون الكنائس، ومن يسرقون الفقراء، ومن يسيئون لرجال الكنيسة. ويتبين لنا من تلك الوثيقة أن الكنائس والفقراء ورجال الدين قد تعرضوا لأخطار الهجوم وأعمال السلب والنهب، كذلك يتبين للباحث موقف الكنيسة المتشدد والحازم تجاه الأعمال المذكورة، وذلك بفرضها عقوبة الحرمان على الخارجين على سلام الرب[١٠٤].

والواقع فإن نفس العقوبة فرضت من قبل مجلس بواتييه والذي عقد في سنة ١٠٠٠م بناء على دعوة وليم الكبير دوق جيين. وتقرر في ذلك المجمع أنه لا ينبغي الالتجاء إلى السلاح عند فض المنازعات بل ينبغي الرجوع إلى القضاء وأن كل من لا يوافق على هذه القاعدة ينبغي حرمانه من الكنيسة[١٠٥].

ويبدو أن بعض العلمانيين وقفوا إلى جانب ذلك المجمع، فقد أخذت من قبل مالكي الأرض وعودا للحفاظ على السلام، ويبدو كذلك أن الحاجة كانت ماسة إلى ذلك السلام، فقد وقف الجميع علمانيون ورجال دين يصيحون: "السلام السلام السلام"[١٠٦].

وكان الشكل الثاني من أشكال السلام والذي أطلقته الكنيسة في محاولتها لفرض حركة السلام على الغرب الأوربي هو "هدنة الرب" ولقد لجأت الكنيسة إلى هدنة الرب تلك بعد أن وجدت صعوبة في منع الحروب الإقطاعية تماما، لذلك عملت على تحديد نطاق تلك الحروب من خلال هدنة أو وقف للقتال في أيام محددة سواء نهاية الأسبوع أو الأيام المقدسة، أو فترة الصيام الكبير، وبذلك لا يكون أمام المتحاربين سوي فصل الصيف فقط[١٠٧]. ويبدو أن الكنيسة أرادت بهدنة الرب أن يعتاد الناس على سلطة القانون وتفضيلها على قوة السيف وذلك بفترات التوقف المذكورة[١٠٨].

وقد ظهرت هدنة الرب للمرة الأولى في جنوب فرنسا حوالي سنة ١٠٢٥م، كما وجدت وثيقة تلت ذلك التاريخ تناولت كيفية فرض السلام من خلال هدنة الرب، ففي سنة ١٠٦٣م وبالتعاون بين العلمانيين والكنسيين - كما توضح الوثيقة -

---

(١٠٤) أنظر نص الوثيقة الخاصة بسلام الرب في مجمع شارو سنة ٩٨٩م: قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية نصوص ووثائق الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٥م، ص٦٦.

(١٠٥) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١ وص١٢٨.

(106) Johnson, Op. Cit., p.242.

(١٠٧) قاسم عبده قاسم: عالم الصليبيين، ج١و المقدمة وص ١٤.

(108) Mills-Charles, The History of the Crusades, London 1892, VOL.I, p.31.

تم وضع شروط لفرض هدنة الرب في أنحاء تيروان، وهي شروط حازمة تؤكد في كل نقطة من نقاطها على معاقبة الخارج عليها بعقوبات منها الحرمان من رحمة الكنيسة(١٠٩).

وعلي الرغم من جهود الكنيسة في إقرار السلام فإن نصيبها من النجاح كان ضئيلا، فالأمراء الذين أمعنوا في الدفاع عن السلام لم يلتزموا بشروطه. ويبدو أن أحدا من السادة الإقطاعيين لم يأخذ حركة السلام مأخذا جديا ما لم تكن له من ورائها مصلحة ذاتية(١١٠).

وقد تعين على الكنيسة أن تبذل جهدا أكبر لفرض السلام، واضطرت إلى اللجوء إلى العنف لتحقيق السلام، وقامت بتكوين قوة كنسية من رجال الكنيسة في كل من فرنسا وألمانيا سميت باسم قوة السلام. وكانت مهمة تلك القوة الضرب على أيدي الخارجين على هدنة وسلام الرب، والعمل على إقرار النظام، ورغم خروج قوة السلام عن حدود المهام المنوطة بها، فإن ما ترمز إليه تلك المحاولة من جانب الكنيسة يبقي أمرًا يحتاج إلى فهم دلالته. لقد كانت تلك الخطوة من جانب الكنيسة في فرض السلام بالقوة خطوة هامة نحو عسكرة المسيحية.

وهي أيضًا إرهاص لدورها الكبير في الدعوة إلى الحروب الصليبية، ودفع الحركة إلى حيز الوجود، واستخدامها أداة في خدمة سياستها الداخلية والخارجية على السواء(١١١). ويبدو أن ذلك العمل المسلح من جانب الكنيسة جعلها تفكر في علاج جديد لمشكلة الحرب الإقطاعية، لقد وجدت الكنيسة في غمار محاولتها العنيفة لفرض السلام أنه بدلا من قمع وإخماد غريزة المقاتلة والميل إلى القتال لدى السادة الإقطاعيين أن تبقي على تلك الغريزة وذلك الميل.

لقد وجدت الكنيسة رغم جهودها في فرض السلام أن النظام الإقطاعي لن يتقبل محاولتها لفرض السلام، لأن الوظيفة الرئيسية لأفراده هي القتال والمعركة هي قمة

---

(١٠٩) للمزيد من التفاصيل حول الهدنة الرب - أسقفية تيروان انظر: قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية نصوص ووثائق، ص ٦٧.

(110) Cowdery, The Genesis of the Crusades, in The Holy War, (ed.) by Patrick Murphy, U.S.A. 1974 (pp; 9 - 33).

أيضًا: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٣١.، كانتور:المرجع السابق، ق١، ص٣٤٢.

(١١١) قاسم عبده قاسم: عالم الصليبيين، المقدمة، ص١٤.

حيـاة الفـارس، ويعـد فـرض السـلام كارثـة وقبولـه إنكـار لجـوهر وأسـاس النظـام الإقطاعي ووجوده[١١٢].

وكان طبيعيًا أن تسلم الكنيسة بذلك وأن تبقي على غريزة المقاتلة والميل إلى القتال، وأن تعمل على توظيفها بشرط أن تكون الحرب من أجل سبب عادل مثل الوقوف إلى جانب الضعيف ضد القوي. ويرى براور أن اقتناع الفارس بذلك يعد تحولاً ثوريًا، لقد أصبحت أعمال القتل والسفك وإراقة الدماء أمرًا مستهجنًا، وبذلك الاتفاق بين الكنيسة الغربية والفارس الإقطاعي صار مفسدو الأمس حراس المجتمع. لقد حدث تحول جوهري في وظيفة الطبقة المحاربة، وأصبح استخدام السلاح يتم من أجل قضية عادلة ولتحقيق العدالة[١١٣].

ولقد أدى ذلك التحول في موقف الكنيسة الغربية وطبقة الفرسان إلى ظهور الفارس الذي يجمع ما بين تعاليم المسيحية وأخلاقياتها - حسب قول براور - وتقاليد الجرمان الحربية وذلك خلال القرن الحادي عشر الميلادي. ويعني ذلك ظهور الفارس المسيحي Miles Christians[١١٤]، لقد ظهر فارس له مهام جديدة تباركها الكنيسة ولا تتعارض مع مبادئ المسيحية.

ولم يتوقف تدخل الكنيسة في حياة الفارس الإقطاعي عند ذلك الحد بل أخذت تتدخل في أعظم حدث في حياته، وهو حدث تنصيبه فارسًا. فقد عمدت الكنيسة إلى جعل الفارس أكثر ارتباطًا بالمسيحية، وذلك من خلال تدخلها في إجراءات التنصيب التي تجرى للشاب ليصبح ضمن زمرة الفرسان[١١٥].

ولقد كانت تلك الأعمال من جانب الكنيسة في واقع الأمر لفرض وإقرار السلم في المجتمع الإقطاعي. لقد كانت محاولة صبغ العلاقات الإقطاعية بصبغة المثالية المسيحية المتمثلة في استخدام السلاح لتحقيق العدالة محاولة لتكريس فارس يؤمن بقضايا المسيحية والدفاع عن حدودها والذود عن أطرافها.

(١١٢) ارنست باركر: الحروب الصليبية، ص٨، قاسم عبده قاسم الدوافع الاجتماعية ص١١١، ١١٢، ١١٣.

(١١٣) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص١٧٣.

(١١٤) نفسه ١٧٢.

(١١٥) حول تلك الإجراءات والطقوس أنظر للمزيد من التفاصيل: يوشع براور: المرجع السابق، ص١٧٩-١٨١، فيشر: المرجع السابق، ج١، ص١٨١.S. Painter، Op.Cit.p.112..

وبالفعل فإننا نجد فرسان وأمراء فرنسا يتجهون إلى أسبانيا للقيام بدور في حركة الاسترداد الدائرة هناك منذ بداية القرن العاشر[١١٦]. ولا يعني ذلك اقتصار المساهمة على فرسان فرنسا في الحملة الاستردادية، فقد شارك كذلك فيها فرسان من غرب أوربا، بيد أن الباع الأكبر كان للفرنسيين ومن بين أولئك كان ريموند الصنجيلي الذي كان له دور كبير في الحرب الصليبية الأولى فيما بعد[١١٧].

ويمكن تفسير تلك المساهمة من جانب النبلاء والفرسان في ضوء عدة أسباب منها جهود دير كلوني في دفع أولئك الفرسان إلى المشاركة في الحرب الأسبانية، بل أن كلوني كان أول من شجع مسيحي الغرب على القتال ضد العرب في أسبانيا وغيرها من المناطق التي كانت بيد العرب في جنوبي البحر المتوسط[١١٨].

وكانت حالة الجوع إلى الأرض السائدة في فرنسا من بين تلك الأسباب، خاصةً وأنه كان من حق الفرسان المسيحيين المشاركين في الحرب الأسبانية الفوز بالأرض التي يستولون عليها من المسلمين طبقًا لما أعلنه جريجوري السابع[١١٩].

لقد كانت الكنيسة وراء حركة الاسترداد الدائرة على الأرض الأسبانية، ودفعت بالنبلاء والفرسان للمشاركة في تلك الحركة، وفي الوقت الذي وضعت حافزًا أمام المشاركين من الفرسان، أخذت ترقب عن كثب ما يدور هناك على الأرض الأيبرية، بل وتشارك فيه بشكل غير مباشر[١٢٠].

---

(١١٦) أطلق على الحرب الدائرة بين السكان المسيحيين والمسلمين على أرض الأندلس حركة استرداد Reconquita، ويفسر براور ذلك بأن ما جرى كان استرداد للأرض التي فقدت في وقت سابق بعد أن قضي المسلمون على مملكة القوط الغربية. أنظر: يوشع براور: عالم الصليبيين، ص٣٤.

(١١٧) للمزيد عن دور ريموند الصنجيلي في الحرب الاسبانية انظر:

Cowdery, Op. Cit., p.25., Boase, Kingdom and Strong Holds of the Crusades, London1971, p.13.

(١١٨) جوزيف يوسف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص٥٧.

Myer, Hans e., The Crusades, trans. By John Gillingham, Oxford1972, p.20.

(١١٩) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ص٣٧.

(١٢٠) لقد كان للكنيسة الغربية دورها الكبير في حركة الاسترداد، بل أن رأس الكنيسة والمتمثل في البابوية أخذت تحث الفرسان على المشاركة في تلك الحرب، وقامت بحفزهم وذلك بمنح المشاركين فيها حق التمتع بالأرض التي يستولون عليها من المسلمين. وكان الغفران مكافأة تنتظر من يقتل وهو يحارب المسلمين هناك. فقد وعد البابا اسكندر الثاني (١٠٦١-١٠٧٢م) ببذل الغفران لكل من قاتل من أجل الصليب في أسبانيا، بل أنه شرع في تأليف جيش لمواصلة عمل راميرة الأول ملك أرجون

وحاولت الكنيسة اللاتينية استخلاص نتائج تلك التجربة في الذود عن طرف من أطراف المسيحية، وأيضًا تطبيقه في ميدان آخر، وكان الميدان في تلك المرة أرض الشرق.

كانت الأوضاع في الشرق بالنسبة للدولة البيزنطية سيئة، فقد كانت تعاني من هجمات الغزاة من كل جانب، وصارت الأوضاع أكثر سوءًا مع سنة ١٠٧١م، ففي ذلك العام قام الزعيم النورماني روبرت جويسكارد بالاستيلاء على باري آخر المعاقل البيزنطية في الجنوب الإيطالي وبذلك أصبح مصدر خطر للإمبراطورية، بل صار بالفعل كذلك عندما أخذ يخطط للاستيلاء على بيزنطة[١٢١].

وفي نفس العام في السادس والعشرين من أغسطس وفي جانب آخر من الإمبراطورية وشمال بحيرة فان Lake Van بالقرب من مانزكرت أمكن للقائد السلجوقي ألب أرسلان سحق قوة بيزنطية كبيرة وأسر قائدها الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنيس (١٠٧١-١٠٧٩م) وهو أول إمبراطور يقع في الأسر الإسلامي[١٢٢].

ودفعت تلك الأوضاع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (١٠٧١- ١٠٧٩) إلى طلب العون من البابا جريجوري السابع، الذي وجد في مطلب الإمبراطور فرصة طيبة يؤكد فيها سلطان روما من جديد على كنيسة بيزنطة خاصة، وأن عقدين من الزمان مرا على نكران الكنيسة اليونانية لسلطة البابا فيما عرف بقطيعة كريولاريوس.

والذي مات في جرادوس على يد أحد المسلمين.

للمزيد أنظر: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص١٣٦، كذلك فإن البابا جريجوري السابع دعا أمراء العالم المسيحي لمساعدة أسبانيا في إطار كونهم جند يشرفون بعملهم القديس بطرس. انظر:

Gregory VII, Letter TO Princes Wishing to Reconquer Spain, 1073, In Thatcher, Op.Cit., p.142.

(١٢١) أخذ جويسكارد بعد الاستيلاء على باري في ١٦ أبريل سنة ١٠٧١م يخطط للاستيلاء على بيزنطة. لمزيد من التفاصيل انظر: اسحق عبيد: روما وبيزنطة. ث ٤٨، ٤٩.

Boase T .S.R ., Kingdoms and Strong holds of the Crusaders, London1971, p.9, Runciman, Eastern Schism., p.57.

ولمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين بيزنطة والنورمان في تلك الفترة أنظر:

Charanis Peter, The West and the Origin of the first Crusade, IN Byzantium VIX, 1948-49, p. 16-20.

(122) Boase, Op. Cit., p.9., Charanise, Op. Cit., p 17.

ورأى جريجوري السابع أن مساعدة بيزنطة قد تسهم في القضاء على الانشقاق[١٢٣]، خاصةً وأن ميخائيل السابع بما عرف عنه من ذكاء، كان قد لوح برد الجميل للبابوية والعمل على إعادة العلاقات بين الكنيستين وإزالة ما بينهما من خلاف[١٢٤].

وقد بدأ جريجوري السابع العمل بالفعل، فنجده يقوم بتوجيه نداءات عامه إلى كل فرسان الغرب الأوربي في سنة ١٠٧٤م يدعو فيها لمساندة الإمبراطورية البيزنطية قائلا :" أن علينا أن نقدم حياتنا لتحريرهم، وأنه (أي المسيح) قدم حياته لخلاصنا، فينبغي أن نقدم حياتنا لأجل إخواننا[١٢٥]".

وكان جريجوري السابع بتلك الدعوة يكرس طبقة الفرسان في خدمة المسيح. لقد أعطى جريجوري اهتمامه الأكبر لتلك الطبقة بالفعل، وحاول كسبهم جميعًا للحرب في خدمة الكنيسة، وقد استخدم في ذلك الصدد المفهوم القديم لجندي المسيح Militia Christi، وذلك بقصد أن تخدم سيوف أولئك الفرسان كما - أراد إقناعهم - في خدمة المسيح والقديس بطرس وأن يحققوا - وفق تصوره - مسيحيتهم بمثل هذا العمل[١٢٦]. لقد أراد جريجوري السابع أن يصبغ الفرسان بصبغة المثالية، واستطاع بالفعل أن يطور نظام الفروسية من خلال ما طرحه من مفاهيم حول أهمية خدمة الكنيسة، والعمل في خدمة المسيح، والقديس بطرس، وأن يوجد نمطًا جديدًا من الفرسان[١٢٧].

وأخذ جريجوري يعد لحملة تقدم العون لبيزنطة، وتخيل جريجوري السابع نفسه قائدا لجموع الفرسان الغربيين. وقد حاول الوصول إلى تفاهم مع الإمبراطور الألماني هنري الرابع، وطلب منه في سذاجة بالغة تعهد مصالح الكنيسة في

---

(١٢٣) اسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص٤٩.
Runciman, Op. Cit., p.5., Hayward.f., A history of the Popes., p.167.
(١٢٤) زينب عبد المجيد عبد القوي: العلاقات الدينية والسياسية، ص٧٧.
(125) Gregory VII, Calls for Crusade, 1047 in Thatcher, Op. Cit., p. 513. also in A.L.O. tom I, Paris 1881, 58.
(126) Cowdrey, Op. Cit., p.22.
(127) Mayer, Op. Cit., P.20.

غيبته[١٢٨]. ولم تخرج تلك الحملة إلى حيز الوجود بسبب ما نشب من صراع بين جريجوري السابع والإمبراطور الألماني هنري الرابع ذلك الصراع الذي استغرق جريجوري السابع كلية.

ومهما يكن من أمر؛ فقد كان لتلك الحملة المزعومة آثارها البعيدة على الكنيسة الغربية والفرسان الغربيين في نفس الوقت. فعلي الرغم من أن الحملة لم تر النور إلا أن ما قام به جريجوري السابع من خطوات وجهود في ميدان عسكرة المسيحية، مهد الطريق أمام دعوة توجهها الكنيسة الغربية لفرسان الغرب "فرسان المسيح" من أجل قضية عادلة - كما حاول اربان الثاني رأس الكنيسة أن يصورها.

كان إربان الثاني يتابع ما يجري في شبه الجزيرة الايبرية - مثلما فعل جريجوري السابع - وتطلع إلى نقل ما يدور على أرض شبه الجزيرة إلى ميدان آخر مستفيدا من جهود الفرسان الغربيين في تحقيق أهداف الكنيسة الكاثوليكية وسياستها في الداخل والخارج تماما كما حاول جريجوري السابع[١٢٩].

بيد أن إربان الثاني كان أكثر دبلوماسية من سلفه جريجوري، وأدرك أن على البابوية اتخاذ الخطوة الأولى تجاه مصالحة بيزنطة لإصلاح ما أفسده جريجوري. ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول كومنين (١٠٨٠- ١١١٨م) كان يريد أيضًا التقرب من البابوية نتيجة الظروف التي كانت تمر بها إمبراطوريته. وقد قابل البابا في منتصف الطريق بالعمل على خلق ظروف طيبة مع الكنيسة اللاتينية[١٣٠].

---

(128) Gregory VII, A Henri IV, in Dec> 1074, in A.O.L. p.58..

لقد أراد جريجوري السابع قيادة الحملة بنفسه وعقد مجمعا في بيزنطة الأمر الذي أثار استياء البيزنطيين، أنظر:

Runciman, Op.Cit., p.59.

(١٢٩) كان إربان الثاني على علم بما يدور في أسبانيا أثناء وجوده في فرنسا وقبل أن يغادرها للدخول في خدمة البابا جريجوري السابع، وقد كان طبيعيا أن يسبغ عطفه وحمايته على تلك الحرب إبان بابوية، بل قام بمنح المحاربين المسيحيين الغفران

Jonathan Riley Smith, What were the Crusade, New Jersey 1977, p.24..

ويري Boase أن مشروع إربان إنما جاء من تمعنه في أحداث الحرب في أسبانيا

Boase ‹Op.Cit. ‹p.13..

(١٣٠) قام جريجوري السابع بحرمان الكسيوس الأول كومنين، وقد أثر ذلك على الكسيوس وأغضب شعبه. وقد رد الكسيوس على ذلك الإجراء بغلق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية ما عدا كنائس البنادقة حلفائه في حربه ضد النورمان. وكان لجهود إربان الثاني الدبلوماسية أثرها في استجابة الإمبراطور لمطالب إربان وإعادة فتح الكنائس اللاتينية. انظر:

كان الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول يتطلع إلى البابوية والكنيسة الغربية طالبا الاستعانة ببعض المرتزقة من أبناء الغرب لإعادة بناء جيشه، وحدث في سنة ١٠٩٥م، أثناء انعقاد مجمع بياكنزا أن تواجدت سفارة بيزنطية أمام المجتمعين تطلب العون البابوي في الحصول على جند مرتزقة[١٣١].

واستثمر إربان الثاني تلك الفرصة جيدا، فقام بالتخطيط لا لإرسال عون كما طلب الإمبراطور البيزنطي، وإنما لحشد جيش ضخم، وكان يهدف من وراء ذلك العمل تحقيق عدة أهداف، فبالإضافة إلى استعادة الأرض المقدسة من أيدي المسلمين تصور إربان أن الخطة ستؤدي إلى توحيد العالم المسيحي بعد المنازعات المريرة التي سببت انقسامه وزيادة هيبة البابوية قبالة أنصار الإمبراطور الألماني المنتشرين في كل مكان حتى روما نفسها.

أيضًا إنهاء الانشقاق بين الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والكنيسة الغربية الكاثوليكية، أما الهدف الأخير نجم عن محاولة اربان اكتساب تأييد بني جلدته من الفرسان الفرنسيين[١٣٢]. وإذا كان إربان يطمح إلى تحقيق أكثر من غاية من وراء مشروعه الصليبي، فإنه حرص على تهيئة المناخ المناسب لإطلاق الدعوة لمثل ذلك المشروع، كما كانت رغبته في تحقيق أكبر قدر من النجاح وراء إعداده الجيد والمتقن للمشروع الصليبي.

وقد حرص إربان على ربط رجال الكنيسة الغربية والعلمانيين من أمراء الغرب وخاصة أبناء فرنسا بمشروعه الصليبي. وقابل إربان شخصيات عديدة في غرب ووسط فرنسا فيما تلي مجمع بياكنزا وحتى كليرمونت، ومن بين تلك الشخصيات أدهيمار أسقف بوي والأمير ريموند الصنجيلي، وكان لتلك اللقاءات أهميتها حيث

Runciman, Eastern Schism., pp.59-61.

(١٣١) عن مجمع بياكنزا والسفارة البيزنطية أنظر:

Painter, Op. Cit., p.200., Munro Dana.C., " Did the Emperor Alexius ask for aid at the Council of Piacenza?" in A.H.R.XXVII-1922, pp.28-29.., Hayward f., Op.Cit., p.167.

(١٣٢) عن تلك الأهداف انظر: كانتور: التاريخ الوسيط، ق ٢، ص٣٥٩، قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية، ص١١٨، ١١٩.

تدارس إربان خلالها مشروعه، وهيأ له المناخ المناسب، وكان تأييد وعطف من قابلهم إلى جانبه(١٣٣).

وفي إطار رغبته لتحقيق أكبر قدر من النجاح، فإنه سعى سعيًا دءوبًا من أجل حشد أكبر عدد من رجال الدين في مجمع كليرمونت الذي أطلق من خلاله دعوته وبالفعل شهد ذلك المجمع على الأقل ثلاثون رئيس أساقفة واثنان وثمانون أسقفًا وعدد لا يحصى من المقدمين وجمع غفير من الإكليروس(١٣٤).

كما طلب إربان من رؤساء الأسقفيات والأساقفة والقساوسة ومقدمي الأديرة أن يحضروا معهم إلى كليرمونت السادة البارزين في مناطقهم، وهو ما حدث بالفعل فقد حرص رجال الكنيسة على حضور المجمع وفي صحبتهم أمراء من مناطق فرنسا المختلفة، وكذلك من ألمانيا(١٣٥).

ناقش المجمع على مدي ما يزيد عن سبعة أيام أمورًا كنسية تبين رغبة البابا في مواصلة الإصلاح، وفي يوم الخميس السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٥٩م، أعلن البابا عن رغبته في إلقاء عظة خاصة في الهواء الطلق في باحة خارج كليرمونت، وربما قصد من ذلك أن يشهد تلك العظة أكبر عدد ممكن من الذين يودون سماعه(١٣٦).

وفي هذه العظة تحدث إربان الثاني إلى حشد كبير من رجال الكنيسة والعلمانيين الذين لم يشهدوا سوي هذه الجلسة فقط. واستمعوا إلى دعوة إربان الذي عمد إلى التأكيد على قضية الدفاع عن العالم المسيحي، تلك المهمة التي تنتظر فرسان الغرب الأوربي سواء ضد الفساد في الداخل أو المسلمين في الخارج.

وكان من بين الخطوط العريضة لخطاب إربان مدحه فضائل فرسان الفرنجة مطالبا إياهم بضرورة مساعدة الإخوة في الشرق تلبية لنداءات العون من جانبهم أمام

---

(133) Flish. A., La Papute et Les Origines de La Croisade, Rev.Hist. Eccles.XXXIV.1938 (, pp.762-775)p.765.

(134) Christopher Tyerman, Anew History of the Crusades, U.K.2006, p.62.

(١٣٥) حرص إربان على حضور جميع الأساقفة الذين وجه إليهم الدعوة وقد شهد ذلك المجمع عديد من الأساقفة والأمراء من فرنسا وألمانيا.

cf. Robert The Monk, in Thatcher, Op.Cit., p.518.

(136) Tomas Asbridge, The First Crusade, p.32.

التقدم التركي الكاسح، وفي إشارة لأعمال الاسترداد في أسبانيا أعطي انطباعا حول إمكانية نقل مثل تلك التجربة إلى مكان آخر(١٣٧).

تناول إربان في خطابه ما جعل دعوته عملاً مقبولاً ومبررًا. واستقبلت الجموع الغفيرة كلماته بحماسة كبيرة حيث "صاح الجميع في صوت واحد الرب يريدها الرب يريدها(١٣٨)". بيد أن أربان الثاني كان يريد أن تصل دعوته إلى كل أبناء الغرب الأوربي للاستفادة من طاقة الفرسان وقدراتهم، وحرص أن يتم ذلك من خلال رجال الكنيسة فنراه يطالبهم - أساقفة وقساوسة - أن يبلغوا دعوته قائلا: "أعلنوا هذه في كل الكنائس الخاضعة لكم وبشروا بالرحلة إلى أورشليم بكل ما في نفوسكم من حماسة"(١٣٩).

وكان لتعدد وسائل إربان في الدعوة إلى مشروعه أثرها في جذب أكبر عدد من الفرسان والأمراء للمشاركة في الحملة الصليبية الأولي. ومن ضمن تلك الوسائل المراسلات.

قام اربان بإرسال الخطابات إلى الأمراء والأتباع في أنحاء الغرب الأوربي، ومنها رسالة إلى كل المؤمنين في الفلاندرز ويعلم فيها أولئك الراغبين بالمشاركة بيوم بداية الحملة، وهو يوم عيد صعود مريم العذراء (١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦م)(١٤٠). ويجيء اعتماد إربان على رجال الكنيسة الغربية في نشر دعوته كأفضل تلك الوسائل، تم ذلك من خلال عقد العديد من المجامع الدينية المحلية، فقام بالارتحال من مكان إلى آخر، وكان لتلك المجامع الدينية أثرها المباشر في تحقيق انتشار الدعوة إلى الصليبية.

---

(١٣٧) للمزيد من التفاصيل حول الخطوط الأربعة العريضة لخطاب إربان من خلال مقارنة للروايات الأربعة المنسوبة إليه أنظر الدراسة القيمة التي قدمتها:

Munro, The Speech of Pope Urban IIat Clermont, American Hist. Rev.1960, pp-231-242, p.242.

(١٣٨) روبير الراهب: تاريخ الحروب الصليبية، نشر د. قاسم عبده قاسم، ص٧٩.

(١٣٩) بلدريك الدوللي: الحروب الصليبية، نشر د. قاسم عبده قاسم، ص٨٨.

Cf. also, William of Tyre, A History of Deeds done beyond the see, trans. And annotated By Emily Atwater and A.C.Krey, Colombia University Press1943, 2 vol., Vol I, p.92.

(١٤٠) إربان الثاني: خطاب إلى كل المؤمنين في الفلاندرز، نشر د. قاسم عبده قاسم في: الحروب الصليبية، ص٣٠.

وقد يفسر هذا اهتمام إربان الثاني بها وبالإكثار منها، فتراه يعقد مجمعًا في ليموج في نهاية سنة ١٠٩٥م، ويكرر الدعوة في كل من أنجر ومان وتور وبواتييه وتولوز وغيرها من المدن الفرنسية في الفترة من يناير وحتى منتصف يوليه ١٠٩٦م[١٤١].

كان إربان الثاني يعتمد على رجال الكنيسة اللاتينية إلى حد بعيد ولإيمانهم بما ستحققه الحملة الصليبية، فإنهم قاموا بجهود جبارة لمساندة إربان في المجامع الدينية أو عبر أبرشياتهم ودأبوا على ذلك[١٤٢].

وبالفعل نجح رجال الدين في نشر الدعوة نجاحا فاق كل تصور، ووصلت الدعوة إلى كل مكان واخترقت صمت الأديرة ووقار الكاتدرائيات وغطرسة القلاع - على حد قول براور - حتى وصلت إلى الفلاح البائس[١٤٣].

ولعل قصر فترة الدعوة أو بمعني آخر سرعة انتشارها في وقت قليل راجع إلى التنظيم الكنسي الجيد ومستواه الكفء، فلم يستغرق الأمر أمدًا طويلاً، فقد انتشرت الدعوة من خلال ذلك التنظيم إلى أن صارت حديث الناس في كل ركن في غرب أوربا[١٤٤].

وإذا كان ما قام به إربان الثاني ورجال الكنيسة الغربية من دعوة وإعداد للصليبية تم بطريقة منظمة، فعلي العكس من ذلك ما قام به الدعاة المبشرين الذين جابوا البلاد لنشر الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى من أمثال بطرس الناسك[١٤٥]، وروبرت الأربيرسيلي[١٤٦]، ووالتر المفلس[١٤٧].

---

(١٤١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص١٣١.، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص١٦٦.، قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية، ص١٤٢.

(142) *See*: William of Tyre, Op.Cit, , volI, p.93.

(143) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, European Colonialism in Middle Ages, Israel 1972, p.16., Mayer Op.Cit., p. 42.

(١٤٤) انظر، براور: عالم الصليبيين، ص٤٢.

(١٤٥)تعطينا المصادر المعاصرة صورة بطرس الناسك فيذكر جيوبرت أنه كان يرتدي مسوح الرهبان ويجوب أنحاء الريف والمدن بدعوي التبشير، والواقع أنه تمتع بقدرة على الإقناع وكان يحض على الرحيل بأسرع ما يمكن ورغم مظهره الخارجي المزري فقد أفلح أن يكون من أبرز الدعاة وبصفة خاصة في وادي الراين ووسط فرنسا. انظر: جيوبرت النوجنتي، فوشيه الشارتري، وليم الصوري: نشر قاسم عبده قاسم:

فقد نصبوا من أنفسهم دعاة، وأخذوا يبشرون بالصليبية في كل موضع من غرب أوربا، غير أن عملهم كان فوضويا، ودون إعداد أو ترتيب.

وتجمع وراء أولئك الدعاة جموع العامة الذين كانوا مقدمة سيئة للحملة الصليبية الأولى بما قاموا به من أعمال على طول الطريق إلى القسطنطينية. وما انتظرهم من مصير فيما بعد، فقد كانوا صيدًا سهلاً للأتراك السلاجقة في كمين أعد لهم ومزقتهم سيوف الأتراك شر ممزق(١٤٨).

ومهما يكن من أمر؛ فإن الاهتمام بتنظيم حملة الأمراء كان كبيرًا، ففي الوقت الذي أشاحت فيه البابوية بوجهها عن العامة وحملتهم، فإنها عملت على توفير أكبر قدر من الاهتمام بحملة النبلاء والفرسان، لما لها من أهمية وما تعقده عليها الكنيسة من آمال.

لقد استجاب النبلاء للدعوة وكان ذلك متوقعا لأسباب منها أنها تناسب ميولهم وظروف مجتمعهم الإقطاعي. ذلك المجتمع المشبع بالفخر والملء بالتعصب ضد غير المسلمين. ويبدو أن حاجتهم إلى الأرض والتنافس حول الإقطاع كان دافعا لتلبية الدعوة مع الأخذ في الاعتبار ما ستوفره مثل تلك الدعوة لمحاربة المسلمين في الشرق من ستار ديني مناسب لإرضاء نزعاتهم العدوانية(١٤٩).

وكانت الاستجابة كبيرة من جانب نبلاء فرنسا، ويمكن إرجاع ذلك إلى أن فرنسا كانت موطن الحركة الكلونية. والمركز الذي انبعثت منه سلام الرب وهدنة الرب والموطن المختار للفروسية، بالإضافة إلى أن فرنسا - كما رأينا - كان بها

الحروب الصليبية، ص٩٨ وما بعدها.

(١٤٦) من أذكي الدعاة المبشرين، فكر في التشبه بالمسيح في حياة التقشف التامة وقام بالتبشير في وادي اللوار، ولكنه تواري في الظل خلف شبح بطرس الناسك. انظر: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص١٦٩.

Mayer ،Op.Cit . ،p.42.

(١٤٧) قاد أتباعه عبر هنغاريا ثم أراضي الدولة البيزنطية، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج١، ص١٣٣.

(١٤٨) آنا كومنينا: الحروب الصليبية، نشر قاسم عبده قاسم، ص١٢٤.

(١٤٩) قاسم عبده قاسم: الدوافع الاجتماعية، ص٢١٨، ٢٢٧.

نبلاء بلا إقطاع وبمعنى آخر تستطيع أن تقدم من النبلاء حشدًا لم يكن شديد الارتباط بمكانته في المجتمع ومستعد لأن ينطلق في مغامرة كبيرة[١٥٠].

ودونما الخوض في تفاصيل الإعداد لحملة النبلاء، فإن ما يهمنا هو معرفة دور البابوية والكنيسة الغربية في توفير النظام والتوحد بين أفراد وفرسان حملة النبلاء إلى أي مدى أفلحت الكنيسة في ذلك.

بداية لم يشارك أي ملك ضمن جيش النبلاء، وكان الجيش مجموعة من الفرق لكل فرقة قائدها الذي تخضع له[١٥١]. وكان ضروريًا وجود قائد عام لتلك الفرق يحقق النظام بينها وله سلطة القيادة وإصدار الأوامر، ويفترض أن يكون على دراية بالأهداف المطلوب أن يحققها الجيش[١٥٢].

ويبدو أن إربان الثاني استفاد من تجربة جريجوري السابع لذا لم يقم بقيادة ذلك الجيش واستبعد نفسه من القيام بالقيادة حتى لا يسيء إلى مشاعر البيزنطيين وليتفرغ لإدارة شئون الكنيسة اللاتينية ومتابعة أوضاع الغرب الأوربي.

ووقع اختيار إربان على شخص يثق فيه من رجال الدين هو ادهيمار أسقف بوي ليقوم بمهمة قيادة الجيش بأسره لحساب البابا ونائبا عنه. وقد تم ذلك بعد انتهاء إربان من إلقاء خطابه مباشرة في كليرمونت، فقد توجه ادهيمار - وكأنه عمل سبق الإعداد له - صوب البابا ووجهه يتهلل فرحا، ثم ركع على ركبتيه طالبا البركة والإذن له بالرحيل[١٥٣].

وكان لإربان أسبابه في اختيار قائد الجيوش من غير العلمانيين، لقد أكد باختياره للأسقف أدهيمار أن الحملة تحت إمرة الكنيسة المباشرة، وأيضًا الأراضي

---

(١٥٠) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص٢٤، ٢٥.

(١٥١) أمكن تجهيز أربعة فرق للحملة الصليبية الأولى، وكانت الفرقة الأولى بقيادة هيو الكبير أخا فيليب ملك فرنسا، والثانية بقيادة بوهيموند أمير أبوليا والثالثة بقيادة جودفري دوق اللورين والفرقة الرابعة كانت بقيادة ريموند كونت تولوز المعروف بريموند الصنجيلي، للمزيد من التفاصيل أنظر: فوشيه الشارتري في الحروب الصليبية، نشر د. قاسم عبده قاسم، ص١٣٦، ١٣٧.

(١٥٢) كانت البابوية تعد الصليبية التعبير الواسع المدى عن العرش البابوي، وتعدها سياسة خارجية لها. للمزيد من التفاصيل انظر:

R. Smith, What Were the Crusades, p. 51.

(١٥٣) بلدريك الدوللي: الحروب الصليبية، نشر د. قاسم عبده قاسم، ص٨٩.

التي سيفتحها الصليبيون[١٥٤]. ويجيء ضمن أسباب اختيار إربان لشخصية من رجال الكنيسة للقيادة أن قادة الجموع الصليبية من أبناء شريحة اجتماعية واحدة، ولا ريب أن ذلك الوضع قد يؤثر على قيام تفاهم ووفاق بينهم[١٥٥].

أخذ إربان الثاني يوفر لادهمار سبل النجاح في مهمته، وقام بإعلام كل المشاركين في الحملة أنه - أي ادهيمار - القائد لها، وتجب طاعته، ولدينا وثيقة يتضح منها حرص إربان التام على إنجاح مهمة أدهيمار قائد الحملة وممثل الكنيسة؛ ففي خطاب إربان إلى كل المؤمنين في الفلاندرز يقول: "وعينا نائبا عنا قائدا لهذه الحملة وهذا العمل، وهو ابننا العزيز ادهيمار أسقف لي بوي، ويترتب على هذا أن كل من يقرر أن يذهب في هذه الرحلة أن يطيع أوامره كما لو كانت صادرة منا، ويجب أن يخضع لسلطانه تماما في الحل والعقد في أية قرارات به ومتصلة بعمله"[١٥٦].

وإذا كان إربان الثاني لم يقصر في جهد يضمن نجاح الزعامة الدينية، فإن السؤال هو ما إذا كان أدهيمار نجح في ذلك أم لا؟.

زود إربان الثاني أدهيمار بمعلومات كاملة عن خطته، ويرى المؤرخ الألماني ماير Mayer أن أدهيمار كان يعلم خطة البابا منذ وقت سابق على كليرمونت ولقد كان أدهيمار حريصا على سرية تلك الخطة[١٥٧]. وإلى جانب حفاظ ادهيمار على خطة سرية البابوية، فقد حرص أيضًا على الوحدة بين جموع الصليبيين، ويعطينا المؤرخ المعاصر فوشيه الشارتري صورة لذلك القائد قائلا: "قاد الجيش الصليبي بحكمة ورزانة، وراح يلهمه ممجدًا حتى يقوم بتنفيذ حملته"[١٥٨].

---

(١٥٤) عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٣٤، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص١٣.

(١٥٥) أنظر كانتور: المرجع السابق، ق٢، ص٤٨٣.

(١٥٦) إربان الثاني: خطاب إلى كل المؤمنين في الفلاندرز، الحروب الصليبية نشر قاسم عبده قاسم، ص٩٠.

(157) Mayer, Op.Cit., p.10.

(158) Fulcher of Charter, A History of the Expedition to Jerusalem, 1095j1127., transl. Rita Ryan, ed. Haerold Fink, U.S.A.1969, p.67.

وتحاول المؤرخة المحدثة Zoe إعطاء انطباعًا دراميًا أو أسطوريًا تصور فيه أدهيمار على إنه الأسقف توربين في أنشودة رولان[١٥٩] يقود فرسه إلى أرض القتال ضد الأتراك على رأس رجاله[١٦٠].

بيد أن أدهمار لم يكن ذلك الفارس الذي تصوره "زوي" فقد كانت سلطته في واقع الأمر سلطة اسمية، لقد أبدي الأمراء احتراما لسلطة المندوب البابوي كرأس الصليبية غير أن كل أمير ادعي لنفسه تقدمة على الآخرين. ولم يقم أحد من أولئك الأمراء بأداء قسم الطاعة للمندوب البابوي[١٦١].

وبرغم جهود أدهيمار فلم يتوافر له من الحزم والقوة ما يمكنه من إخضاع الأمراء لسلطانه. وقد تميزت الحملة من بدايتها إلى نهايتها بالشجار والنزاع بين الأمراء وأفصالهم وكثرة الخلافات بينهم[١٦٢].

ومهما يكن من أمر فقد كان أدهيمار عامل اتزان لجموع الصليبيين وظهرت أهمية أدهيمار كقائد عام للجيوش الصليبية عندما وافته المنية في الأول من أغسطس من١٠٩٨م في مدينة إنطاكية[١٦٣]. وبكاه الجميع وقد شعروا بالفراغ الذي أحدثه رحيله، وأفاض المؤرخ المجهول في رسم صورة حزينة لوفاة

---

(١٥٩) تعتبر أنشودة رولان من أقدم الملاحم الغنائية الشعبية في العصر الأوربي الوسيط وأفضلها من الوجهة التاريخية، وتدور أحداثها في عصر الإمبراطور شارلمان، وقد تغنت الملحمة ببطولته في الحرب ضد العرب في أسبانيا، وتناولت بطولة رجاله في ميدان الحرب، وتتناول تضحياتهم لتحقق مثلهم العليا التي تتلخص في صورة فارس مسيحي أو في كلمتين على حد قول جوزيف نسيم: الدين والحرب. للمزيد أنظر جوزيف نسيم يوسف، أنشودة رولان، قيمتها التاريخية، وما أثير حولها من جدل ونقاش. في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، تحرير قاسم عبده قاسم، رأفت عبد الحميد، مج ١، القاهرة ١٩٨٢، ص٧٧ - ٩٧.

Zoe Olden Bourg, The Crusades, Trans. Anne Carter,
(160) New York 1966, p.95 .
(161) Ibid.

(١٦٢) أنظر رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص١٦٤، عمر كمال توفيق: المرجع السابقة، ص٦٠، كانتور: التاريخ الوسيط، ق٢، ص٤٨٣.

(١٦٣) يذكر فوشيه أن أدهيمار مات في ذلك التاريخ:

Fulcher Of Charter, Op. Cit., p.67

المنـدوب البـابوي[١٦٤]. وسـارع الأمـراء بإرسـال الخبـر إلـى البابـا إربـان الثـاني وطالبوه بالقدوم إلى الشرق[١٦٥].

ومهما يكن من أمر؛ فقد واصل الأمراء التقدم إلى بيت المقدس دونما وجود للبابا أو مندوبه، ونجحوا في إقامة إمارات فرنجية في بلاد الشرق الإسلامي فوق الأراضي الغربية وفي أقدس مقدساتها.

(164) Anonymous, The Deeds of the Franks and other Pilgrims to Jerusalem. Trans Rosalind Hill, U.S.A. 1962.p74.
(165) Fulcher Of Charter, Op. Cit., p.68-.69.

الفصل الثالث

علاقات الكنيسة اللاتينية
في بيت المقدس بالقوي السياسية والدينية

- علاقة الكنيسة بالدولة في مملكة بيت المقدس.
- الأنظمة الدينية الحربية وعلاقتها بالكنيسة اللاتينية في بيت المقدس.
- العلاقة بين الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس والكنائس الشرقية.

الفصل الثالث
علاقات الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بالقوي السياسية والدينية

بـدأ ظهـور الخـلاف بـين العلمـانيين والكنسـيين فـي اللحظـة التـي اجتمـع فيهـا العلمانيين لتنظيم أوضاع الدولة المقبلة في المدينـة المقدسـة، وانحصر الخلاف وقتئذ في الشكل الذي يجب أن تكون عليه الدولة. وكـان الكنسيون يؤيدون ضـرورة اختيـار البطريرك قبل الحاكم العلماني للمدينة، مـع مـا يمثلـه ذلك من تأكيد المزاعم الخاصـة بأسبقية الأمور الروحية على الزمنية(١٦٦). والرغبـة فـي إقامـة حكومـة ثيوقراطيـة فـي بيت المقدس(١٦٧).

وإذا كان من الصعب تقرير ما كـان عليـه تصـور إربـان الثـاني بشـأن الحكومـة المرجوة لبيت المقدس، فإنـه مـن المؤكد أن بعض الكنسيين، إن لـم يكـن كلهـم، كانـت لديهم الرغبة في إقامة حكومة ثيوقراطية تكون إرثا آخر للقديس بطـرس فـي الشـرق، وكان على رأس تلك المجموعة أرنول Arnoul أسقف مارتا Marta(١٦٨).

وأيـا مـا كـان الأمـر، فقد تجاهل العلمـانيون مطالـب رجـال الـدين، وكانـت لـديهم أسبابهم: فمع طول المدة الزمنية بين خروج الصـليبيين مـن أوربـا حتـى وصـولهم إلـى القدس كان الحماس الديني قد تلاشي، وظهـرت الغلبـة للأمـور الماديـة علـى الروحيـة. بل أننا نجد تصورًا مستقبليًا لدى الذين قرروا البقاء فـي الشـرق مـن القـادة العسكريين

---

(١٦٦) اجتمع العلمانيون في اليوم الثامن بعد استيلائهم على القدس، وبحث القادة أمر اختيار أحدهم ليرأس المدينة والمناطق المجاورة، بيد أن رجال الكنيسة حاولوا جهدهم إعاقة ذلك العمل، وطلب بعضهم حضور الاجتماع بحجة عرض أمر هام على المجتمعين، وفي إطار التأثير على العلمانيين من خلال القول بأسبقية السائل الروحية على الدنيوية، حاولوا فرض رغبتهم في تنصيب البطريرك أولا قائلين أن النظام يجب أن يتبع، وقبل الاختبار للمنصب الدنيوي ينبغي التفكير في شئون الكنيسة.
Cf., William of Tyre, A History of Deeds done Beyond the sea, vol1, p.378.

(١٦٧) قام هذا الزعم استنادا إلى أن البابوية صاحبة الفضل في الدعوة إلى الحروب الصليبية وأن الصليبية من عمل الكنيسة، انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٢٤٢.
J. Prawer: The Latin Kingdom, European colonialism in the Middle Ages, Israel, 1972, p.159.

(١٦٨) واحدة من المسائل المتنازع عليها بين المؤرخين: ما إذا كان إربان الثاني قد تصور إمكانية قيام حكومة ثيوقراطية نتيجة غزو الأراضي المقدسة. أنظر:
Duncalf, F., "The Pope s Plan for Crusade", in the Crusaders Motive and Achievement (ed. James A.Brundage), Boston U.S.A.1964., pp22-27, p.27, Prawer, Op.Cit., p.159.

حول إمكانية أن يصيروا حكامًا لأقاليم علمانية(١٦٩). لذلك فإنهم لم يكونوا ليسمحوا بإقامة حكومة ثيوقراطية هذا من ناحية، ومن ناحية أخري فإن فكرة قيام حكومة دينية في بيت المقدس كانت غير واقعية لأسباب منها صعوبة قيام مثل هذه الحكومة في قلب العالم الإسلامي دون وجود قيادة حربية علمانية يمكنها الدفاع عن الدولة وسط أعدائها.

كذلك حاجة مثل هذه الحكومة إلى زعيم ديني رشيد يصلح لزعامتها في حالة السماح بقيامها، الأمر الذي يفتقر إليه الكنسيون بعد وفاة الزعيم الديني إدهيمار(١٧٠). وقد سارع العلمانيون بانتخاب واحد من بينهم، حيث وقع اختيارهم على جودفري البوايوني(١٧١) الذي أبدي رفضًا إلا أنه قبل في النهاية على أن يخاطب بلقب دوق ولا يكون ملكًا يلبس تاجًا، واتخذ لقب حامي الضريح المقدس Sancti Sepulchri(١٧٢).

وهناك أكثر من مغزى وراء اتخاذ جودفري لذلك اللقب، لقد كان لقب حامي يمنح في فرنسا للعلماني الذي يقوم بحماية أرض الدير(١٧٣)، وقد يعني ذلك اعترافًا من جانب جودفري بأن الدولة الجديدة في بيت المقدس ليس لها الصفة السياسية البحتة، وأن لها صفتها الدينية التي تجعل للكنيسة نوعًا من الإشراف عليها(١٧٤).

وفي هذا ترضية لرجال الدين، كما قد يعني تواضعًا حسبما ترجم له ورفضًا منه في حمل التاج الذهبي في مكان ارتدي فيه المسيح تاج الشوك(١٧٥). غير أن هناك من رأى في مسلكه نوعًا من العجز والتساهل تجاه رجال الدين ويدلل على ذلك

---

(169) Prawer, Op.Cit., p.159.

(١٧٠) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٣٤٣.، وكان إدهيمار قد مات في أنطاكية، وحزن الصليبيون لموته كثيرا وانتابهم شعور من الآسي لفقد زعيم مثله، انظر:

Anonymous, Deeds of the Franks and the other Pilgrims to Jerusalem, p.74.

(171) Fulcher of Charter, Op, Cit., p.74.

وقد تم انتخاب جودفري في ٢٢يوليه سنة ١٠٩٩م للمزيد انظر:

Hagnmayer Chronologies Della Premier Croustade, in R.O.L., Tom. 7, Paris p. 430, Anonymous, Op.Cit., p. 92-93.

(172) Brehier, L, Eglise et L*Orient Au Moyen age- Les Croisade (Paris 1929) p.82.

عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس، ص٦١.

(173) Duggan, The Story of the Crusade, London1963, p.79.

عمر كمال توفيق: المرجع السابق، ص٦١.

(١٧٤) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٢٤.

(175) Richard .J., Le Royaume Latin de Jerusalem, Paris1953, p.62.

برضاه وهو الأمير أن يكون دوق المدينة المقدسة(١٧٦). غير أننا نرى أن تلك العوامل مجتمعة تمثل حقيقة دوافع جودفري، وأيًا ما كان الأمر، فالذي لا شك فيه أن مسلكه راق الكنسيين وعدوه نصرًا لهم(١٧٧).

كان ضروريًا انتخاب قيادة روحية بعد اختيار الرئاسة الزمنية لبيت المقدس. ويخبرنا فوشيه الشارتري أن رجال الدين قرروا عدم اختيار بطريرك حتى يسألوا بابا روما عمن يرغب في تعيينه(١٧٨)، إلا أن ذلك الموقف لم يدم طويلا. فقد اجتمع رجال الدين في أول أغسطس سنة ١٠٩٩م، وهو يوم عيد القديس بطرس في الأصفاد، ووقع اختيارهم على أرنول مالكورن Arnoul Malecorn(١٧٩). وكان وراء ذلك الاختيار أسقف مارتا(١٨٠)، وإذا كان المؤرخ المجهول يذكر أرنول على أنه "رجل عاقل وشريف"(١٨١).

فإن هناك مَن حاولوا تجريحه والنيل منه لسوء سلوكه أثناء زحف الصليبيين على بيت المقدس(١٨٢)، وكانت تلك النقطة سببًا في عزله فيما بعد كما سنرى.

وأيًا ما كان الأمر؛ فقد اعتلي أرنول مالكورن عرش البطريركية في بيت المقدس باعتباره أول بطريرك لاتيني لها. وحرص على الوفاق مع الحاكم العلماني

---

(176) Brhier, Op.Cit., p.82.

تجدر الإشارة إلى؛ أن رجال الدين أنكروا أن يتوج أحد في البقعة التي تألم فيها السيد المسيح، وتوج بتاج من الشوك. انظر: حسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى، القاهرة ١٩٤٧، ص٨٩.

(١٧٧) عمر كمال توفيق: المرجع السابق، ص٦٢.

(178) Fulcher, Op.Cit., p. 82.

(١٧٩) لقب أرنول بـ Roheo أو Roeux، ويقال له أيضًا Arnulphus Malcorne أنظر:
L. De Mas- Latrie, Les Patriarches Latin de Jerusalem, dans R.O.L. tomI, p.22
وكان أرنول قسيس روبرت دوق نورماندي وراعيه، أنظر:
Duggan, Op.Cit., p.83.

(١٨٠) يفسر وليم الصوري تأييد أسقف مارتا لارنول مالكورن في ضوء اتفاق بينهما، حيث عمل الأول جاهدا على أن يشغل الأخير منصب البطريركية، وحالما يتم ذلك يقوم أرنول بتنصيب أسقف مارتا في بيت لحم، غير أن الجزء الأخير من المخطط لم يتم، فقد مات أسقف مارتا قبل أن ينصب في بيت لحم أنظر:
William of Tyre, Op.Cit., Vol.I, p.380., Grousset.R., Histoire Des Croisades Et Royaume France de Jerusalem, tom.I, Paris1934, p.171.

(181) Anonymous, Op.Cit., p.92.

(١٨٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٢٤٥.

أمـام الجميع، وعلـى أن تكـون علاقتـه بـه معتدلـة. واختـار أرنـول ألا يقحـم نفسـه فـي مشاكل مع جودفري، واكتفي بالمسائل الكنسية وقصر نشاطه عليها.

ولدينا وثيقة تدل على أن الوفـاق كـان متبـادلاً بـين الطـرفين، وأن كليهمـا حـرص على الالتزام بمهامه. ففي رسالة بعث بها البطريرك أرنول والدوق جودفري معًا إلـى Manasses رئيس أساقفة ريمس Reims وبعد إخباره باختيارهما لمنصـبيهما، فإنهمـا يدعوانـه ليطلـب مـن المسـيحيين أن يسـألوا الله أن يهـب الحـاكم الجديـد النصـر ضـد الأعداء، ويهب البطريريك الحكمة في تشريعاته فـي مواجهـة الكفـار.[١٨٣] كذلك نجد أرنول - رغم قصر مدة بطريركيته - يعمل على إضفاء الصبغة اللاتينية علـى كنيسـة بيت المقدس[١٨٤]، وهي سياسة أتبعها أسلافه كما سنرى.

وقـد حـدث تحـول كبيـر فـي العلاقـة بـين البطريـرك والحـاكم العلمـاني خـلال بطريركية دايمبرت Daimbert[١٨٥]، ثاني بطاركة بيت المقدس، ذلك الرجل الذي لـم يكن ضمن رجال الصليبية الأولى غير أنـه حضـر إلـى بـلاد الشـام سنة ١٠٩٩م علـى رأس أسطول بيزي[١٨٦].

وهناك زعم قائم حول قدومه إلى الشرق مسلحًا بسلطة مندوب بـابوي. غيـر أن ذلك الـزعم محض ادعـاء، ويذكر المـؤرخ Krey "أن كـل مـا لـدينا مـن أدلـة تاريخيـة معاصرة يؤكد ويوضح أن دايمبـرت وأسطولـه البيـزي كـان فـي البحـر قبـل أن يـتمكن إربان الثاني من معرفة أمر وفاة أدهيمار بوقت طويل"[١٨٧]. ويؤكد المـؤرخ الألمـاني ماير نفس الرأي قائلاً" "برغم أن خطـة دايمبـرت قد باركهـا البابـا، إلا أنـه مـن المؤكـد لم يجيء مسلحًا بسلطة مندوب بابوي"[١٨٨].

---

(١٨٣) أرسلت الرسالة المذكورة في السادس من أغسطس سنة ١٠٩٩م، أنظر نص الرسالة في:
Hagenmayer, Op.Cit., 487.

(١٨٤) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٤٥.

(١٨٥) دايمبرت هو رئيس أساقفة بيزا ويسمي كذلك داجوبرت Dagobert، انظر:
L. De Mas- Latrie, Op.Cit p.17.

(١٨٦) وصل دايمبرت إلى الشام في نهاية أغسطس سنة ١٠٩٩م، أي بعد الاستيلاء على القدس، انظر: عمر كمال توفيق: المرجع السابق. ص٦١.

(187) Krey, Urban, Success or Failure ? in the A.H.R.L III (January 1948), (pp.235-250), p.241.

(188) Mayer, The Crusade, Trans. John Gillingham, Oxford, p.1972, p.66.

ولقد عمل دايمبرت على كسب حلفاء له ووجد غايته في بوهمند أمير أنطاكية، وكان لكل منهما طموحاته، فالأول يتطلع إلى منصب البطريركية في بيت المقدس بينما كان بوهمند يأمل في الحصول على التأييد الكامل من الكنيسة اللاتينية فيما يتعلق بإمارته لأنطاكية.(١٨٩) وأمكن لدايمبرت اعتمادا على رجاله البيازنة ومساندة بوهمند أن يصل إلى كرسي البطريركية ببيت المقدس في أواخر ديسمبر سنة ١٠٩٩م(١٩٠).

وتخلص دايمبرت من سلفه أرنولف على أساس أن انتخابه لم يكن قانونيًا، وعلى أساس ما قام به من أعمال أثناء الزحف الصليبي على بيت المقدس.(١٩١) والواقع أن أرنولف لم يغفر لدايمبرت ذلك العمل فأخذ يعمل على إحداث اضطرابات، وكذلك تهديد أمن دايمبرت الذي كان مقبولاً لدي الجميع - على حد قول وليم الصوري - واختير من قبلهم لإدارة الكنيسة(١٩٢).

عمل دايمبرت من البداية على تأكيد الأسبقية الدينية على السلطة الزمنية، وبذلك بعث الإدعاءات الكنيسة من جديد. وقد رضخ جودفري لذلك، وقبل أن يقلد في منصبه من قبل دايمبرت "ففي القدس تلقي الدوق جود فري واللورد بوهمند أملاكهما من البطريرك دايمبرت في محبة الله"(١٩٣).

ولا يخفى ما وراء ذلك من مغزى، فإذا كان بوهمند قد حظي بالشرعية التي يرومها لإمارته، فإن جودفري بمسلكه اعترف بأن دوقيته إقطاع من الكنيسة. وأيضًا يعني ذلك أن بطريرك بيت المقدس أصبح السيد الأعلى في البلاد المقدسة(١٩٤). وقد

---

(١٨٩) استولي بوهيمند على إنطاكية دون وجه حق، ولم يكن قانعا بذلك، وهاجم المدن البيزنطية والتركية على حد سواء، ولم يعترف أي من القادة الصليبيين أو الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس بمزاعم بوهيمند. انظر: اسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص١٢٧-١٢٨.

Latrie, Op.Cit., p.17. Krey, Op.Cit., p.245.

(١٩٠) يحدد Hagenmayer تاريخ اعتلائه عرش البطريركية بعد مجمع في القدس في ديسمبر ٢٦-٣١ من ديسمبر سنة ١٠٩٩م، انظر: ارنست باركر: المرجع السابق، ص٤٤.

Hagenmayer, Op.Cit, p.485, Duggan, Op.Cit ., p.81.

(191) Duggan, Op.Cit., p. 81.

(١٩٢) اتخذ وليم الصوري موقفًا منحازًا إلى جانب دايمبرت على حساب أرنول وأغدق على الأخير كثير من الصفات الشريرة. انظر:

William of Tyre, Op.Cit., , volI, p.425.

(193) Fulcher of Charter, Op.Cit., p.269.

(١٩٤) للمزيد من التفاصيل انظر:

Richard, Op.Cit., p. 26., Painter, Op.Cit., p.207., Mayer, Op.Cit., p.66., Prawer,

اقترب دايمبرت بعد تقليده جودفري دوقيته من صورة البابوات، بل أخذ يتصرف مثل جريجوري السابع(١٩٥).

ويثور تساؤل حول حقيقة مطالب دايمبرت، كذلك عن طبيعة الادعاءات الثيوقراطية للكنيسة في الشرق. لقد كان يتطلع إلى إقامة حكومة ثيوقراطية. واعتقد دايمبرت أنه يمثل الكنيسة الرسمية - رغم افتقاره إلى تأييد البابا - ولأن الحرب الصليبية تمت بمبادرة الكنيسة. فإن ما يتحقق من فتوح يعد من أملاك الكنيسة(١٩٦).

وكان ذلك الاعتقاد هو المحور الذي ارتكزت عليه الكنيسة في علاقتها بالدولة إبان بطريركية دايمبرت، ودفع ذلك الاعتقاد دايمبرت إلى المطالبة ببيت المقدس ويافا ويلحف في الطلب. وقد منحه جودفري ربع مدينة يافا ووعده بإعطائه المدينتين حالما تتسع المملكة، أو في حالة موته دون وريث شرعي(١٩٧).

وكان دايمبرت عديم الصبر، فقد أخذ يتعجل السلطان على بيت المقدس، وأسرع في القضاء على كل أثر لنفوذ السلطة العلمانية بالمدينة وضعف جودفري أمامه، ولم يبد أية مقاومة حياله، ويمكن تفسير ذلك في ضوء حاجته لعون كل من الأسطول البيزي والكنيسة(١٩٨).

وسنحت الفرصة لجودفري للخلاص من قبضة دايمبرت برحيل الأسطول البيزي بعد عيد الفصح لسنة ١١٠٠م، ووصول الأسطول البندقي إلى يافا في يوليه من نفس العام. لذلك لم يكن غريبًا أن رحب جود فري بالأسطول البندقي، غير أن مخططه لم يتم، حيث توفي جودفري قبل أن يحقق ما هدف إليه.(١٩٩)

The Latin Kingdom., p.160.

(١٩٥)السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج١، ط القاهرة ١٩٦٣م، ص٢٢٨.

(١٩٦) لم يكن دايمبرت قانعًا بربع القدس والذي كان بطريرك بيت المقدس يتمتع به منذ زمن الدولة الفاطمية للمزيد، انظر: السيد الباز العريني، الشرق الأوسط، ج١، ص٢٨١.

Mayer, Op.Cit., p.66.

(197) William of Tyrw, Op.Cit., vole I p. 403., Mills, Op.Cit., volI, p.265, Prawer, Op.Cit., p.160., Grouset, Op.Cit., tom.I, pp196, 197.

(١٩٨) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٦٦. Mayer، Op.Cit.، 67.

(١٩٩) وقد توفي جودفري في ١٨ يوليه سنة ١١٠٠م، أنظر:

Fulcher of Charter, Op.Cit., p.89.

مما سبق نجد؛ أن العلاقة بين جودفري والكنيسة متمثلة في دايمبرت قامت على أساس التوفيق بين مطامع كل من الطرفين، ومحاولة كل طرف الفوز بتحقيق أكبر قدر من مطامعه. غير أنه بوفاة جودفري دخلت العلاقة بين الحاكم والكنيسة مرحلة خطيرة تعرضت فيها مطامع وأحلام دايمبرت لهزة عنيفة. لقد تصور دايمبرت أنه يمكنه الاستيلاء على بيت المقدس ويافا بعد وفاة جودفري.

بيد أن ذلك الأمر لم يكن باليسير، حيث ووجه بمعارضة من نبلاء بيت المقدس وعلى رأسهم الكونت جارنير، وكانوا يؤمنون بضرورة قيام ملكية وراثية في بيت المقدس(٢٠٠). وشايعهم في ذلك بعض رجال الدين. وعلى رأسهم البطريرك السابق أرنولف مالكون الذي كون حزبا في مواجهة دايمبرت، ولم يكن من دافع لديهم "سوي التشفي في دايمبرت والوقوف في وجه أطماعه وآماله"(٢٠١).

وتم إعلام بلدوين حاكم الرها بوفاة شقيقة جودفري، وقام بذلك الكونت جارنير زعيم النبلاء في بيت المقدس، وطلب من بلدوين "الإسراع بالمجيء بأقصى ما يمكنه دون تأخير"(٢٠٢). ويعني ذلك أن لا مشكلة بالنسبة لانتخاب حاكم المدينة حيث يقوم نظام حكم وراثي في بيت المقدس.

والواقع؛ أن دايمبرت لم يفقد الأمل، وقد عمد إلى طلب عون بوهمند والتماس المساعدة منه، قام بالفعل بإرسال رسالة إلى بوهمند في أنطاكية حول ما يلاقيه من اضطهاد من جانب الكونت جارنير دي جاري(٢٠٣)، غير أن بوهمند لم يقدم أي عون

(٢٠٠) عارض فرسان جودفري استيلاء البطريرك على القدس، ويعتبر وليم الصوري تلك الجماعة متمردة، وكان دافع جارنير زعيم النبلاء في القدس للقيام بذلك العمل قرابته نسبا لكل من جودفري وبلدوين.

William of Tyrw, Op.Cit., vole I p. 418., Mills, Op.Cit., volI, p.266.

(٢٠١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٧١.، السيد الباز العريني: الشرق الأوسط، ج١، ص٢٩٠.، ارنست باركر: المرجع السابق، ص٤٦-٤٧.

(202) William of Tyrw, Op.Cit., vole I p. 418.

ويعرض فوشيه الشارتري لحزن بلدوين عندما علم بوفاة جود فري، ولكن حزنه لم يدم، فقد أسعده أن يكون وريثا له، وبدأ رحلته في الثاني من أكتوبر سنة ١١٠٠م إلى القدس، أنظر:

Fulcher of Charter, Op.Cit, p. 137.

(203) Conder, The Latin kingdom., p.79.

كان دايمبرت على علم باستدعاء بلدوين، وخشي وصوله ورغب في إعاقة تقدمه بكل وسيلة ممكنة، وأرسل خطابا إلى بوهيمند يحتوي على التفاصيل الكاملة للأمور، انظر:

لدايمبرت لوقوعه في الأسر، مما أعطي بلدوين فرصة كاملة في الوصول إلى عرش بيت المقدس(٢٠٤).

دخل بلدوين بيت المقدس في العاشر من نوفمبر سنة ١١٠٠م، وقد استقبله الأهلون خارج المدينة - بمختلف طوائفهم - استقبالا رائعًا، بينما رفض دايمبرت الانضمام إلى مواكب المستقبلين، بل أنه لم يستقبل بلدوين داخل المدينة، وأمام إعراب الجميع عن حبهم لبلدوين، فإنه اعتزل كرسيه البطريركي، ولجأ إلى كنيسة جبل صهيون(٢٠٥).

وتغاضي بلدوين عن موقف دايمبرت، وأخذ يتفقد أنحاء المناطق التي ورثها عن أخيه في الخليل، وبيت لحم وغيرها. ومع اقتراب شهر ديسمبر لسنة ١١٠٠م من نهايته عاد إلى بيت المقدس(٢٠٦).

وبدأت أول نقاط الالتقاء بين بلدوين ودايمبرت بعد عودة الأول. وكانت البداية طيبة حيث تمت المصالحة بين الطرفين نتيجة جهود عاقلة، وقام السلام بين دايمبرت والأمير بلدوين وكذلك عدد من رهبان الضريح المقدس(٢٠٧). ويري وليم الصوري أن تلك الجهود العاقلة المعتدلة جديرة بالثناء(٢٠٨).

William of Tyre, Op.Cit., Vol.I, p.418.

(٢٠٤) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٧٣.

(205) William of Tyre, Op.Cit., vol.I, p. 425- 426., Grousset., Op.Cit., vol.I, p.214.

كنيسة جبل صهيون كنيسة ذات سقف خشبي على مرمي حجر من سور مدينة القدس، وبحوار المذبح حجرة خاصة، حيث غسل المسيح أقدام حوارييه، للمزيد من التفاصيل عن تلك الكنيسة انظر:

Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land, in P.P.T.S, vol.1, p.36.

(٢٠٦) عاد بلدوين إلى القدس في الحادي والعشرين من ديسمبر سنة ١١٠٠م عن هذه الجولة انظر: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص١١٨- ١١٩، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٧٧.

Fulcher, Op.Cit., p.146-147.

(207) Fulcher, Op.Cit., p.146.

(208) William of Tyre, Op.Cit., vol.I, p.427.

لقد كان ذلك التصالح محاولة من جانب بلدوين تجنب فتنة داخلية. وكان بإمكانه عزل البطريرك لحظة وصوله إلى بيت المقدس، خاصةً أن أرنولف فالكون - وقد ظنها ساعة الثأر - كان على أتم استعداد لتقديم كل مساعدة ممكنة لبلدوين(٢٠٩).

ويمكن القول؛ أن الفترة التي استغرقتها جولة بلدوين في الخليل وغيرها قد أتاحت لدايمبرت من الزمن ما يجعله يفكر في وضعه بشيء من الحذر. ففي الوقت الذي كان بلدوين مقتنعا بضرورة إقامة ملكية ومحاربة فكرة الحكومة الدينية في بيت المقدس، كان دايمبرت قد تأكد أنه لا توجد فرصة لنجاح مخططاته، وأذعن لما لابد منه. وأن الأفضل له أن يتطلع إلى بقائه في منصبه(٢١٠).

وتهيأت الفرصة من خلال المصالحة بين بلدوين ودايمبرت إذن ليصل إلى غايته في سلام. وقام دايمبرت بتتويج بلدوين ملكًا في بيت المقدس، ففي يوم ميلاد المسيح لسنة ١١٠١م وبحضور الأساقفة والقساوسة والأمراء والرعية، تم تكريس بلدوين ومباركته كملك بيدي دايمبرت في كنيسة بيت لحم(٢١١).

لقد كان لذلك التتويج أكثر من مغزى، لقد كان إعلانًا بقيام مملكة لاتينية في الشرق، وزوال كل احتمال لقيام حكومة ثيوقراطية، مع ما يعنيه ذلك من زوال لأطماع دايمبرت نفسه في إنشاء إمارة زمنية Dominium Temporal كالتي للبابا في وسط إيطاليا(٢١٢).

كذلك فإنه تعبير عن حرص بلدوين على جعل سيطرته على البلاد والكنيسة سيطرة كاملة، وحرصه أيضًا على تجاهل لقب حامي في زوايا النسيان.

---

(٢٠٩) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٧٧.

(210) Mayer, Op.Cit., p.68., Grousset, Op.cit., Tom., I, p.288.

(211) Fulcher, Op.Cit., p.148., William of Tyre, Op.Cit., vol.I, p.427.,

رغب بلدوين أن يتوج في بيت لحم حتى لا يتوج في بيت المقدس وبذا يكون قد تخلص من أمر ارتداء تاج من الذهب في موضع ارتدي فيه المسيح تاجا من الشوك، انظر:

Moron Benvenisti, The Crusaders in The Holy Land, Israel1970, p. 160, Mills, Op.Cit., p.266, Boase, Kingdom and Strong Holds of the Crusaders, London 1971, p.42., Brehier, Les Croisade., p.86.

(٢١٢) باركر: الحروب الصليبية، ص٤٧.

والواقع؛ أن بلدوين وعد في قسم تتويجه أن يخدم ويدافع عن الضريح المقدس، ويحكم الكنيسة والشعب في القدس بالعدل وفي سلام، وبينما كان سلفه قد أقسم أن يحمي البطريرك، فإن بلدوين لم يذكر ذلك، مع ما فيه من دلالة على انتهاء زمن الوفاق بين الكنيسة والملك في بيت المقدس(٢١٣) ذلك الزمن الذي لم يدم طويلاً.

وحدث بالفعل أن تجدد الصراع في مارس سنة ١١٠١م(٢١٤)، وكان بلدوين حريصًا على فرض سيطرته على الكنيسة. لذلك كانت قناعته تامة بضرورة التخلص من دايمبرت. حرص بلدوين أن يتم ذلك بطريقة لا تجلب عليه غضب رجال الدين سواء في القدس أو روما.

وكانت فرصة بلدوين عظيمة عند قدوم المندوب البابوي الكاردينال موريس أسقف بورتو، وكان قدم إلى البلاد للتحقيق في بعض الشكاوي حول قانونية ارتقاء دايمبرت للبطريركية(٢١٥).

وكان بلدوين حريصًا على اغتنام تلك الفرصة، فسارع باتهام دايمبرت بالخيانة، بل إنه أطلع الكاردينال على الرسالة التي كتبها دايمبرت إلى بوهمند عند وفاة جودفري، وفيها يطلب إلى بوهمند معارضة تولي بلدوين العرش بالقوة إن تطلب الأمر. بل أن بلدوين أضاف تهمة أخرى بادعائه محاولة دايمبرت اغتياله إبان رحلته صوب الجنوب(٢١٦).

---

(٢١٣) للمزيد من التفاصيل:

Prawer, Op.Cit., p.160., Mayer, Op.Cit., p.68.

(٢١٤) يرى وليم الصوري أن أرنولف مالكورن - البطريرك السابق - كان وراء تجدد النزاع بين دايمبرت وبلدوين، وانه المسئول عن إفساد العلاقة بين الملك ودايمبرت، ويتخذ وليم جانب دايمبرت William of Tyre، Op.Cit.، vol.I، p.427. في الوقت الذي يري البرت الآخي أن بلدوين كان لا يمكن أن يغفر لدايمبرت محاولاته للحيلولة دون وصوله إلى حكم بيت المقدس وحرمانه من ميراث أخيه، انظر:

Grousset, Op.cit., Tom., I, p.288.

أيضا: سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ٣٢٤.

(٢١٥) وصل الكاردينال موريس أسقف بورتو إلى بيت المقدس في يوم عيد القيامة سنة ١١٠١م، ويؤكد Krey أنه أول مندوب بابوي بعد أدهيمار، وقد عينه البابا باسكال الثاني مندوبا بابويا في إبريل سنة ١١٠٠م، أنظر Krey، Op.Cit.، p.214 وعن مهمة موريس أنظر: رنسيمان: المرجع السابق، ج٢، ص١٣٢-١٣٣.

(216) Grousset, Op.cit., Tom., I, p.290.

وتعبر تلك الاتهامات من جانب بلدوين عن رغبة مؤكدة في التخلص من دايمبرت حتى لا تبقي فرصة يمكن للأخير فيها إحياء مزاعمه الدينية، وحتى تكون قبضته على أمور المملكة قوية.

ويبدو أن المندوب البابوي موريس تأثر بالبراهين التي ساقها بلدوين ليدعم بها مزاعمه حيال دايمبرت، فقرر حرمان الأخير من المشاركة في الاحتفال بعيد القيامة التي كان ينفرد بممارستها كبطريرك. وسارع دايمبرت إلى طلب العفو عنه، وجثا على ركبتيه أمام بلدوين، ولأنه يعرف مدي حاجة بلدوين إلى المال فقد أبدي استعداده لمساعدته، وتراجع بلدوين مؤقتا عن تشدده وعفا عنه(٢١٧).

غير أن حالة التراجع لم تستمر طويلاً، فقد أراد بلدوين التخلص من البطريرك، وأمكنه ذلك من خلال اتهامه بالاختلاس: ففي خريف سنة ١١٠١م تلقي البطريرك دايمبرت هدية من روجر أمير أبوليا مقدارها ألف بيزيته على أن تقسم ثلاثة أقسام، قسم منها للمساهمة في إعداد الجيش، إلا أن دايمبرت استولى على المبلغ كله(٢١٨).

وإزاء تلك الفضيحة التي استغلها بلدوين جيدًا لم يتمكن دايمبرت من البقاء في منصبه، وأعلن نزوله عنه في الحال. ورحل إلى يافا حيث سمح له بلدوين بقضاء فترة الشتاء هناك. وفي مارس سنة ١١٠٢م وصل إلى أنطاكية فبادر أميرها تانكرد بالترحيب به، ووضع تحت تصرفه كنيسة القديس جورج(٢١٩).

وحاول تانكرد الضغط على بلدوين لإرجاع دايمبرت إلى منصبه مستغلاً حاجة بلدوين إلى مساعدته في حربه ضد المصريين(٢٢٠)، إلا أن بلدوين لم يتراجع عن

(٢١٧) أبدي بلدوين اهتماما كبيرا بالمال الذي يلزم رصيدا لقواته، وقبل سرا المنحة التي وعده بها جايمبرت، وبخطبة بليغة ومؤثرة عن ضرورة الوفاق بين المسيحيين قام بإعادة البطريرك إلى منصبة. ويذكر البرت الآخي أن المنحة كانت ٢٠٠ بيزنت، انظر:
رنسيمان: المرجع السابق، ج٢ ص١٣٣.
Zoe, The Crusades, p. 217. Grousset., Op.Cit ., p.240.

(٢١٨) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص١٣٤.

(٢١٩) رنسيمان: المرجع السابق، ج٢، ص٦٢-٦٣، وقد أبقي بلدوين منصب البطريركية شاغرا متعللا بحجة إخطار البابوية، بينما اقتحم رجاله خزائن البطريركية، ووحدوا بها عشرين ألف بيزنت، انظر:
رنسيمان: نفسه، ص١٣٥.

(220) Grousset, Op.Cit., tom.I, p.293.

موقفه وعارض مطلب تانكرد[٢٢١]. وفي تلك الأثناء وصل مندوب بابوي آخر هو الكاردينال روبرت أسقف باريس، وعقد مجمعًا قرر فيه عودة دايمبرت إلى منصبه بصفة مؤقتة حتى تتم التحقيقات معه. وبالفعل أدان المجمع الثاني برئاسة روبرت أسقف باريس البطريرك دايمبرت، وأعلن مندوب البابا أن دايمبرت ليس جديرًا بالكرسي البطريركي ولا بد من عزله[٢٢٢].

وعاد دايمبرت في صحبة تانكرج إلى أنطاكية، ومن هناك إلى روما محاولاً الاستعانة بالبابوية لإرجاعه إلى كرسي بيت المقدس وقد "عرض شكواه على بابا روما وما لحق به من أذي على يد الملك"[٢٢٣]. وحصل دايمبرت بالفعل على العون البابوي فقد "أعطي خطابا بابويا وأرجع إلى بلده في تقدير كامل ليسترد الكرسي الذي أبعد عنه خطأ"[٢٢٤].

لقد أفلح دايمبرت في كسب البابوية إلى جانبه. ويعد موقفها ذلك تصديا للسلطة الزمنية في بيت المقدس. لقد رأت البابوية أن عزل دايمبرت تم نتيجة تدخل السلطة الدنيوية، وبذلك يكون قرار العزل عملاً خاطئًا، إلا أن القدر تدخل ليوقف صراعًا لا يعلم مداه إلا الله. فقد مرض دايمبرت ومات وهو في طريق عودته في مسينا في ١٦ يونيه سنة ١١٠٧م[٢٢٥].

مما سبق نرى؛ أن العلاقة بين الكنيسة والدولة إبان بطريركية دايمبرت وعهد بلدوين الأول اتسمت بالصراع بين الطرفين. لقد حرص الأول على تحقيق أطماعه وإقامة حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس، في الوقت الذي آمن فيه بلدوين بضرورة

---

(٢٢١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٩١.
(٢٢٢) رنسيمان: المرجع السابق، ج٢، ص١٣٦.، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٩١.
(223) Fulcher of Charter, Op.Cit., p.177.
(224) William of Tyre., Op.Cit., Vol.I, p.467.
(٢٢٥) يذكر فوشيه أن دايمبرت مات في الطريق إلى بيت المقدس، انظر: Fulcher، Op.Cit.، p.177 ويرجع وليم الصوري وفاة دايمبرت إلى ما أصيب به من أمراض خطيرة. انظر:
William of Tyre., Op.Cit., Vol.I, p.467.
ويذكر رورخت أن البطريرك مات وهو يستعد للعودة من روما إلى الأراضي المقدسة، وذلك في مسينا في ١٦ يونيه سنة ١١٠٧م.
"Daimbertus Patriarcha Roma in Terram Sanactam Reversurs (16 Jun 1107) Messina Obierat" Reinold Rohrich, Regesta Regni Hierosolymitani, Innsbruck 1893, No.50, p. 10., cf. L.De Mas Latrie., Op.Cit., p.17.

سيطرته على الدولة والكنيسة معًا، وتحطيم مخطط دايمبرت حتى يمكنه إقامة ملكية قوية.

وحرص بلدوين على إكساب الشرعية لتصرفاته تجاه دايمبرت. وخاض دايمبرت صراعه ضد بلدوين ووراءه كنيسة منقسمة، فقد أخذ البطريرك السابق أرنولف وحزبه موقفًا ضده مما كان له أثره على ثبات دايمبرت في مواجهة بلدوين الأول.

ولم يواجه بلدوين الأول أية مشاكل أو مضايقات ذات شأن من جانب الكنيسة بعد وفاة دايمبرت، حيث كان على رأس الكنيسة بطريرك متقدم في العمر هو إيفرمار (١١٠٣ – ١١٠٧م)[٢٢٦].

وكان إيفرمار من طراز يختلف عن دايمبرت، فلم يدرك الأوضاع التي تحيط به، وانتهي به الأمر إلى العزل من منصبه "ونظرًا لتقواه وإيمانه العميق وشخصيته البسيطة فقد أنيطت به كنيسة قيسارية التي كانت آنذاك شاغرة[٢٢٧].

تولي جبلين سابران رئيس أساقفة إيرل Gibelino Archiepiscopo Arelaternsi بإجماع رجال الدين، وشغل ذلك المنصب مدة أربعة أعوام. ولا نجد ما يدل على حدوث صدام أو خلاف بين الكنيسة والملك في تلك الفترة[٢٢٨].

---

(٢٢٦) ايبرمار Ebermar أو ايفرمار Evremer قس من أبرشية ثيروان (تورين) Terouane، أنظر L.De Mass Latrie، Op.Cit.، p. 17 وهو قس متقدم في العمر قدم مع الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق؟ وقد اشتهر بالتقوى والبر، وبرغم أنه من مواطني أرنولف إلا أنه لم يشاركه مؤامراته، وحظي باحترام الجميع. وقد تم اختياره بطريركا في مجلس برئاسة الكاردينال روبرت المبعوث البابوي وإجماع الرهبان والعامة، ورغم ذلك فإن وليم الصوري يعد ايفرمار شاغلا غير شرعي للبطريركية لكونه اعتلي العرش البطريركي وسلفه دايمبرت على قيد الحياة للمزيد عن ايفرمار انظر:

Fulcher., Op.Cit., p. 191., William of Tyre, Op.Cit., Vol.p.467., Grousset, Op.Cit., TomI, p294.

(227) William of Tyre, Op.Cit., vol. I .p.468.

وقد كان مجمعا برئاسة جبلين رئيس أساقفة ابرك المفوض البابوي عزل إيفرمار وذلك في أغسطس سنة ١١٠٧م، ومنحه رئاسة أسقفية قيسارية. انظر:

Rohrecht, Op.Cit, p.50, p.10 "1107 Autumno Concilium hierosolymitane quo president Gibelino, Archiepiscopal Arelatansi Apostolcas Legato Ebremarus Patriarcha accepturus." R.R.No.50, p.10.

والواقع؛ أن جبلين كان قد قدم إلى القدس بناء على أوامر البابا الذي عهد إليه ببحث القضية، وتجدر الإشارة إلى أنه استمع إلى الشهود في بيت المقدس، واتخذ قراره السابق وفقا لشهادة الشهود. أنظر:

Roerich., Op. Cit., No 49, p.9.

وقد تولي أرنولف مالكورن البطريركية خلفا لجبلين، وبذلك فاز أرنولف مرة ثانية بالمنصب الذي طرده منه دايمبرت من قبل. وشهدت تلك الفترة وفاقًا بين الملك، ويرجع ذلك حرص أرنولف على إبقاء التفاهم والتعاون مع الملك(٢٢٩).

ولا شك؛ أن ذلك الحرص أرضي الملك بلدوين الذي كان حريصًا على تثبيت أركان مملكته، وأن تكون له السيطرة التامة على أركان المملكة والكنيسة معًا، وألا تكون هناك قوة أخرى غير قوة الملك وسلطانه. تولى جرموند البيكويني Gormound de Picqiny (١١١٨-١١٢٨م)(٢٣٠) خلفًا لأرنولف. ورغم اتساع حدود المملكة في عهده فإن العلاقة بين الكنيسة والملك لم تشهد مشاكل من أي نوع.

وأيًا ما كان الأمر؛ فإن النزاع تجدد في بطريركية خلفه ستيفن أسقف سان جون Steven bishop saint John (١١٢٨- ١١٣٠م)، وبدأ في تصعيد المواجهة بمعارضة الملك. وزعم أن مدينة يافا تتبعه، كما طالب بالمدينة المقدسة بعد سقوط عسقلان(٢٣١). لقد أراد ستيفن إنعاش الإدعاءات التي أطلقها سلفه دايمبرت في الماضي، ولكن تلك المطالب في ذلك الوقت بدت غير واقعية. وتم تجاهلها ببساطة، وانتهى النزاع بموت ستيفن المفاجئ(٢٣٢).

وفيما تلى ذلك فإن بعض التشاحن بين الملوك والبطاركة صاحب تاريخ المملكة إلا أنه يمكن القول - بصفة عامة - أن رجال الدين كانوا أتباعًا منقادين أوفياء للملوك ومن المؤيدين لهم(٢٣٣).

---

(٢٢٨) أنظر:

William of Tyre, Op.Cit., Vol.I, p.468.

(٢٢٩) عمر كمال توفيق: المرجع السابق، ص٨٥.

Boase, Op.Cit., p.42.

(٢٣٠) جرموند Gormond أو جرمون Germond، أو جيرمون Guarmond أو فرموند Waremond ولد في بيكويني Picquigny انظر:

L. De Mass Latrie, Op.Cit, p. 18, William of Tyre, Op.Cit ., vol.II, p.39.

(231) Richard, Le Royaum ., p.94, Prawer, Op.Cit., p.160.

(٢٣٢) يحاول وليم الصوري برغم أنه لا يملك دليلاً محددًا على ذلك - أن يعطي انطباعًا أن ستيفن مات مسمومًا، ويذكر أنه بينما كان في فراش الموت جاءه الملك ليعوده مستفسرًا عن حالته، فكانت إجابته "سيدي إنني الآن في الحال التي ترغبها".

William of Tyre, Op.Cit., Vol. II, p.40.

(233) Prawer, Op.Cit., p.161.

مما تقدم نجد؛ أن الكنيسة اللاتينية تلك المؤسسة الضخمة في مملكة بيت المقدس والتي ترعاها البابوية لم يتمكن رجالها من القيام بأي دور حازم. لقد قامت المستوطنات الصليبية بسيوف النبلاء العلمانيين، وظل الدفاع عنها مسئوليتهم لذلك فإنهم لم يسمحوا أن تكون للكنيسة سلطة عليهم.

وفي الوقت الذي حرصت فيه البابوية على سمو مطالبها في الغرب والشرق كما رأينا، فالحقائق التي كانت على مملكة بيت المقدس أن تواجهها، سواء جغرافيًا أو تاريخيًا، أكدت أن سياسة البابوية في غرب أوربا لا يمكن أن تمتد بنفس الفعالية فوق أرض الشرق العربي. لذلك كله كان طبيعيًا رغم أن الحملة الصليبية "فعلة كنسية" أن تكون العلاقة بين الكنيسة والدولة في بيت المقدس علاقة التابع بالمتبوع، وأن تكون مطالب رجال الكنيسة متواضعة في مواجهة التاج.

وحقيقة الأمر؛ أن البطريرك الذي كان الممثل الرئيس للكنيسة وللبابا في الشرق لم يحرز الزعامة في المملكة أو حتى المدينة المقدسة، لقد فشل دايمبرت في ذلك ولم يفلح غيره ممن حاولوا تحقيق الأسبقية للكنيسة في مملكة مؤسسة حديثًا، ولكن تم ترضية السلطة الروحية من قبل السلطة الزمنية في بيت المقدس بأن تكون للبطريرك السلطة الذاتية الواسعة على الحي البطريركي.

ذلك الحي الممتد من الباب الغربي بوابة داوود إلى برج تانكرد في الشمال الغربي ومن الشرق إلى بوابة القديس اسطفان، وهو أهم أحياء المدينة حيث يضم أقدس الأماكن المسيحية، وصار قصر البطريرك هو مقره الإداري، ويقع إلى الشمال الغربي من كنيسة القيامة، وهو قصر قديم شيدته الإمبراطورة إيدوكيا في القرن الخامس الميلادي، ويبدو أنه اختفي من الوجود في القرن الثاني عشر للميلاد.

ذلك لأننا نجد أن البطريرك نقل مقره إلى مبان أعدت له فوق الجزء العلوي من القاعة الرئيسية لكنيسة الضريح المقدس Routenda، ولم يستمر البطاركة بإدارة شئون الكنيسة من ذلك المقر، فقد تم بناء قصر منيف حوالي منتصف القرن الثاني عشر، ولعل ذلك تم عند إعادة تطوير الكنيسة والمباني الديرية حولها[٢٣٤].

(234) Boas, Adrian J.: Jerusalem in The Time of Crusade, London 2001, , pp.83-84.

ومهما يكن من أمر؛ فإن الكنيسة اللاتينية كان لها دورها فوق الأرض المقدسة ومارسته من خلال طبيعتها كهيئة دينية لها علاقاتها المختلفة ومن بين تلك العلاقات كان علاقتها بالمنظمات الدينية الحربية.

المنظمات الدينية الحربية

وتعد منظمة الاسبتارية Hospitallers أو فرسان القديس يوحنا أول تلك المنظمات(٢٣٥). وقد حظيت برضاء الحكام في بيت المقدس نتيجة لما قامت به من أعمال الخير ورعاية المرضى والحجاج، كما منحها ملوك الفرنجة أراض متسعة، وكثير من الممتلكات في سني حكمهم الأولى(٢٣٦).

ويبدو أن موقف البطريرك ورجال الدين من تلك المنظمة لم يكن مختلفًا إبان نفس الفترة. فقد حظيت منظمة الاسبتارية برضاء البطريرك ورجال الدين، ففي سنة ١١١٢م. قرر بطريرك بيت المقدس ورئيس أساقفة قيسارية إعفاء المنظمة دفع ضريبة العشور للكنيسة(٢٣٧).

ويلاحظ أن العلاقة سرعان ما تغيرت بين الكنيسة ومنظمة الاسبتارية، ففي سنة ١١١٣م تمكنت المنظمة من الحصول على مرسوم بابوي بالاعتراف بها ويعني ذلك

---

(٢٣٥) تأسست الاسبتارية على يد جماعة من تجار أمالفي بالقرب من كنيسة القيامة ببيت المقدس بغرض تقديم أعمال الخير والإحسان ورعاية الحجاج وذلك سنة ١٠٧٠م. وتنسب إلى تلك المستشفي جذور منظمة الاسبتارية الذين اتخذوا من القديس القبرسي يوحنا المحسن - الذي صار فيما بعد بطريرك الكنيسة الإسكندرية - حاميا لكنيستهم ثم استبدلوه بيوحنا المعمدان، الذي كان أكثر شعبية من سلفه. للمزيد أنظر:

William Miller, Essay on the Latin orient, p.528, Benvenisti, The Crusades in the Holy Land, p.58, Richard, Hospital Congregation in the Latin Kingdom during the first period of the Frakish Conquest, in Croises, Missionares et Voyageurs, London 1983., p.10.

(٢٣٦) تلقي النظام منحا من جودفري الذي أقطعهم نتيجة إعجابه بهم إحدى الضواحي وجعلها وقفا عليهم، انظر: حسن حبشي: المرجع السابق، ص٩٦.

Boase, Op. Cit., p.80.

كذلك وافق بلدوين الأول على امتياز يمنح النظام كل الأملاك التي يحوزها في سنة ١١١٠. أنظر:

R. Rohr chit, Op.Cit., R.57, pp.12, 13.

(٢٣٧) محمود محمد الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م، ص٥٨.

استقلال النظام عن أي سلطة عدا سلطة البابوية بالإضافة إلى تمتعها بحماية وضمان أحقيتها لممتلكاتها سواء في الشام أو أوربا مع إعفائها من دفع أية ضرائب(٢٣٨).

وبالفعل أخذت المنظمة تتبلور ويصبح لها كيانها واستقلالها ونظامها الخاص. وساعدها على ذلك ما حازته من ممتلكات في أنحاء غرب أوربا سواء في إيطاليا أو أسبانيا أو فرنسا وغيرها، لقد صارت المنظمة أكثر ثراء وأكثر ثباتًا(٢٣٩).

وقد حدث تحول آخر في نظام الاسبتارية، فبالإضافة إلى نشاطها في رعاية المرضي والحجاج، قامت بالمشاركة في أعمال الحرب. ومن الصعب تحديد تاريخ ذلك التحول بيد أن أول مشاركة ملموسة حدثت في سنة ١١٣٦م عندما منح الملك فولك الإسبتارية قلعة بيت جبلين Beth Gibelin لحراسة الطريق بين الخليل وعسقلان(٢٤٠).

وكان اتجاه المنظمة إلى ميدان القتال والمشاركة في أعمال الحرب له أسبابه. فقد ظهرت منظمات دينية أخري اتخذت النشاط الحربي أساسا لوجودها، وكان على الإسبتارية أن تتبع ذلك النمط خاصة وأن مثل ذلك النشاط جلب على أتباعه رضا البابوية والفرسان الإقطاعيين الذين قد لا تلائمهم حياة الرهبنة الكاملة(٢٤١).

وقد قامت هيئة الأسبتارية بدور فعال في الدفاع عن المملكة، كما شاركت في عديد من الحروب، بل قل أن توجد معركة لم يشارك فيها الاسبتارية(٢٤٢). ويذكر قس ورزبورج Wurzburg أنه شاهد القلاع المختلفة الخاصة بالاسبتارية، وبها أشخاص

---

(٢٣٨) اعترف البابا باسكال الثاني بالاسبتارية بإصداره وثيقة تكوين المنظمة المؤرخة في ١٥ فبراير سنة ١١١٣م للمزيد من التفاصيل أنظر: محمود الحريري: المرجع السابق، ص٥٨.

Benvenisti, Op.Cit. p.61, Doase, Op.Cit.p.81.

(٢٣٩) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٤٨٧.

Bernard Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, the Secular church, London 1980, p0150.

(240) Bernard Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, The Secular Church, London1980, p.80.

(٢٤١) اعتمد نظام الداوية - كما سنري - على النشاط الحربي واتخذه أساسا لوجوده. وقد دفع ذلك مع بعض العوامل الأخرى مثل رضا البابوية والإقطاعيون مثل هذا النشاط - إلى أن يخوض الإسبتارية التحدي بإضافة أعباء عسكرية إلى التزاماتهم. وسرعان ما أخذت الرايات السوداء والصلبان ذات النقط الخمس مكانها كعلامة مميزة لفرقهم، وتصبح جموعهم قوة ضاربة في جيش المملكة اللاتينية للمزيد انظر: براور: المرجع السابق، ص١٩٤.

(242) R.C.Smail, The Crusaders., p.55.

كثيرون يمارسون مختلف أنواع التدريبات الحربية للدفاع عن أرض المسيحية ضد غزوات العرب(٢٤٣).

وبالرغم من الصورة التي نقلها لنا ثيودريك Theoderich بشيء من الإعجاب والدهشة حول الخدمات التي كانت منظمة الاسبتارية تقدمها بشكل يومي للحجاج والفقراء والمرضى(٢٤٤)، إلا أننا نجد تحولاً في اهتمامات المنظمة فقد اختفت الأهداف والدوافع النبيلة في عمل الخير نتيجة الاهتمام بأنشطة أخرى سياسية واقتصادية(٢٤٥).

وقد كان لذلك التحول أثره في العلاقة بين المنظمة والكنيسة اللاتينية في بيت المقدس، فنتيجة لدور منظمة الاسبتارية الحربي وجهودها في الدفاع عن المملكة وتحولها إلى اهتمامات جديدة عملت على تحدي سلطة الكنيسة وشهدت العلاقات بينهما وبين الكنيسة توترًا شديدًا. وبدأ ريموند (١١٢٠- ١١٥٨م) رئيس الاسبتارية في إثارة مشكلة كبيرة للبطريرك ورجال الكنيسة حول أمور تتعلق بالنفوذ الأبرشي(٢٤٦)، والعشور المدفوعة للكنيسة(٢٤٧).

وفي إطار تحدي سلطة الكنيسة عمل الاسبتارية على إعاقة تنفيذ العقوبات المفروضة على المدن أو الكنائس أو القلاع. وفي مثل هذه الحالة فإنه لا تدق أية أجراس، ولا تقام قداسات، لكن الاسبتارية كانوا يقومون - كما يذكر وليم الصوري -

---

(243) John of Wurzburg, Description of the Holy Land, in P.P.T.S., Vol. V, (trans.by Aubrey Stewart) London 1896, p.44.

(٢٤٤) يذكر ثيودريك عن تلك الخدمات: "لم نكن بقادرين بأي وسيلة على معرفة الرقم الحقيقي للمرضى الراقدين هناك، ولكننا رأينا أرقام الأسرة تزيد على الألف، وليس باستطاعة أحد، حتى أقوى الملوك أن يعتني بمثل ذلك الجمع من الناس يوميا". أنظر:

Theodrich, Description of the Holy Land, in PPTS, vole V, trans. Aubrey Stewart, London, 1896, p.22.

(٢٤٥) محمود الحويري: المرجع السابق، ص٦٤.

(٢٤٦) فيما يتعلق بالنفوذ الأبرشي نجد الاسبتارية يدعون الجميع إلى قداسهم دون تمييز، حتى أولئك الذين طردهم أساقفتهم من الكنيسة أو حرموا بالاسم نتيجة خطاياهم كعقاب لهم، كما نجد فرسان الاسبتارية يفرضون حمايتهم على أولئك الذين لعنهم أساقفتهم. انظر:

William of Tyre, Op.Cit., p.239, Conder, Op.Cit., p.170.

(247) William of Tyre, Op.Cit., p.239.

بدق نواقيسهم أعلى من المعتاد، داعين أولئك المحرومين والمعاقين إلى القداس، يدفعهم إلى ذلك رغبة الحصول على الهبات وما يحق للكنائس(٢٤٨).

ونتيجة لإحساس الاسبتارية أنهم هيئة مستقلة، فقد عملوا على هجر العرف المتبع في تقديم رهبانهم إلى أساقفة المناطق الموجودون بها(٢٤٩).

وفيما يتعلق بالعشور، فإنهم رفضوا رفضًا مطلقًا أن يدفعوها عن منافعهم الخاصة أو الربوع التي لهم، وكان الأساقفة يجأرون ضدهم بالشكوى وكل الكاتدرائيات - في كل مكان - عانت من تلك الخسارة(٢٥٠).

ولم يتوقف الأمر بالنسبة للإسبتارية عند تحديهم للسلطة، بل عمدوا إلى محاربة سلطة الكنيسة، وخاضوا معها صراعًا على السلطة اتخذ أشكالاً مختلفة، مما دفع المؤرخ وليم الصوري إلى توجيه اللوم إليهم واتهامهم بالغطرسة والتعالي في علاقتهم بالبطريرك والكنيسة، ورأى أنهم ارتكبوا خطأ لا يمكن تداركه، فقد أقاموا لهم صرحًا ضخمًا في مواجهة أبواب كنيسة القيامة، وجعلوه أكثر ارتفاعًا(٢٥١).

وزاد من توتر العلاقة بين الإسبتارية والكنيسة ما كان يقومون به من إساءة للبطريرك في أوقات القداس، فقد كانوا يقومون بدق الأجراس العديدة الضخمة ذات الرنين المرتفع فلا يسمع صوت البطريرك، ولا شك أن ذلك العمل كان مصدر شكوى من جانب البطريرك، ورغم النصح المتكرر فإن الاسبتارية لم يتوقفوا عن أعمالهم(٢٥٢).

وظلت العلاقة بين الإسبتارية ورجال الكنيسة بهذا التوتر، بل كانت هنالك نقاط كثيرة للاحتكاك بين الجانبين تمثل صراعًا على السلطة والقوة وتبدو فيها سلطة رجال الدين بلا فعالية(٢٥٣). ويمكن إرجاع ذلك إلى شعور الإسبتارية أنهم جماعة متميزة

---

(248) Ibid.p239.
(249) Ibid.p239.
(250) Ibid., p.240.
(251) Ibid., p.240.

عن شكل البناء وملحقاته، انظر:

Benvinisti, Op.Cit., p. 62.
(252) William of Tyre, Op.Cit., v.II, p.240, also, Richard, Hospitals., p.12.
(٢٥٣) يعد استقلال هيئة الاسبتارية عن سلطة البطريرك ضربة قاضية لسلطة رجال الدين بالشام، انظر: نبيلة مقامي: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، رسالة

مستقلة عن سلطة البطريرك وتبعون البابا مباشرة، ويتمتعون بميزات خاصة عديدة، ولم تكن للبطريرك سلطة معاقبتهم أو مصادرة أراضيهم أو أي عمل من هذا القبيل.

ثاني المنظمات الدينية الحربية كانت منظمة فرسان الداوية، ويرجع الفضل في تأسيس تلك المنظمة إلى فارس برجندي يدعي هيو الباينزي Huge de Payns سنة ١١١٨م، وكانت غايته حماية طرق الحج وتوفير الأمن للحجاج إلى الأماكن المقدسة من ميناء يافا إلى بيت المقدس عبر الرملة، حيث كان هناك كما في أي وقت مضى قطاع طرق محليين[٢٥٤]. وقد بدأت المنظمة بمجموعة من الفرسان عددهم ثمانية واعتبروا أنفسهم جند المسيح، وعاهدوا الله على العفة والطاعة والتقشف، وأطلقوا على أنفسهم أتباع جنود المسيح الفقراء The Poor Fellow of Jesus Christ[٢٥٥].

ومنحهم الملك بلدوين الثاني (١١١٨- ١١٣١م) مقرًا لهم في القصر الملكي حيث أعطوا جناحًا بالقرب من معبد سليمان، وهو المسجد الأقصى في بيت المقدس لذا أطلق عليهم المعبدين Templars أو فرسان المعبد، وعرفوا أيضًا بالداوية نسبة إلى محراب داود[٢٥٦].

ولم يختلف موقف البطريرك عن موقف الملك بالنسبة لمنظمة الداوية، فقد رحب بهم البطريرك جرموند بطريرك بيت المقدس لسمو أهدافهم ولخدمتهم للدين، وتلقي منهم القسم على خدمة المسيح طبقًا للقوانين المعمول بها[٢٥٧]. وكان لمساندة القديس برنار الكليرفوي أثرها في فوز المنظمة برضاء البابوية[٢٥٨].

ماجستير تحت إشراف د. حسنين محمد ربيع، جامعة القاهرة ١٩٧٥م، ص١٠٦.

(254) Boase, Op.Cit., p.84, Miller, Op.Cit., p.528.

(٢٥٥) محمود الحويري: المرجع السابق، ص٦٦.

(٢٥٦) نفسه.

Benvenisti., Op.Cit., 64-65.

(٢٥٧) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص٦٦.

William of Tyre, Op.Cit., v.II, p.529.

(٢٥٨) أمكن للداوية الحصول على حماية البابا هونوريوس الثاني (١١٢٤ - ١١٣٠م) في سنة ١١٢٧ وفي سنة ١١٤٦ جاء اعتراف ايوجين الثالث (١١٤٥- ١١٥٣) تأكيدًا لنجاحهم وازدياد نفوذهم. انظر: حسن حبشي: المرجع السابق، ص٩٩،

Also cf. Conder, Op.Cit., p.202, Painter, A History of the Middle Age., p.210.

وقد جذبت منظمة الداوية إليها الفرسان نتيجة لما كانت تقوم به من أعمال حربية، لقد وجد أولئك الفرسان في المنظمة ما يلاءم ميولهم فكان عضو الداوية قادرًا على ممارسة معظم ميوله تحت رعاية الكنيسة، وكان مدركًا تمامًا أن وظيفته العسكرية مكرسة لخدمة ومجد الرب(٢٥٩).

وبالفعل مارس النظام بالإضافة إلى حماية الطرق وتأمين الحج أعمالاً حربية، وشارك فعلاً في حروب المملكة، واعتمد الملك والنبلاء على قوة الداوية الذين كانوا ينطلقون إلى ساحات الحرب تحت راياتهم البيضاء المسماة Balzaus ولا يجوز لأحد منهم أن يعطي للعدو دبره(٢٦٠).

وكان لنشاط المنظمة الملحوظ في ميدان الحرب أثره في ازدياد عدد الفرسان المنضمين إليها. كما تزايدت مصادر ثرواتها، فقد تدفقت عليهم من كل حدب وصوب، وحازت الداوية أملاكًا شاسعة في أوربا ومملكة بيت المقدس ذاتها(٢٦١).

غير أن فرسان الداوية سرعان ما هجروا أهدافهم ومثلهم، وكان وراء ذلك ما حازته المنظمة من ميزات ونفوذ اجتماعي وسياسي، وجاء تحولهم إلى الناحية المالية والنشاط المصرفي ضربة قاصمة للطهارة والعفة والتقشف(٢٦٢).

وفيما يتعلق بعلاقة الداوية بالكنيسة اللاتينية في بيت المقدس فإننا لا نجد دليلاً على وجود منازعات بين الجانبين أو خلاف من أي نوع إبان القرن الثاني عشر. ويري هاملتون أن العلاقات كانت طيبة في تلك الفترة، ودلل على ذلك من خلال عدة شواهد، فقد ذهب الداوية إلى طرطوس بناء على طلب أسقفها.

ولم يذهب الداوية إلى غزة التي تتبع بطريرك القدس إلا بعد أن تركت لهم. ولم يكونوا عائقًا لسلطة البطريرك على الكنائس بل أنهم أقاموا كنائسهم من أماكن لم يكن بها كنائس من قبل(٢٦٣).

وبذلك يمكن القول؛ برغم تمتع الداوية بالاستقلال عن سلطة البطريرك إلا أنهم حافظوا على علاقات طيبة مع الكنيسة في بيت المقدس في القرن الثاني عشر(٢٦٤)،

(٢٥٩) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص١٩٢.

(260) Anonymous Pligrim III, in P.P.T.S., p.20.

(٢٦١) حسن حبشي: المرجع السابق، ص٩٨.

(٢٦٢) عن طبيعة ذلك النشاط المالي والمصرفي انظر: محمود الحويري، المرجع السابق، ص٦٧- ٦٨.

(263) Hamilton., Op.Cit., p.109.

وجدت إلى جانب هذين التنظيمين تنظيمات أخري مماثلة، منها فرسان التيوتون، وفرسان القديس لازاروس، والقديس توما، إلا أن علاقة تلك التنظيمات بالكنيسة لم تكن تتعدي أكثر من مجرد احتكاك بين العلمانيين والاكليروس عند بداية تأسيس نظام عسكري ديني جديد.

العلاقة بين الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس والكنائس الشرقية

وفي إطار علاقات الكنيسة اللاتينية في مملكة بيت المقدس، تجيء علاقتها بالكنائس الشرقية. فعند قدوم اللاتين إلى الشرق في نهاية القرن الحادي عشر وجدوا الكنائس الشرقية مقسمة إلى أربع كنائس رئيسية تمثلت في اليونانيين الأرثوذكس والسوريين الملكانيين واليعاقبة أتباع يعقوب البرادعي Jacob Baradaes، ومعهم الأرمن والمارونيين(٢٦٥).

وكان من الممكن إقامة جسر من التفاهم بين مسيحي الشرق والغرب، غير أن اللاتين لم يفطنوا إلى ذلك وضاعت الفرصة من يدهم. ويرجع ذلك إلى مسلك اللاتين نحو مسيحي الشرق، سواء التابعين للكنيسة الأرثوذكسية أو باقي الطوائف الشرقية.

ويعد موقف اللاتين تجاه الطائفة اليونانية ذا أهمية خاصة لما تمثله هذه الطائفة من الناحية العددية، وما لها من مكانة ونفوذ قائم على تنظيم كنسي جيد وراسخ(٢٦٦). وكان طبيعيًا أن يبرز ذلك الموقف من خلال خلفية تاريخية لما كانت عليه العلاقات بين روما وبيزنطة - وقد سبق تناولها في الفصل الأول- لذلك لم يكن مستغربًا أن تتم العلاقة بين الجانبين اللاتيني واليوناني في إطار محدود، ومرد ذلك إلى صعوبة تقبل اللاتين سيادة رجال الدين الشرقيين عليهم، وصعوبة وجود سلطة دينية موحدة تضم الشرقيين واللاتين - لاهوتيًا- معًا(٢٦٧).

---

(٢٦٤) تغير الوضع في العلاقات خلال القرن الثالث عشر وصار الداوية مثل الاسبتارية، موضع تهديد لسلطة الكنيسة العلمانية في مملكة القدس الثانية وهي فترة تلي البحث، انظر:

Hamilton., Op. Cit., p.109.

(265) Conder, The Latin Kingdom, p.218.

(٢٦٦) عن تنظيم الكنيسة اليونانية انظر:

Emil Hermans, The Secular Church, in C.M.H, Vol. IV, London1962, pp.105 - 133.

(٢٦٧) انظر: براور: عالم الصليبيين، ص١٠٣.

ولقد قامت العلاقة بين اللاتين واليونانيين على أساس وضحت معالمه عقب وفاة المندوب البابوي أدهيمار(٢٦٨)، وتمثل في اتجاهين أولهما كثلكة المناطق التي بحوزتهم، وثانيهما جعل اليونانيين أتباعًا لهم وضمهم إلى حظيرة البابوية في روما.

وكانت أول خطوة على طريق الكثلكة هي رسم أسقف لمدينة البارة جنوب شرق أنطاكية، وكان ذلك الحدث بداية لإقامة كنيسة لاتينية دائمة في بلاد الشام(٢٦٩).

ولا ريب أن الإجراءات التي اتخذها اللاتين في شأن الكثلكة أثرها في توتر العلاقة مع رجال الكنيسة اليونانية، فقد لجأ اللاتين إلى استبدال البطاركة في كنيستي أنطاكية وبيت المقدس، ففي أنطاكية أقيم برنارد الفالنزي Bernard of Valence الراهب اللاتيني بدلاً من يوحنا الأنطاكي(٢٧٠).

وعقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، ونتيجة لخلو الكرسي البطريركي من شاغله اليوناني سمعان الثاني SymeonII(٢٧١)، أقاموا من بينهم البطريرك أرنولف، بيد أن الكنيسة البيزنطية واصلت تعيين البطاركة سواء لأنطاكية أو بيت المقدس(٢٧٢). وقد يبدو ذلك العمل ملائمًا إلى حد بعيد فيما يتعلق بأنطاكية التي كانت تضم عددًا ضخمًا من السكان البيزنطيين، إضافة إلى مزاعم الإمبراطور البيزنطي في امتلاك أنطاكية(٢٧٣).

---

(٢٦٨) فيما يتعلق بموقف أدهيمار من الكنائس الشرقية فإننا نجده يتبع أسلوبًا دبلوماسيًا رائعًا، فقد اتصل بسمعان بطريرك بيت المقدس ليكسب وده وعطفه على الصليبية الأولى، كذلك أعاد يوحنا إلى منصبه كبطريرك لأنطاكية، وليس بالضرورة أن تلقي سياسة إدهيمار تجاه الكنائس الشرقية رضاء النبلاء في الحملة الصليبية. للمزيد أنظر إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص١١٧- ١١٩.

(٢٦٩) نفسه ص١٢٥.

(٢٧٠) عادل زيتون: العلاقات، ص٢٦٠.

(٢٧١) شاع خطأ أن سمعان الثاني قد لجأ إلى قبرس أثناء التواجد الفاطمي ببيت المقدس، إلا أنه ذهب إلى القسطنطينية.

Cf. Richard, The Political and Ecclesiastical Organization of the Crusader States, in Setton (ed.), A History of the Crusades, vole V, U.S.A. first published 1985, pp.233-250, pp.235.

(272) Ibid, p.235, Prawer, The Latin Kingdom, p.221.

(273) Prawer Joshua, Social Classes in The Crusader States, " The Minorities", ed. Setton, A History of the Crusades, Vol. v, U.S.A., pp.59-116, p.73.

غيـر أن رجـال الـدين الـذين رافقـوا سـمعان الثـاني إلـى منفـاه رأوا فـي تعيـين بطريـرك فـي المنفي من بينـهم أمرًا لا يقل أهميـة عن تعيين بطريـرك أنطاكيـة في المنفي أيضًا، ومرجع ذلك إلـى أنهم اعتبـروا اللاتين وكنيسـتهم القائمـة هنـاك معتـدين مغتصبين لما لا يحق لهم(٢٧٤).

وأيًا مـا كانـت دوافع الكنيسـة اليونانيـة فـي تنصـيب بطاركـة فـي المنفـي لكـل مـن أنطاكيـة والقدس، فلا ينبغـي تجاهل أمـر وجـود بطريـركين لكنيسـة واحـدة فـي وقـت واحد وما يمثله من خطأ ترفضه الكنيسة منذ الأزمنة الأولى للمسيحية(٢٧٥).

ولقد واصـل اللاتين سياسـتهم فـي كثلكـة الشـرق - فبعـد تعيين بطريـرك لاتينـي لبيت المقدس - سارعوا في رسم أساقفة لاتين في بقيـة الكنـائس التابعـة لـه(٢٧٦). وتلـى ذلـك الإجـراء عمـلاً زاد مـن تـوتر العلاقـة بـين الجـانبين اللاتينـي واليونـاني وقـوى مشاعر الاستياء بين اليونانيين.

فقد طلـب اللاتين منهم الاعتـراف بالأسـاقفة الجـدد، والخضـوع لهـم، كمـا أصـر اللاتين على ضرورة التمشي تبعًا للعقائد اللاتينية(٢٧٧). الأمر الـذي رفضـه اليونـانيون على كافة المستويات الدينية، عدا الشرائح الدنيا منهم، فقد اضـطروا لإعلان الطاعـة الاسـمية، وإبـداء الـولاء الكـاذب للاتـين، وبـدا ذلـك واضـحًا فـي القـدس عنـه فـي أنطاكية(٢٧٨).

وممـا تجـدر الإشـارة إليـه، أن نفـوذ اللاتـين الـديني امتـد فقـط علـى اللاتـين أو التابعين من الأهلين للشعائر اللاتينية، الأمر الذي كان لـه أثره فيما بعد لـدي استعادة المسلمين لأراضيهم وطرد الصليبيين حيث كانت تختفي برحيلهم كنيسة لاتينية(٢٧٩).

---

(274) Runciman, The Eastern Schism, p.41.
(275) Prawer, The Latin kingdom., p.73.
(٢٧٦) عادل زيتون: المرجع السابق، ص٣٦٣.
(277) Runciman, The Historic Role of the Christian Arabs of Palestine., London 1970., p.14.
(278) Smail R.C., Crusading Warfare, p.50-51., Conder, Op.Cit., p.194., Prawer, Minorities, p.37.
(279) Richard, Op.Cit., p.236.

وكان أقسي الإجراءات التي اتخذها اللاتين أثرًا في نفوس البيزنطيين هو انتشار الكنائس اللاتينية. فقد صاحب ذلك الإجراء في الغالب إتلاف الكنائس اليونانية. مما كان له أثره على الهيكل الكنسي اليوناني والممتلكات اليونانية.

وبدا الأمر وكأنه توارث للممتلكات اليونانية من قبل اللاتين، وتجلي ذلك في المدن أكثر من الريف(٢٨٠). وبدا واضحًا أن كثلكة الكنائس الشرقية في المدن والإمارات الصليبية في بلاد الشام بصفة عامة ومملكة بيت المقدس بصفة خاصة قد حققت نجاحًا، فها هي كنيسة أنطاكية وأيضًا بيت المقدس والأسقفيات التابعة قد صارت لاتينية الشعائر والطقوس(٢٨١).

وبدا الأمر وكأنه يعكس تجسيدًا لأحلام البابوية وطموحاتها على طريق الزعامة الدينية العالمية والسمو والسلطان التي ناضلت في سبيلهم البابوية أمدًا طويلاً - كما رأينا في الفصل الأول.

وكان وضع اليونانيين الأرثوذكس مختلفا تمامًا في الأديرة عنه في الكنائس، فقد ظلت الأديرة بأيدي الرهبان الأرثوذكس، ومرجع ذلك أنها كانت في أماكن منعزلة يتعذر بلوغها والتأثير فيها في غالب الأحوال(٢٨٢). وظلت تلك الأديرة وطنًا وملاذا للرهبان المتطلعين للعزلة عن العالم، وازدهر الأدب الكنسي الأرثوذكسي، واستمر إبان حكم الصليبيين في تلك الأديرة(٢٨٣).

وأيًا ما كان الحال بالنسبة لليونانيين الأرثوذكس، فإنه تجدر الإشارة إلى أن عددهم بالمملكة كان قليلاً بالنسبة لباقي الإمارات الصليبية.

وفيما يختص بالعلاقة بين الصليبيين وأتباع الكنيسة السورية، فإننا نجد أن الوضع لا يختلف كثيرًا عن سابقه بالنسبة للروم الأرثوذكس. فقد كان السوريان

---

(٢٨٠) براور: المرجع السابق، ص١٠٤.
Runciman, Op.Cit., p.14.
(٢٨١) للمزيد من التفاصيل انظر: عادل زيتون: المرجع السابق، ص٣٦٧.
(282) Prawer, Minorities., p.75.
(٢٨٣) براور: عالم الصليبيين، ص١٠٤، Ibid. p.75.

أتباعًا للعقيدة الأرثوذكسية وظلوا على ولاء لها على مر التاريخ، كما حافظوا على أداء قداستهم باللغة اليونانية رغم استخدامهم للغة العربية في تعاملهم اليومي[٢٨٤].

وتجدر الإشارة إلى؛ أن عدد السكان الأرثوذكس سواء السوريان أو اليونان تناقص مع مجيء الصليبيين وذلك نتيجة ارتياب المسلمين في ولائهم. فعمدوا إلى التخلص منهم وإبعادهم حتى لا يطعنوا من الخلف[٢٨٥].

وسارع الفرنجة - بعد الاستيلاء على بيت المقدس - إلى جلب جماعات سوريانية مسيحية من وراء نهر الأردن، فقد وجد بلدوين الأول في ذلك حلا لمشكلة نقص السكان التي كانت تعاني منها المملكة بعد خروج المسلمين والمذابح التي تعرضوا لها[٢٨٦].

ومهما يكن من أمر؛ فقد ظل المسيحيون الشرقيون أتباع الكنيسة الأرثوذكسية من سوريين أو يونانيين موضع ريبة الصليبيين. ومرجع ذلك تخوف الصليبيين من تآمرهم مع بيزنطة ضد مصالحهم، غير أن الصليبيين لم يطردوهم واستبقوهم لمهارتهم اليدوية وللقيام بالأعمال التي أنف الصليبيون من القيام بها[٢٨٧].

وزاد من توتر العلاقة وشعور الكراهية المتبادل بين الجانبين مقاومة السوريان الشديدة ورفضهم لمحاولة اللاتين كسب جانبهم وجعلهم أتباعًا لهم، كذلك استيلاء اللاتين على ممتلكات السوريان الأرثوذكس[٢٨٨].

ولعب التعسف اللاتيني في مواجهة الأرثوذكس دوره في التأثير على العلاقة المتوترة بين الجانبين بشكل أضاع معه كل أمل في عودة التفاهم والود تجاه الصليبيين. فنجد معاملة سيئة من قبل البطريرك أرنولف الذي أجبر السوريان على إظهار صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم[٢٨٩].

---

(284) Prawer, The Latin Kingdom., p.218.

(٢٨٥) محمود الحويري: المرجع السابق، ص٩٥-٩٦.

(286) Smail., Crusading Warfare., pp.49-50.

(٢٨٧) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٤٨٠.

(288) Conder, The Latin Kingdom., pp 144, 223., Smail., Op.Cit, pp50-51., Zernov., Op.Cit., p.105.

(٢٨٩) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٢٤٥.

وكانوا يحتفظون به تحت بوابة مواجهة للضريح المقدس. وقد مضى دايمبرت في نفس الاتجاه برفضه السماح للأرثوذكس بإقامة القداس في كنيسة الضريح المقدس لبعض الوقت. ويذكر متى الرهاوي أن دايمبرت صدم الحشمة الشرقية بإدخال راهبات للخدمة في الضريح المقدس. وكان ذلك في رأيه وراء عدم إفلاح النار المقدسة في الإضاءة بالضريح المقدس(٢٩٠).

وكان طبيعيًا أن يكشف السوريان عن عدائهم للصليبيين حينما قام صلاح الدين باسترداد القدس سنة ١١٨٧م. فقد آزروه وأعطوه ثقتهم. وكانوا أول المستفيدين من طرد الصليبيين فقد سنحت لهم الفرصة لاسترجاع نفوذهم وسلطانهم على الأماكن المسيحية المقدسة(٢٩١).

وبينما عد الصليبيون البيزنطيين والسوريان الأرثوذكس مجرد مقاطعين أو منشقين فإنهم اعتبروا بقية الطوائف المسيحية مجرد بدع دينية(٢٩٢). ومن بين تلك الطوائف التي تمثلت في بيت المقدس بنسبة عددية قليلة طائفة اليعاقبة، ويؤمن أفرادها بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، ويتحدثون العربية(٢٩٣).

وحظي اليعاقبة برضي الصليبيين، ولقوا منهم معاملة ودية إلى حد ما، رغم أنهم لا يمثلون أهمية حربية ولم يكن لهم وزن سياسي ولكن ذلك الموقف يرجع إلى مناوئة اليعاقبة للكنيسة الأرثوذكسية الأمر الذي مكنهم من الإبقاء على أديرتهم وكنائسهم في المدن الرئيسية في المملكة الصليبية(٢٩٤).

والواقع أننا نجد موقفًا غريبًا من جانب اليعاقبة تجاه كل الفاتحين لأرض الشام، سواء المسلمين الأوائل أو الأتراك السلاجقة أو حتى الصليبيين. فقد كان أولئك في نظر اليعاقبة أفضل من التواجد البيزنطي. وفي ظل التواجد السلجوقي تحرر اليعاقبة

---

(290) Mayer, Op. Cit., 66.

(٢٩١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج٢، ص٧٩٤.

(٢٩٢) براور: المرجع السابق، ص١٠٦.

(٢٩٣) عليه الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، عين شمس، ص٣٦٠.

(294) Smail, Op. Cit., p.44, Prawer, Minorities, p.76.

من سيطرة الكنيسة البيزنطية. ولم يختلف الوضع في ظل الصليبيين فقد احتفظ اليعاقبة بأديرتهم وكنائسهم(٢٩٥).

وفيما يتعلق بطائفة الأرمن، فإننا نجد العلاقة بينهم وبين الصليبيين أكثر ودًا، ويمكن إرجاع ذلك إلى أن الأرمن كانوا أول من رحب بالصليبيين، وذلك لأن الأرمن وكنيستهم عانوا من البيزنطيين مما أدي بهم إلى أن يصبحوا في النهاية حلفاء طبيعيين للفرنجة. كذلك فإنهم كانوا عاملاً سياسيًا في العلاقات البيزنطية الصليبية، وخاصةً فيما تلى من القرن الثالث عشر في إمارة أنطاكية(٢٩٦).

ولقد كان الأرمن يعيشون بإعداد كبيرة في مقاطعة أنطاكية، ويمثلون غالبية السكان في مقاطعة الرها، إلا أننا نجدهم في بيت المقدس أقل عددًا رغم حدب الصليبيين عليهم نتيجة ما أحرزوه من شهرة كمقاتلين لا يشق لهم غبار. وقد حظي الأرمن بالسلام في كل المقاطعات الصليبية بوجه عام، وفي مملكة بيت المقدس بصفة خاصة(٢٩٧).

وكان مقدس الأرمن في القدس القديس جيمس "St. James" وتعد كاتدرائيته أكبر الكنائس في الحي الأرمني بالقدس. وقد أنشئت في القرن السابع الميلادي أو قبله. وأعيد بناؤها أثناء الحكم الصليبي في حوالي منتصف القرن الثاني عشر، ولا تزال تلك الكنيسة منذ إنشائها وإلي اليوم تؤدي خدماتها للجماعة الأرمينية دونما انقطاع(٢٩٨).

طائفة أخرى من الطوائف المسيحية الشرقية كان لها تواجد في مملكة بيت المقدس اللاتينية وهي الطائفة المارونية. وقد اختلفت الآراء حول أصلهم وأصل تسميتهم. كذلك حول الموطن الأصلي لهم في الشام(٢٩٩).

---

(295) Prawer, Op.Cit., pp.68, 69.

(296) Ibid, 76.

(٢٩٧) عن وضع الأرمن بالشام والرها انظر: عليه الجنزوري: المرجع السابق، ص٣٦٥.

(298) Theodrich, Op.Cit., pp.21-22, Prawer, Minorities, p.68.

(٢٩٩) من بين الآراء حول أصل الطائفة المارونية أنهم جماعة من السوريين اعتنقوا المسيحية في أيامها الأولى واتخذوا من القديس مارون شفيعا لهم وأبا. وكان أول بطاركهم في القرن السابع يوحنا مارون John Maron (٦٥٨ – ٧٠٧) ويطالب بكرسي أنطاكية، وبرزت في عهده أول خصائص المارونية الوطنية. للمزيد انظر:

Conder, Op.Cit., p.218., Prawer, Op.Cit., pp.89-90.

محمود محمد الحويري: المرجع السابق، ص٨٨.

وقد عاش المارونيون في نهاية الأمر في جبل لبنان وعلى الأخص المنطقة الجنوبية ويرجع ذلك إلى ما عاناه الموارنة من اضطهاد اليعاقبة لهم(٣٠٠).

أما عن العلاقة بين الموارنة والصليبيين، فنجد أن تلك الطائفة أقرب إلى الحكام الصليبيين. ولم تكن هناك طائفة تحظي بمثل ذلك التقارب الكبير(٣٠١).

لقد تقبل المارونيون في سنة ١١٨٢م، الخضوع لسيادة كرسي الأسقفية الرومانية، وكان ذلك مكسبًا كبيرًا للكنيسة الكاثوليكية. وتعد حادثة هامة في تاريخ لبنان إن لم تكن في التاريخ الكنسي بأسره. وبذلك حازوا على حماية البابوية، ويمكن القول بأنهم تخلوا عن عقيدتهم الخاصة(٣٠٢).

وتعد فترة الحروب الصليبية العصر الذهبي للموارنة، فقد عظم شأنهم وزادت كنائسهم ومدارسهم عددًا، وأحسوا بالراحة والطمأنينة، وتوفرت لهم سبل الرزق، ووجدوا التأييد والمحبة في كنف اللاتين، واحتلوا المكانة الأولى والتقدمة على جميع الطوائف المسيحية(٣٠٣). وتجدر الإشارة إلى؛ أن بعض الطوائف مثل النساطرة والجورجيين والأقباط لم يمثلوا عاملاً هامًا في العلاقة مع اللاتين، ومرجع ذلك إلى ضآلة نسبتهم العددية بالمملكة اللاتينية.

مما تقدم نجد أن المسيحيين الشرقيين في مملكة بيت المقدس عاشوا في ظل علاقة متوترة مع الكنيسة اللاتينية فيما عدا طائفتي الأرمن والموارنة. ولقد كانت تلك الطوائف تتطلع إلى حرية العقيدة في الوقت الذي حاولت الكنيسة اللاتينية جذبها إلى الحظيرة الرومانية، مما كان له أثره على العلاقات بين الطرفين.

لقد دلت السياسة التي اتبعها رجال الدين الكاثوليك في بيت المقدس على أن الحكم الصليبي كان سيئًا منذ البداية، وكانت فترة الاحتلال فترة معاناة كاملة لطوائف الشرق عامة.

---

(300) Prawer, Op.Cit., p.65.

(٣٠١) براور: عالم الصليبيين، ص١١١.

(302) Baldwin, Medieval Church, p.109.

ولقد سمح لرجال الدين الموارنة كذلك أن يقوموا بخدمة القداس على مذابح لاتينية، وأخذت الكنيسة المارونية تتخلي تدريجيًا عن طقسها المألوف لتتبني الطقس اللاتيني، وصار رجال الدين الموارنة يرتدون الزي اللاتيني ولبس الخواتم والقلنسوة. للمزيد انظر: محمود الحويري: المرجع السابق، ص٩١.

(٣٠٣) محمود الحويري: المرجع السابق، ص٩١.

الفصل الرابـع

الكنيسة وواجباتها في مملكة بيت المقدس

- تنظيم الكنيسة في بيت المقدس.
- المنشآت الكنسية.
- ثروات الكنيسة ومصادر الدخل.
- دور الكنيسة في الحرب.
- الواجبات الرعوية:
  - أعمال الحج ورعاية الحجاج.
  - الأعياد.
  - العماد.
  - الإصلاحات الكنسية.

الفصل الرابع
الكنيسة وواجباتها في مملكة بيت المقدس

قبل قدوم الصليبيين إلى منطقة فلسطين وتأسيس مملكة بيت المقدس لم يكن هناك أي وجود للشعائر الدينية اللاتينية على أرض تلك المنطقة، فيما عدا مستشفى القديس يوحنا في القدس التي كانت تقدم خدماتها للحجاج اللاتين. ومع مقدم الصليبيين إلى المدينة المقدسة، وقيام حكمهم فيها، واتساع رقعة الأرض التي سيطروا عليها بدأت الكنيسة اللاتينية تأخذ شكلها تدريجيًا فوق الأرض المقدسة.

لقد بدأ تنظيم الكنيسة مع بداية اختيار البطريرك، وكان ذلك العمل منطقيًا، فقد كانت بطريركية بيت المقدس خالية من بطريركها الأرثوذكسي الذي ترك المدينة قبل قليل من قدوم الصليبيين، كذلك فإن اللاتين كانوا الغالبية المسيطرة على المدينة المقدسة حينذاك[٣٠٤]. وتزامن تنظيم الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس مع فتوحات وتوسعات الملوك، كما كان للعلاقة بين البطريرك والملك أثرها الواضح في شكل التنظيم.

لقد حصل دايمبرت من جودفري البوايوني، أول حاكم للقدس على ربع مدينة يافا، ووعد بإعطائه يافا والقدس معًا في حالة اتساع المملكة أو موته دونما وريث شرعي[٣٠٥]، بينما لم يتمكن من الحصول على مكسب ذي بال لصالح الكنيسة في عهد بلدوين الأول بسبب الخلاف الذي شجر بينهما. ولم يتغير الوضع في بطريركية ايفرمار (١١٠٢- ١١٠٨م) الذي كان يفتقر إلى القدرات التي يتحتم أن يتمتع بها رجل في مثل منصبة[٣٠٦].

ولقد كان خليفته جبلين (١١٠٨ - ١١١٢م) قادرًا على ممارسة دوره في تنظيم الكنيسة اللاتينية دونما معارضة من أي جانب لفوزه برضاء كل الأطراف سواء الملك أو رجال الدين.

---

(304) J. Richard, The Political and Ecclesiastical Organization of the Crusader States, p.235.

(305) William of Tyer, A History of Deeds., Vol. I, p.403.

(٣٠٦) للمزيد من التفاصيل حول طبيعة ايفرمار وحياته انظر:
William of Tyer, A History of Deeds., Vol. I, p.407.

اعتلى جبلين عرش البطريركية سنة ١١٠٨م، ولم يكن يتبع بيت المقدس سوي أسقفيتين، أقيمت الأولى في الرملة أثناء تقدم الصليبيين صوب بيت المقدس سنة ١٠٩٩م[٣٠٧]. وأقيمت الثانية في قيسارية عند استيلاء بلدوين الأول عليها سنة ١١٠١م، وقام برسم أسقف لايتني بها في نفس العام[٣٠٨]. ودفع ذلك العمل مؤرخًا مثل ريتشارد إلى القول بأن تنظيم الكنيسة كان عملاً ارتجاليًا[٣٠٩].

وكان على جبلين أن يعمل من أجل تنظيم الكنيسة بصورة منطقية، وقد كان اهتمامه الأول توفير الخدمة الكنسية التي تتناسب وقدسية بعض الأماكن، مثل بيت لحم التي قام برفعها إلى أسقفية رغم تعارض ذلك مع النظام الكنسي الأرثوذكسي السابق. وتكرر ذلك الأمر أكثر من مرة في مملكة بيت المقدس.

وكان هناك أكثر من سبب لمثل ذلك العمل بالنسبة لبيت لحم، لقد حظيت كنيسة المهد بقدسية خاصة، وتم بها تتويج بلدوين الأول ملكا، كما أن بلدوين الأول أراد رفعها إلى أسقفية وقام ببعض الإجراءات في هذا الشأن رغم أنها تتبع عسقلان حسب التنظيم الكنسي الأرثوذكسي وأرسل إلى البابا حول الأمر.

وكان جبلين على علم برغبة بلدوين قبل قدومه إلى القدس، فقد عهد إليه البابا باسكال الثاني ببحث الموضوع. وبقرار من البطريرك وموافقة من الملك ورجال الدين تم تنصيب اشيتنوس Aschetinus كأول أسقف لاتيني لبيت لحم على أن تتبعه عسقلان التي لم يستول الصليبيون عليها قبل سنة ١١٥٣م[٣١٠].

كذلك قام جبلين بتنصيب أسقف لاتيني لكنيسة الناصرة والتي بها الأماكن المقدسة وكنيسة البشارة[٣١١]، ولم يكن هناك تعارض بين ما قام به جبلين والنظام الأرثوذكسي

---

(307) Fulcher., Op.cit., p.115., Smail, The Crusaders in Syria, p.123.

ويذكر هاملتون أن أسقفية الرملة - اللد اختير لها القس النورماني روبرت الرويني Robertof Rouen انظر:

Hamilton Bernard ., The Latin Church in the Crusader State, London 1980., p.11.

(٣٠٨) تم ترسيم القس بلدوين رئيس أساقفة لقيسارية، وتم اختياره لهذا المنصب بالإجماع:

Fulcher., Op.Cit., p.155.

(309) Richard., Op.Cit., p.239.

(٣١٠) استقبلت بيت لحم أول أساقفتها سنة ١١١٠م، للمزيد من التفاصيل انظر:

Prawer, The Latin Kingdom., p.165., Richard., Le Royaum Latin., p96. Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land., p.160.

(٣١١)توجد كنيسة البشارة أو كبير الملائكة جبريل في مدخل مدينة الناصرة، وأيضًا كنيسة القديس يوسف.

القديم، فقد كان للمدينة أسقف يتبع البطريرك مباشرة غير أن المعارضة جاءت من قبل مقدم جبل طابور اللاتيني(٣١٢). الذي كان يزعم لنفسه مكانة أسقفية نتيجة حصوله على اختصاصات أسقف من قبل البابا باسكال الثاني سنة ١١٠٧م(٣١٣).

وتسلم أول أسقف لاتيني للناصرة مهام منصبة كما تبين الوثائق سنة ١١٠٩م، وامتد نفوذه على كل الجليل(٣١٤). ويمكن تفسير اهتمام جبلين ببيت لحم والناصرة في ضوء إحساس الصليبيين بأهمية أن تكون مثل تلك الأماكن التي تحوي الأضرحة الكبيرة للمسيحية ضمن الهيئة الكنسية، وألا تكون مهملة الشأن.

ولقد أراد جبلين نشر النظام الأوغسطيني(٣١٥)، وإقامة أساقفة لاتين في المدن الساحلية التابعة للمملكة، وكانت مدينة عكا بيد الصليبيين منذ سنة ١١٠٤م(٣١٦)، ورغم أهميتها فإنها لم ترق إلى أسقفية. وقد قام بلدوين الأول في سنة ١١١٠م بالاستيلاء على مدينتي بيروت وصيدا(٣١٧)، وتمثل المدينتان جزءًا من إقليم صور الذي يتبع بطريركية أنطاكية حسب النظام الأرثوذكسي القديم، غير أن جبلين، وبتأييد من الملك بلدوين، أراد ضم الميناءين إلى نفوذه الكنسي. ويرجع موقف بلدوين إلى رغبته في أن تكون المناطق التابعة لسيطرته تابعة لبطريركيته، وكان مبرر جبلين في ضم المدينتين هو أن خمسة قرون من التواجد الإسلامي كفيلة بإحداث فوضى في التقسيم الكنسي القديم(٣١٨).

Joans Phocas in P.P.T.S., Vol. V, pp.12-13.

(٣١٢) أسس تانكرد ذلك الدير بعد عام من استيلائه على الناصرة أي سنة ١١٠٠م وهو دير على تل مرتفع ارتفاعًا معتدلاً، ويقيم به رهبان لاتين كرسوا أنفسهم للحياة الديرية.

Joans Phocas in P.P.T.S., Vol. V, pp.14.

(313) Hamilton, Op.Cit., p.60.

(314) Prawer, Op.Cit., p.164.

(٣١٥) النظام الأوغسطيني نسبة لأوغسطين الذي ولد في مقاطعة نوميديا Numidia وعاش في شمال أفريقيا، حيث أصبح أسقفًا لمدينة هيبو Hippo، وظل هناك إلى أن مات في سنة ٤٣٠م. وكانت لأوغسطين تأملات في اللاهوت والميتا فيزيقا، وإليه أساسًا يرجع الإطار اللاهوتي للكاثوليكية المعروف بالنظام الأوغسطيني والذي استمر حتى عصر الإصلاح الديني، للمزيد انظر: برتراند راسل: حكمة الغرب، ص٢٤٥ - ٢٤٩.

(٣١٦) قام بلدوين الأول بمعاونة أسطول جنوا بفتح عكا سنة ١١٠٤م، وكان قد حاول فتحها في سنة ١١٠٣م ولم يفلح.

Fulcher Op.Cit., p. 176.

(317) Ibid., p.196.

(٣١٨) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٣٢٥.

وقد أخذت البابوية جانب بيت المقدس في البداية، حيث قرر البابا باسكال الثاني ضرورة ضم كل ما يفتحه بلدوين الأول إلى بطريركية القدس. وكان لاحتجاج بطريرك أنطاكية الشديد وإعرابه عن خشيته من ضياع بيروت وكل إقليم صور من عرشه إن تراجعت البابوية عن قرارها(٣١٩). ولدينا مجموعة الرسائل المتبادلة بين البابوية وبطريركيتي بيت المقدس وإنطاكية في هذا الشأن(٣٢٠). وتعكس تمسك كل طرف في مواجهة الأخر بمد نفوذه على إقليم صور.

ولقد كان إقليم صور جديرًا بأن يثير ذلك النزاع، فهو (أي إقليم صور) "مطرانية كل فينقيا والتي تحتل دومًا المرتبة الأولى بين أقاليم سوريا، إما بسبب غناه المبارك الوصف أو كثرة سكانه"(٣٢١). ولقد ظلت المشكلة حول إقليم صور معلقة حتى بعد وفاة جبلين، بيد أن ذلك لا ينتقص من دوره شيئًا، فإن ما قام به كان له أثره فيما بعد حول التنظيم الكنسي في الإقليم.

لم يحدث تقدم كبير في أمر التنظيم الكنسي خلال بطريركية أرنولف (١١١٢١١١٨م)، وذلك رغم أنه كان على وفاق مع الملك بلدوين الأول، وقد أمكن لأرنولف بمساندة بلدوين الأول فرض النظام الأوغسطيني على الرهبان الكنسيين بالضريح المقدس(٣٢٢).

ولقد تمت في عهد جرموند (١١١٨١١٢٨م) قليل من الإجراءات بشأن التنظيم الكنسي. وظل تنظيم الكنيسة في عهده دون اكتمال. غير أنه استطاع فرض النظام الأوغسطيني في الخليل بعد اكتشاف رفات كل من إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم

Richard, Op.Cit., p.97.

(319) Rowe, j.g., The Papacy and Ecclesiastical Province of Tyre, 1100-1180, The John Ryland's Library vol.43, Manchester 1960-61.p.172.

(٣٢٠) عن تلك الرسائل انظر:

Fulcher of Charter., Op.Cit., pp.269-270., William of Tyre, Op.Cit., Vol. II, pp.172-173., R.Rohricht, Op.Cit., R.No, 61.

(321) William of Tyre, Op.Cit.Vol. II, p.4.

(322) Boase, Op.Cit., Op.Cit., p.42.

يذكر وليم الصوري أن جودفري البوايوني قام بعد أيام قليلة من اختياره حاكمًا للقدس بإقامة أولئك الرهبان الكنسيين في كنيسة القيامة، وفي ضريح الرب Temple of the Lord، وأوقف لهم أوقافًا وأعطاهم المنازل الراقية بجوار تلك الكنائس محبة الله. وكانوا يعملون طبقًا للنظام الكنسي العادي. انظر:

William Of Tyre, Op.Cit., Vol.I, p.392.

السلام تحت أسوار كنيستها سنة ١١١٩[٣٢٣]. وكان لتقاعس جرموند عن أداء واجباته الدينية أثره في عدم اكتمال النظام الكنسي. فقد وعد برئاسة حفل نقل رفات الأنبياء الثلاثة إلى داخل الكنيسة، ورغم ذلك لم يفعل شيئًا[٣٢٤].

واستمر النزاع حول صور في عهد جرموند، وبرغم أن المدينة كانت لا تزال بحوزة المسلمين فإنه قام بتعيين أودو ODO في سنة ١١٢٢م رئيس أساقفة لها. ويمكن أن يفسر ذلك المسلك من جانبه بأنه محاولة لتأكيد نفوذه على الإقليم، إلا أن أودو مات قبل الاستيلاء على المدينة. ولم يقم جرموند بتعيين غيره إلا حوالي سنة ١١٢٧م، فقد كرس وليم الذي كان مقدمًا بالضريح لذلك النصب، وكان النصر حليف جرموند بقبول البابوية تبعية صور لبطريركية بيت المقدس[٣٢٥]. ورقيت في عهد جرموند أسقفية الناصرة إلى رئاسة أسقفية وصارت مطرانية الخليل وتم ذلك في نهاية عهده أي سنة ١١٢٨م[٣٢٦].

وحدث قليل من التطور في تنظيم الكنيسة في بداية بطريركية ستيفن الشارتري (١١٢٨-١١٣٠م)، فقد أمكن له إنشاء أسقفية في سبسطية رغم قلة عدد سكانها وذلك لأن بها مدفن القديس يوحنا المعمدان. وقد كانت تلك الأسقفية تابعة لرئاسة أساقفة قيسارية وأنشئت حوالي سنة ١١٢٩م[٣٢٧].

---

(323) Prawer, The Latin Kingdom., p.162.

ويذكر يوحنا قس ورزبورج أن مدينة الخليل سميت مدينة الأربعة لأن بها دفن كل من آدم وإبراهيم واسحق ويعقوب، انظر:

John of Wurzburg, in P.P.T.S., Vol.V, p.58.

وعرفت المدينة باسم حبرون بعد أن وفد عليها سيدنا إبراهيم من بلاد ما بين النهرين، وأحبه أهلها لدماثة خلقه، وعفته. فسموا المدينة بصفته وذلك أن معني حبرون أو الحبير هو الخليل أو الصديق الحميم ومن هنا أطلق عليها العرب اسم الخليل. انظر: أحمد رمضان أحمد: بيت المقدس والخليل، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، تحرير: قاسم عبده قاسم، رأفت عبد الحميد، المجلد الأول، القاهرة ١٩٨٢، ص٤٧- ٧٤، ص٧١.

(324) Hamilton, The Latin Church., p.243.

(325) Ibid, p.67., Richard, The Political Ecclesiastical., p.240.

(326) Richard, Op.Cit., p.243. \

(٣٢٧) كان بلدوين هو أول أسقف لسبطية. أنظر:

Hamilton, Op.Cit., p.68.

ويبدو أن ذلك تم نتيجة التعاون الذي كان بين البطريرك ستفن والملك بلدوين، إلا أن التعاون بينها كان قصير الأجل فقد دب الخلاف بينهما سريعًا مما كان له أثره على مواصلة مسيرة التنظيم الكنسي.

وفي بطريركية وليم الأول (١١٣٠- ١١٤٥م) نجد تنظيما لأوضاع الأسقفيات والمدن الساحلية ففي سنة ١١٣٣م أقيم الأسقف بلدوين بكنيسة بيروت وتم تكريس أسقف لاتيني لصيدا، واستقبلت عكا أول أسقف لاتيني لها في سنة ١١٣٥م رغم استيلاء الصليبيين عليها منذ سنة ١١٠٤م[٣٢٨].

ويمكن القول؛ أن التنظيم الكنسي اللاتيني كان عملاً بطيئًا وارتبط إلى حد كبير بفتوحات المملكة وتوسعاتها، لقد كان التنظيم في الأساس عملاً سياسيًا أكثر منه احتياجًا رعويًا.

وبالفعل فإن التنظيم لم يستقر ويتحدد شكله النهائي إلا قبل عقد تقريبًا من سقوط المملكة على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧م. ولقد كانت بتراء ثالث الكنائس المطرانية التابعة للقدس في النظام الأرثوذكسي القديم، وقام أماليك Amalric بطريرك بيت المقدس بتعيين جويركوس Guerricus أحد رهبان معبد الرب أول أسقف لبتراء بينما تم تعيين رينالد ابن أخت البطريرك فوشيه بطريرك بيت المقدس أسقفًا للخليل[٣٢٩].

لقد اتخذ التنظيم شكله النهائي من خلال أربع مناطق كنسية على قمتهم بطريركية القدس ويتبعها رئاسات أسقفية الناصرة، صور، بتراء، بالإضافة إلى أسقفيات تتبع البطريرك مباشرة هي أسقفية (اللد والرملة)، أسقفية بيت لحم وأسقفية الخليل.

وقد دعم ذلك الهيكل الكنسي انتشار العديد من الأبرشيات ذات الشعائر اللاتينية على مدى مناطق المملكة. ومن خلال تلك الأبرشيات أمكن للكنيسة ممارسة واجباتها

---

(328) Prawer, The Latin Kingdom., p.166.
(329) Hamilton, The Latin Church., p.77.

الرعوية المختلفة. غير أن السواد الأعظم من الجماهير الصليبية قد عاش داخل أسوار المدن أو القلاع[٣٣٠].

وبعكس الأسقفيات لم تكن هناك أهمية كبري للحدود الرسمية بين الأبرشيات. وقد انتشرت تلك الأبرشيات في المدن والمناطق الريفية. وكان لحجم المدينة وعدد سكانها أثره في مكانة الأبرشية وأهميتها، وبصورة عامة كانت أبرشيات المناطق الريفية أقل شأنًا من أبرشيات المدن، ويرجع ذلك إلى أن المناطق الريفية كانت قليلة السكان، وتشمل إلى جانب اللاتين مسلمين ومسيحيين شرقيين[٣٣١].

وكان لتلك الأبرشيات دورها في خدمة اللاتين وفقًا للشعائر اللاتينية، وتجدر الإشارة إلى أنها لم تكن أماكن للعبادة فقط وإنما عملت على تقديم كافة الخدمات التي احتاجها المسيحي اللاتيني في نواحي عدة من حياته كالعماد والزواج وغيره[٣٣٢]. لقد كانت الكنائس الكبيرة والكاتدرائيات في المدن والأبرشيات في البلدات الصغيرة والقرى صورة لنظام كنسي لاتيني غربي فوق أرض الشرق.

ورافق التنظيم الكنسي في مراحله المختلفة اهتمامًا كبيرًا بتشييد الكنائس أو إعادة بناء وترميم القائم منها من قبل. ولم يكن مستغربًا أن يلجأ الصليبيون إلى تشييد الكنائس بالأرض المقدسة رغم وجود العديد منها، ويرجع ذلك إلى ما كان يجتاح أوربا في تلك الفترة من حماسة دينية جارفة، وقد انتقلت تلك الحماسة مع الصليبيين، كذلك فإنه لسبب أو لآخر تعرضت بعض الكنائس للتهدم[٣٣٣].

وكان طبيعيًا أن يتجه اهتمام الفرنجة الأكبر نحو كنيسة الضريح المقدس لأنها أكبر وأهم الكنائس بالمدينة المقدسة. وقد وجد الصليبيون الجانب الشرقي من كنيسة الضريح المقدس عند مقدمهم مهدمًا، فقاموا بإعادة بنائها، وصارت في الحال كاتدرائية للبطريرك اللاتيني وألحق بها جماعة الرهبان الكنسيين. ويذكر ولـيم

---

(330) Prawer, Op.Cit., p.167.

(٣٣١) للمزيد من التفاصيل انظر:

Richard, Op.Cit.p.243.

(332) Hamilton, Op.Cit., p.87.

(333) Smail, The Crusaders in Syria., p.124.

الصوري أن اللاتين قاموا بتوسيع الكنيسة الأصلية(٣٣٤). لقد قاموا بإضافات وأيضًا ببعض أعمال الترميم مثل إنشاء جناح ملحق بالقاعة الرئيسية المستديرة Routunda ومنحه للجوقة. وتمت تلك الإضافات على الطراز الروماني الغربي. وانتهي العمل الذي استمر خمسين عامًا في يوم الخامس عشر من يونيه سنة ١١٤٩م في الذكرى الخمسين لغزو المدينة المقدسة(٣٣٥).

ويعطينا يوحنا وورزبرج صورة للمبني بعد اكتماله بعدد من السنوات وكيفية الزيارة والخدمة القائمة على حراسته فيذكر "أنه مبني دائري الشكل زخرف بالفسيفساء وفي مدخله الشرقي توجد غرفة انتظار، بها بابان من خلال أحدهما يمكن للأشخاص الدخول إلى الضريح، ومن الآخر يخرجون.

كما توجد بتلك الغرفة جماعة حراس الضريح ويوجد بها أيضًا باب ثالث صغير يقود إلى الجوقة. وخارج المبني أي على قمة الضريح، يوجد مذبح بنيت فوقه مظلة مربعة ذات ثلاث حوائط من حديد مشغول في تكوين جميل. ويعرف بمذبح الضريح المقدس"(٣٣٦). ويذكر بنفيستي أن الخطوط العامة للكنيسة لا تزال باقية إلى اليوم(٣٣٧).

وقد لجأ الفرنجة إلى تحويل المساجد إلى كنائس في أكثر من مدينة مع ما في ذلك من دلالة تعصب واضحة. ففي مدينة القدس قاموا بتحويل مسجد قبة الصخرة إلى كنيسة وبنوا شمالها ديرًا وأطلقوا عليها معبد الرب Templum Domini، ولجأ الصليبيون إلى تغيير معالم الجامع.

ولدينا وصف ثيودريك للهيكل، فيذكر أن الهيكل نفسه كان على شكل مثمن في جزئه الجنوبي، وقد زخرف ذلك الجزء حتى منتصف الهيكل برخام فخيم، ومن المنتصف إلى الكنار زخرف بأعمال الفسيفساء، وفي داخل ذلك الكنار وحول الهيكل بأكمله باتجاه من الشرق إلى الغرب مع مسار الشمس كتبت نقوش أولها: "السلام يكون لذلك البيت إلى الأبد، من الآب الخالد"، وعلى الجانب الثاني "مقدس هيكل

(334) William Of Tyre, Op.Cit., Vol. I, p.344.
(335) Smail, The Crusaders in Syria., p.130.
(336) John of Wurzburg, Op., Cit., p. 36.
(337) Benvenisti, Op.Cit., p.68.

الرب" ويمضي ثيودريك في ذكر باقي النقوش حتى الجانب الثامن وفيه كتبت "بيت الرب بُني جيدًا على صخرة ثابتة"(٣٣٨).

وقام الفرنجة بإقامة عدد من المذابح، ويبدو أن الهيكل استخدم في بعض الواجبات الرعوية مثل العماد. فقد أقاموا به أيضًا أماكن للتعميد في الفناء(٣٣٩)، وقد اعتلى قبة الجامع صليب ضخم، بيد أن تلك الإضافات أزيلت بأمر السلطان صلاح الدين الأيوبي عند دخول المسلمين القدس(٣٤٠).

وأنشئت في القدس أيضًا كنائس عديدة منها كنيسة القديسة مريم اللاتينية سنة ١١٠٣م، والقديسة مريم العظيمة سنة ١١٤٠م، وفي نفس العام أنشئت كنيسة القديسة آن بمساعدة العائلة الملكية وكانت ايفيت Ivette ابنة بلدوين الثاني وأخت الملكة مليسند Melisende راهبة من راهبات دير القديسة آن حتى سنة ١١٤٤م(٣٤١).

وكانت حركة التشييد قائمة على قدم وساق خارج القدس، وفي المدن الأخرى التابعة للمملكة، ففي مدينة بيت لحم قام الصليبيون ببناء دير يعمل وفق النظام الأوغسطيني ورفعت كنيسة بيت لحم إلى كاتدرائية. وكان طبيعيًا أن تمتد إليها يد التجميل والزخرفة بتصميمات من الفسيفساء لا تزال تجمل الحوائط المحيطة بصحن الكنيسة وجناحها ١١٦٠م(٣٤٢). وقد تأثروا في أعمالهم بالفن البيزنطي، وكان ذلك في سنة ١١٦٠م(٣٤٣).

ومن الواضح؛ أن سياسة الصليبيين تواصلت في مجال تحويل المساجد، ففي الخليل مدينة الأنبياء، والتي استولى عليها الصليبيون بعد قليل من استيلائهم على القدس تم تحويل الجامع الإبراهيمي إلى كنيسة(٣٤٤).

---

(٣٣٨) للمزيد من التفاصيل انظر:

Theodrich s Description, Op.Cit., pp.25-26.

(339) Benvenisti, Op.Cit., p.7o.

(٣٤٠) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، (٥١٩ - ٥٩٧) تحقيق وشرح وتقديم؛ محمد محمود صبيح، القاهرة ١٩٦٥، ص٣٧.

Smail., Op.Cit., p.131.

(341) Conder, The Latin Kingdom., p. 187, Benvenisti, Op.Cit., p.71.

(342) Benvenisti, Op.Cit., p.160.

(343) Smail, Op.Cit., p.124.

(344) Benvenisti, Op.Cit., p. 161.

كذلك كان الوضع في مدينة نابلس، فبالإضافة إلى الكنائس العديدة التي أقامها الاسبتارية تحول جامع النصر إلى كنيسة تتبع الضريح المقدس. ومن بين الكنائس التي شُيدت هناك كنيسة الآلام والقيام The Passiom and Resurrection وقد بُنيت في سنة ١١٦٨م، حيث قام رهبان الضريح المقدس ببنائها بموافقة الملك عموري. كما قام الفرنجة بإعادة الحياة إلى الكنيسة البيزنطية القديمة، وأضافوا إليها بعض التجديدات(٣٤٥).

وفي الناصرة أعاد الصليبيون بناء كنيسة البشارة، وذلك في حوالي الوقت الذي رقيت فيه إلى رئاسة أسقفية أي سنة ١١٢٨م، ويبدو أن ذلك التجديد محاولة لجعل الكنيسة على المستوي اللائق بمكانتها التاريخية والتنظيمية. كذلك أعاد الصليبيون بناء كنيسة اللد، وكانت قد تهدمت، وأضافوا إليها ديرًا(٣٤٦).

لقد انتشرت الكنائس في كل أنحاء المملكة، وأعيد الحياة إلى كثير من المتبقي منها، وعلى الرغم من عدم وجود كنيستين متشابهتين ضمن ما استحدثه الصليبيون من كنائس، إلا أنه توجد بين تلك الكنائس ملامح مشتركة.

شيدت الكنائس الصليبية من الداخل على النمط الملكي البازيلكي Basillican وفيه صحن الكنيسة الرئيس محاطًا من جانبه بجناح كنسي. ويستثني من ذلك كنيسة الضريح المقدس وكنيسة بيت لحم، رغم أن الأخيرة كانت على الطراز البازيلكي فقد كان بها جناحين على جانبي صحن الكنيسة(٣٤٧).

وكانت الكاتدرائيات أكثر حظًا في مقاومة الزمن والبقاء إلى اليوم وذلك لصلابتها وقوة بنائها، بينما تعرضت الكنائس والأبرشيات الصغيرة للاندثار. ويعطينا Smail قائمة تحوي مصير تلك الكاتدرائيات التي أمكن لها البقاء ويذكر جبيل والضريح المقدس ضمن تلك الكنائس(٣٤٨).

استولي الصليبيون على مدينة الخليل في سنة ١٠٩٩م، واقطعوها للأمير جيرهاردافين الذي أمر بهدم الحرم وأقام على أنقاضه حصنًا وديرًا وكنيسة صغيرة على الطراز القوطي، ولا تزال بقايا بازيليكا الكنيسة وعقودها العالية تشاهد في الصحن الذي يضم قبري اسحق وزوجته، أما باقي مباني وعمائر الحرم الإسلامية فما تزال باقية لم تمس. أنظر أحمد رمضان أحمد: بيت المقدس والخليل، ص٦٧.

(345) Benvenisti, Op.Cit., p. 165.

(346) Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel., p.71.

(347) Smail, Op.Cit ., p.132.

(348) Smail, Op.Cit., p.136.

وكان لاهتمام الفرنجة بأعمال الزخرفة والتصوير أثره الواضح على الكناس التي شادوها، لقد رسموا اللوحات الجصية والفسيفساء ووضعوا بالكنائس تماثيل بالحجم الطبيعي للمسيح والقديسين، كما نقشوا كتابات من الإنجيل(٣٤٩)، وبدا واضحًا تأثر الفرنجة بالفن البيزنطي، وربما قاموا بالاستعانة بالفنانين البيزنطيين(٣٥٠).

وكان طبيعيًا أن يكون وراء ذلك التنظيم الكنسي الكبير وحركة الإنشاء والتجديد والترميم في أنحاء المملكة اللاتينية مصادر تمويل كافية، لقد كان ضروريًا بالفعل وجود أكثر من مصدر لتوفير المال اللازم.

وبدايةً نجد أحد الحلول لتلك المشكلة متمثلاً في حقوق السيادة النسبية على المناطق التابعة للأسقفية، كما حدث في منطقة أسقفية اللد، حيث تم تعيين الأسقف روبرت الرويني Robert of Rouen أسقفا لها سنة ١٠٩٩م، ومنحه مدينتي اللد والرملة والمناطق المحيطة بهما.(٣٥١) وكان المصدر الثاني المتاح للتمويل هو تحويل الأوقاف الأرثوذكسية للأسقفيات اللاتينية التي أقيمت محلها.

غير أن ذلك الإجراء كان صعب التنفيذ، فقد كان من الضروري معرفة وتحديد تلك الأوقاف. ففي مدينة القدس لم يكن الأمر هينًا فقد رحل البطريرك الأرثوذكسي قبل ثمانية أعوام في صحبة رهبانه، وذلك قبل استيلاء الصليبيين على المدينة. وكان الأمر أكثر صعوبة في الأسقفيات التي استحدثها اللاتين فلم يكن لها أوقافًا. وفي مثل تلك الأحوال فإن أمراء الفرنجة كانوا مضطرين لمنحها أوقافًا جديدة وبيت لحم مثال لتلك الأسقفيات، فقد منحها الملك بلدوين الأول أوقافًا في الجوار وفي مدينة عكا ومنطقة عسقلان(٣٥٢).

وكانت الهبات التي تتلقاها الكنائس أفضل مصادر توفير المال، ولأن بعض الكنائس والأديرة كان لها نصيب كبير من الشهرة، فإن نصيبها كان أكثر من

(٣٤٩) للمزيد من التفاصيل حول كنائس القدس: لدينا زيارة فوقاس وذلك سنة ١١٨٥م، حيث ذكر الكنائس وما حدث فيها من إضافات وذلك قبل سقوط المدينة بعامين، انظر:
Johannes Phocas, A Brief Description, in P.P.T.S. London, 1896. Vol. V, pp. 17-35.

(350) Conder, OP.Cit., pp.188-189.

(351) Hamilton, Op.Cit., p.137.

(352) Ibid, pp.138-140.

الباقيات. وفي هذا الشأن كانت كنيسة الضريح المقدس أهم وأغنى الكنائس فقد حصلت على أراض داخل المملكة، وفي الأمارات الصليبية الأخرى، وأكثر من ذلك في كل أنحاء أوربا الغربية(٣٥٣).

وإذا كانت بيت لحم والضريح المقدس قد فازا بنصيب الأسد في مجال الهبات، فإن كاتدرائيات أخرى لم تكن تملك أكثر من حدود أسقفيتها. فقد كانت الناصرة - وهي من الأماكن الهامة - لا تمتلك سوى ضياعًا قليلة شرق الجليل، وكان الموقف مشابها في الكاتدرائيات الأخرى ففيما عدا المقاطعة التي تتبع أسقفيتها لم تكن تملك شيئًا كثيرًا(٣٥٤).

فقد حازت كنيسة صؤر أملاكا هناك، وكانت باقي الكنائس تمتلك الضياع بصفة هبات خارج الكنيسة. لقد كان عزاء الكنيسة اللاتينية في مملكة بيت المقدس عن ضياع القدس تلك الهبات التي كانت لها في عكا والأراضي الجديدة في قبرس وحتى بولندا.

ومهما يكن من أمر؛ فإن الهبات بصفة عامة كانت كثيرة، وتشمل بالإضافة وإلي الأرض أشياء أخري مثل الزيوت والخمور مثل الزيوت والخمور والمصابيح والقناديل، بالإضافة إلى الممتلكات الشخصية وكان يوصي بها بعد الموت لبعض الكنائس في مقابل الصلوات والدعوات للراحل أو للمانح نفسه(٣٥٥).

وكانت هبات الحجاج في مواسم الحج واحدة من دلائل التقوى، ومصدرًا من دخل الكنيسة، بل أنها كانت مصدرًا من مصادر دخل المملكة ذاتها، ففي كل عام يقدم الحجاج من الغرب والشرق للمشاركة في الأعياد والاحتفالات الدينية ويمضون الصيف في الأراضي المقدسة، ولقد كان للضرائب التي يدفعونها والمال الذي ينفقونه أثره على اقتصاد المملكة وماليتها(٣٥٦).

---

(353) Conder, Op.Cit., p.199., Smail., Op.Cit., p.131.

وعن تفصيل تلك المنح ومصادرها، انظر:

Hamilton, Op.Cit., pp.141-143.

(354) Conder, Op.Cit., p.194.

(355) Ibid, p.169.

(356) Smail, Op.Cit., p.125., Prawer, The Latin Kingdom., p.167.

وإذا كانت الصلوات والدعوات أو التقوى دوافع وراء المنح والهبات، فإننا نجد بعض المفاسد في مسلك البعض من رجال الكنيسة تجاه تلك المنح والهبات. فقد كان المفروض كما هو متفق عليه أن يتم تقسيم دخل كل الكنيسة بين الأسقف وأعضاء الكنيسة إلا أنه حدثت بعض التجاوزات في ذلك الصدد، ففي خريف سنة ١١٠١م تلقي البطريرك دايمبرت هدية من روجر أمير أبوليا مقدارها ألف بيزنت على أن تقسم ثلاثة أقسام جزء للقبر المقدس، وجزء للمستشفي والثالث للملك للمساهمة في إعداد الجيش، غير أن دايمبرت احتفظ لنفسه بالمال كله مع ما في ذلك من غبن لحقوق من نص عليهما المانح(٣٥٧).

وقد جلب ذلك المسلك السيئ على أصحابه كراهية العامة من أبناء المملكة، فقد كان أرنولف أقل شعبية نتيجة لاهتمامه بأمور عائلته واستخدامه لثروة الكنيسة في ذلك الشأن. فقد رتب زواج ابنة أخته أيما Emma من لورد قيسارية وصيدا يوستاك جارنير، ومنحها أريحا دوطة لها، وكانت تتبع كنيسة القدس(٣٥٨).

وتذكر أحد الحوليات الكثير من المفاسد الكنسية الناجمة عن استغلال المنح والهبات استغلالاً سيئًا، فتعطينا صورة لحياة فاضحة مليئة بالسكر والمفاسد والانحلال والأعمال المخزية(٣٥٩).

ولقد كان للكنيسة بالإضافة إلى ما سبق من مصادر للدخل، مصدر أخير وهو العشور(٣٦٠). وكانت العشور ضريبة كنسية تفرض على كل مصادر الدخل، ويعني ذلك أنها كانت مفروضة على التجارة والصناعة وكل عوائد الأنشطة المختلفة. وكان المصدر الرئيس والدائم للعشور هو الإنتاج الزراعي، وكان مالك الأرض مسئول

---

(٣٥٧) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص١٣٤.
Grousset, Histoire des Croiasades., tom .I, p.292.
(358) Hamilton, Op.Cit., p.63.
(359) Conder, Op.Cit., p.191.
(٣٦٠) كان شارلمان أول من فرض العشور لتدفع إجباريًا للكنيسة، وقد تلقف رجال الأكليروس هذا القرار، ونادوا بأنه نص ملزم في الكتاب المقدس وطبقوه في سائر بلدان غرب أوربا، أنظر. اسحق عبيد: الإمبراطورية الرومانية، ص٢٣١.

عـن دفعهـا، كمـا أنهـا مقـررة علـى المسـيحيين اللاتـين، وقـد أعفـي منهـا المسـيحيين الشرقيين لأن مثل تلك الضريبة لم تكن معروفة في الشرق(٣٦١).

ولقد واجهت الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بعض المشاكل والصعوبات بشأن تلك الضريبة، أول تلك المشاكل أن الأسقف لا يتلقى عشورًا عن الأراضي التي تملكها كنيسته وتقع في منطقة غير أسقفيته، فعندما وافقت الملكة ميلسند على أن تتم مبادلة أملاك البطريرك ورهبان الضريح المقدس والتي توجد في منطقة كفر تقوع Thecua بتلك التي في بيثاني Bethany فإنهم اضطروا لدفع العشور عن أرض بيثاني للأسقف في بيت لحم، في الوقت الذي لم يتلقوا عشورًا من كفر تقوع(٣٦٢).

وقد سمحت الكنيسة لبعض الجماعات الدينية ببعض الإعفاءات المحدودة من أداء ضريبة العشور في منطقة القدس. وفعل برنارد أسقف الناصرة نفس الشيء فقام بإعطاء الأسبتارية امتياز مشابه في أسقفيته سنة ١١٢٥ م. كما تم إعفاء بعض الأديرة من تلك الضرائب إعفاءً محدودًا(٣٦٣).

وعلي الرغم من أهمية العشور في تدعيم الهيكل الكنسي اللاتيني، إلا أن الكنيسة رغبة منها في تدعيم الجماعات الدينية لتأخذ دورها على أرض المملكة تساهلت إلى حد ما بمنح الإعفاءات المحدودة، وخير دليل على ذلك أنه في حالة قيام أي جماعة دينية بإنشاء كنيسة على أرضها وبتكلفة منها فإنه تثار مشكلة العشور، وهل تدفع للأسقف أم للكنيسة الجديدة، وغالبًا ما تترك لكنيسة الجماعة الدينية(٣٦٤).

كما حظيت الكنيسة في مملكة بيت المقدس، وهي أغنى مالك للأراضي في الأرض المقدسة، بإعفاء من كل ما هو مقرر على الأموال والرسوم(٣٦٥).

---

(361) Hamilton, Op.Cit., p.145.

يذكر عمر كمال توفيق أن ضريبة العشور خصصت من قبل الملك في بيت المقدس من مجموع دخل المملكة، ومن إيرادات أي أرض أخري تستولي عليها المملكة، انظر: عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص٩٧.

(362) Hamilton, Op.Cit., p.146.

(363) Ibid., p.147.

(٣٦٤) لمزيد من التفاصيل، انظر:

Hamilton, Op.Cit., p.147.

(٣٦٥) ارنست باركر: الحروب الصليبية، ص٨١.

ورغم تلك الامتيازات التي حصلت عليها الكنيسة، فإن ذلك لا يعني أن ممتلكاتها كانت معفاة تمامًا من الالتزامات تجاه الدولة، خاصةً وأن المملكة كانت تواجه أعداء يحيطون بها من كل جانب وخاضت حروبًا كثيرة. ويذكر براور أن مستندًا كُتب في الربع الأخير من القرن الثاني عشر تضمن قائمة من المستعدين للعمل كقوة تكرسها الكنيسة للتاج(٣٦٦).

وشاركت الكنيسة فعلاً في حروب المملكة، وكان ذلك بتوفير خدمة احتياطية طارئة بحجم معقول من الجند الرجالة لا خدمات الفرسان نظرًا لارتفاع تكلفة الفارس. ولقد التزم البطريرك والرهبان الكنسيين بكنيسة القيامة بتقديم خمسمائة جندي، بينما التزم أسقف بيت لحم بتقديم مائتي جندي، كذلك التزم رئيس أساقفة صور بتقديم مائة وخمسين جندي، بالإضافة إلى ما تقدمه بعض الأديرة مثل دير القديسة ماري يوشيفاط ودير جبل صهيون(٣٦٧).

وعلى الرغم من تكلفة الفارس الباهظة؛ فإن ذلك لم يمنع بعض الكنائس في المملكة من تقديم تلك الخدمة، فقد قامت بذلك كنيستا "اللد والرملة" والناصرة. ففي أسقفية اللد - الرملة كانت الكنيسة ملزمة بتقديم عشرة فرسان لإمرة التاج، وكانت أسقفية الناصرة ملزمة بتقديم ستة فرسان للملك ويرجع ذلك إلى ما حصلت عليه هاتان الأسقفيتان من ميزات خاصة، فقد حصلت كل منهما - كما سبق القول - على إقطاع(٣٦٨).

غير أن المشاركة الكنسية في حروب المملكة لم تتوقف عند هذا الحد، لقد ساهم البطاركة أنفسهم وبصورة فعالة في حروب المملكة، وشاركوا في أعمال الحصار والمعسكرات، وأظهر بعضهم قدرات في ميدان القتال، بينما كان لمشاركة البعض منهم أثرها في رفع روح القتال لدي المحاربين.

ويخبرنا المؤرخ المجهول حول دور البطريرك في الإعداد للحرب وتجهيز الجند وتهيئتهم للقتال قبل معركة عسقلان، والتي جرت في الثاني عشر من أغسطس سنة ١٠٩٩م فيقول "عندما حل المساء، نادي البطريرك في الجميع مطالبًا بضرورة

---

(366) Prawer, The Latin Kigdom., p.163.

(٣٦٧) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٩٨.

(368) Hamilton, Op.Cit., p.136.

الاستعداد في الصباح الباكر للمعركة، كذلك قام بإصدار قرار بالحرمان ضد كل من يفكر في الاستيلاء على شيء من الغنائم قبل انتهاء المعركة"(٣٦٩).

وشارك رجال الدين في اجتماعات الحرب لمناقشة أمور القتال بل والمشاركة في القتال ذاته، يروي لنا شاهد عيان أحد تلك الاجتماعات "لقد عقد البطريرك والأساقفة وباقي الزعماء اجتماعًا عند النهر في ناحية عسقلان، وهناك استولوا على عدد من الحيوانات والثيران والجمال والماشية وغنائم أخرى"(٣٧٠).

لقد قامت الكنيسة منذ نشأتها في المملكة المقدسة بدورها في ميدان القتال برعاية المحاربين، إلا أنه خلال بطريركية دايمبرت حدثت بعض التجاوزات. فقد ألح الملك بلدوين الأول عليه في طلب منحة من هبات المؤمنين لتمويل الفرسان وجمع فرق جديدة في حربه ضد الجيش المصري (يوليه ١١٠١م)، ورغم حاجة بلدوين الأول للمال فإن البطريرك سمح له بمائتي مارك من الفضة فقط، وأقسم أن ذلك كل ما تحويه خزانة الكنيسة(٣٧١).

ويبدو أن ذلك القسم كان باطلاً، فقد كشف خدم دايمبرت بعد رحيله إلى أنطاكية عن مخبأ الكنز الذي كان يحتوي على عشرين ألف بيزنت من الذهب. ولقد قام الملك بتقسيم ذلك المبلغ بين جنده وزاد لهم في الحد، فقد كان يعد لهجوم جديد على الفاطميين(٣٧٢).

وتجدر الإشارة إلى؛ أن ذلك البطريرك والذي لم يساند بلدوين الأول إلى الحد الذي كان بإمكانه القيام به، فعل ذلك نتيجة ما بينه وبين بلدوين من خلاف. والغريب أن نجده يشارك أمير أنطاكية وبطريركها برنارد الفالنسي، ورئيس أساقفة الرها بندكت في معركة حران سنة ١١٠٤(٣٧٣)، ويرجع ذلك إلى العلاقة القوية التي كانت تربطه بأمير أنطاكية وإيوائه له بها عندما خرج من القدس.

---

(369) Anonymous, The Deeds of the Franks and Other Piligrims to Jerusalem, ed.by Rosalind Hill, 1962, pp.94-95.

(٣٧٠) البطريرك المقصود هنا هو أرنولف في فترة بطريركيته الأولى.

Anonymous, Op.Cit., p.94.

(371) Grousset, Op. Cit., tom I, p.290.

(372) Ibid, p.292.

(373) Fulcher., Op.Cit., p.166., William of Tyre, Op.Cit.Vol.I, p.450.

وحرص البطاركة على إثارة حمية المقاتلين، ويتم ذلك من خلال لقاء بين البطريرك والجنود. وفي اللقاء يمضي البطريرك بين صفوف الجند حاملاً الصليب المقدس ليحمي المقاتلين الذين على وشك الذهاب إلى الميدان، ولدينا صورة لما قام به البطريرك ايفرمار قبل بدء معركة لبلدوين مع الجيش المصري: فقد لبس البطريرك عباءته وأخذ بيديه الصليب الذي كان يحمل دومًا في مثل تلك المناسبات بعد كلمة ذكر فيها الجند بأعمال المسيح، طالبهم أن يقاتلوا بشراسة من أجل أسمه، ثم اندفع الجند إلى ميدان القتال بحماسة[٣٧٤].

وكان البطاركة يمضون على رأس المقاتلين إلى ساحات القتال، فلقد شارك البطريرك جبلين - رغم كبر سنه - في حملة ضد مودود أتابك الموصل، وذلك أثناء رحلة طويلة مع فرقة ملكية سنة ١١١٠م، وكان يحمل الصليب في مقدمة الجموع[٣٧٥].

وكان البطريرك جرموند أكثر مقدرة وخبرة في ميدان القتال، ولم يكن يتوقع من رجل الدين أن يضطلع بمهام مثل التي اضطلع بها جرموند، وأبرز من خلالها مواهب عسكرية ذات شأن. فقد شارك جرموند مع الملك في حملة ضد مدينة دمشق في بداية عهده[٣٧٦].

وكان لما قام به جرموند في "صور" أثره في اتساع رقعة المملكة اللاتينية فقد رتب البطريرك والنبلاء بالمملكة مع البنادقة الذهاب إلى صور وحصارها. وبالفعل قام البطريرك ومعه كل أتباعه بحصار صور في السادس عشر من فبراير سنة ١١٢٤م، وكان الملك بلدوين الثاني في الأسر في ذلك الوقت[٣٧٧].

---

(٣٧٤) للمزيد من التفاصيل:

Fulcher., Op.Cit., pp.184-185, also., William of Tyre, Op.Cit.Vol. I, p465.

وكانت تلك المعركة في نهاية أغسطس سنة ١١٠٥م، وجرت بين بلدوين الأول والجيش المصري في عسقلان. انظر:

Fulcher, Op.Cit., p.184.

(375) Hamilton., Op.Cit., p.61.

(376) Hamilton, Op.Cit., p.65.

(٣٧٧) للمزيد من التفاصيل حول الإعداد للحصار والاتفاق مع البنادقة، انظر:

Fulcher., Op.Cit., pp.255-256, also., William of Tyre, Op.Cit.Vol.I, p10.

ويذكر حاج مجهول تواجد بالمملكة في ذلك الوقت أن "البطريرك صاحب الذكري العطرة، قام بشجاعة وبمعاونة الرب بحصار صور، وساعده في ذلك البنادقة من البر والبحر، وأخذها وبذلك مجد ووسع مملكة داوود".

وقد طال حصار صور، ويذكر ابن ميسر أن الفرنج ملكوا صور بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم فأغاثهم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق، ووصل إلى بانياس وراسل الإفرنج فوقع الاتفاق على أن يتسلموها بالأمان(٣٧٨).

وتعددت مساهمات جرموند الحربية، فقام بحصار لحصن كان بحوزة جماعة من قطاع الطرق في منطقة صيدا، يسمي بلتسام Belthasem ولكنها كانت المساهمة الأخيرة، فقد "تعرض لعدوى مميتة، وأصيب بأمراض خطيرة"(٣٧٩).

كذلك فقد شارك وليم بطريرك بيت المقدس في حصار بانياس، ويبدو أنه كان حريصًا على ممارسة واجباته الرعوية أثناء القتال فقد "ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يتلون فيها يتولي خدمتها شيخ شماس منهم، وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش"(٣٨٠).

ويبدو أن البطاركة كانوا مضطرين إلى حمل الصليب المقدس لما له من أهمية كذخيرة مقدسة في الحرب. ولم يكن مسموحًا لأحد من صغار رجال الدين بانجاز مثل تلك المهمة، وفي حالة غياب البطريرك يمكن لأي أسقف أن يؤدي ذلك العمل، مثلما فعل إيفرمار، وكان في ذلك الوقت رئيس أساقفة قيسارية فنجده يسعي لرفع روح القتال بحمل - ما يعتقد - أنه الصليب الحقيقي أثناء معركة تل دانيث Tell Danith في سنة ١١١٩م(٣٨١).

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن هناك مَن لم يشارك من البطاركة في حمل الصليب، فلم يقم كل من أمالريك أو هرقل بتلك المهمة(٣٨٢).

ولقد شارك بعض رجال الدين في أعمال القتال الفعلي، ورغم ما يثيره هاملتون في هذا الصدد من جدل حول قوانين الكنيسة في الغرب والتي تمنع الرهبان

Anonymous Pilgrimv.I in P.P.T.S. p.49.

وتجدر الإشارة إلى؛ أن الملك بلدوين الثاني ظل أسيرًا في قبضة بلك أمير خرتبرت وحران منذ سبتمبر سنة ١١٢٣م وحتى أواخر يونيو سنة ١١٢٤م، ولم يشارك في حصار صور التي سقطت أوائل يوليو من نفس العام عن أسباب ذلك المسلك ودوافعه انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٥٠٩.

(٣٧٨) ابن ميسر: أخبار مصر، ج٢، تصحيح هنري ماسيه، ط. المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩١٩، ص٦٤.

(379) William Of Tyre, Op. Cit., Vol.I., 39.

(٣٨٠) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون ١٩٣٠م، ص٨٦.

(381) J. Richard, The Political and Ecclesiastical., p.102.

(382) Hamilton, The Latin Church., p.129.

والأساقفة والقسس من سفك الدماء. فإننا نجد أساقفة يقومون بأعمال قتالية ويصاحبون الجيوش في وقت لم يكونوا مضطرين فيه لذلك، مثلما فعل بلدوين أسقف قيسارية. وجيرارد مقدم طابور وذلك في معركة الرملة سنة ١١٠١م(٣٨٣).

لقد اهتم رجال الدين على كافة المستويات بحروب المملكة، ويعكس ذلك الاهتمام من جانب الكنيسة بناحية من نواحي الحياة لأبناء المملكة اللاتينية صورة خاصةً لواحد من أهم أدوار الكنيسة اللاتينية في المملكة، ولم تنس الكنيسة أن الصليبية فعلة كنسية.

ومع اهتمام الكنيسة الكبير بالجانب الحربي فإنها لم تهمل واجباتها الروحية التي هي صميم عملها. ولقد كانت الكنائس بالإضافة إلى أعمال العبادة تؤدي واجبها نحو الحجاج. وكانت كنائس المملكة مزارات هامة في مواسم الحج، وتسعي إعداد كبيرة من الحجاج القادمين من كل أنحاء الغرب الأوربي لزيارتها والصلاة بها، خاصةً وأنها المناطق التي شهدت حياة وآلام السيد المسيح. وكان للإيمان والتقوى المنتشران في غرب أوربا في ذلك الوقت أثرهما في زيادة عدد الحجاج القادمين إلى بيت المقدس.

غير أن تلك الظاهرة لم تكن قاصرة على أبناء الغرب الأوربي، فقد شهدت المملكة جماعات الحجاج الشرقيين، وقد سجلت كتاباتهم تجاربهم في الحج والأماكن المقدسة التي زاروها، ولدينا رحلة الأسقف دانييل Daniel، أحد الحجاج الروس الذين زاروا الأرض المقدسة فيما بين سنة ١١٠٧ – ١١١٠م، وقد ذكر المزارات المقدسة التي رآها والشخصيات الهامة التي قابلها في العقد الأول من تأسيس المملكة(٣٨٤).

واهتمت المملكة من جانبها بتوفير الأمان للحجاج، وباركت الكنيسة ذلك الموقف. فقد كان الطريق الرئيس من ميناء يافا إلى بيت المقدس عبر سهل الرملة محفوف بالمخاطر، لذلك نظم الداوية قوافل مسلحة لحماية الحجاج(٣٨٥).

---

(383) Hamilton, Op.Cit., p.130.

(٣٨٤) عن تلك الرحلة انظر:

The Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land (1106-1107) in P.P.T.S. Vol. IV, London 1895.

(٣٨٥) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص١٩٠.

ويبدو أن الاهتمام بأمن الحجاج كان شغل الكنيسة الشاغل، ففي أعلى مستويات التنظيم الكنسي نجد البطريرك يشارك هو ومواطني بيت المقدس بالكامل في بناء حصن منيع لتأمين سلامة الحجاج المارين بمنطقة اللد، وذلك في منطقة بيت نوبا(٣٨٦).

صار الحجاج حقيقة قائمة في حياة المملكة اللاتينية، فمع كل ربيع يقدم إلى المملكة أولئك الذين ينوون الاحتفال بالصوم الكبير في الأماكن المقدسة، وقضاء الصيف هناك.

وقد يرجع اهتمام المملكة على وجه العموم بأمن الحجاج وتدبير احتياجاتهم إلى أسباب منها تأمين حركة الحج المتزايدة كل عام، وما تمثله أموال الحجاج التي ينفقونها والضرائب المفروضة عليهم من عنصر هام من عناصر اقتصاد المملكة(٣٨٧). واهتم الصليبيون بتوفير كل ما يحتاجه الحجاج، خاصةً وأن من بينهم فقراء كثيرين ربما أنفقوا ما معهم خلال رحلتهم، وكان على الكنيسة أن تقف إلى جانبهم، لذلك فإنه بناء على طلب البطريرك قام بلدوين الثاني برفع الضريبة التي كانت تؤخذ منهم، وكان يعاني منها الفقراء من الحجاج على أبواب القدس(٣٨٨).

كما عملت المملكة على توفير الخدمات العلاجية للحجاج وذلك من خلال المستشفيات، ولا يعني مصطلح مستشفي في العصور الوسطي دائمًا مكانًا يتلقي المرضي فيه العلاج الطبي، غير أنه وجدت تحت هذه التسمية في المملكة ما لا يقل عن أربعة أنواع من المؤسسات العلاجية المختلفة، مشفى لعلاج المبرصين، وبيوتات للفقراء من المرضي أو المصابين المعدمين، ودور ضيافة للعجزة من الحجاج، وأبناء السبيل.

كما وجدت في القدس عدة مستشفيات ومستوصفات(٣٨٩)، وكان لمستشفي القديس يوحنا Hospital of St. John الدور الأكبر في العناية بالحجاج عامة

---

(386) William of yre, Op. Cit., Vol. II, p.58.

ومما يذكر؛ أن تأمين حركة الحج إلى الأراضي المقدسة كان من الأسباب التي أدت إلى بناء القلاع والحصون. وقد شيدوا سبعة معاقل بين يافا والقدس أهمها قلعة شقيف أرنون، انظر: محمود الحويري: الأوضاع الحضارية، ص١٨٦.

(387) Smail Op.Cit., , p.125.

(388) Conder, The Latin Kingdom, p.174.

(389) Boas ., Jerusalem in The Crusade Time., p.156.

والفقراء منهم بصفة خاصة، وكما سبقت الإشارة كانت تلك المستشفي تعمل قبل قدوم الصليبيين حيث كانت تقدم نفس الخدمات في المدينة المقدسة للحجاج اللاتين، بيد أنه وفي حماية ملوك بيت المقدس نمت تلك المستشفي وتعددت خدماتها، وتفرعت منها مستشفيات أخرى في أنحاء المملكة(٣٩٠).

وقد ظل المستشفي الرئيسي في القدس صاحب الدور الأكبر في ميدان خدمة الحجاج، وذكر أحد الحجاج ذلك الدور بقوله: "كان يتجمع في المستشفي الملحقة بكنيسة القديس يوحنا المعمدان وفي حجراتها المتعددة عدد كبير من المرضي، رجال ونساء، وأيضًا ناقهين يتماثلون للشفاء ... وعلمت أن عددهم يبلغ حوالى الألفين"(٣٩١).

ولا يعني ذلك أن مستشفي القديس يوحنا الوحيدة في ذلك المضمار، فقد قامت إلى جانبها مستشفيات أخرى، أسسها أفراد من ذوي التقوى، أو جماعات دينية مثل المستشفي الملحق بدير ماري يوشفاط، ومستشفي خدمة الحجاج في ميناء عكا(٣٩٢)، كذلك فقد قام رهبان الضريح المقدس بإنشاء مستشفي لخدمة الحجاج بجوار الضريح وذلك بعد سنة ١٠٩٩(٣٩٣).

وكانت تلك العناية بالحجاج من جانب الدولة والكنيسة من عوامل جذب الحجاج وزيادة إعدادهم، إلا أن مشاركة الحجاج ومتابعتهم للاحتفالات الدينية أو الرسمية يعد عامل آخر لجذب الحجاج إلى مملكة بيت المقدس. فقد كان لتلك الاحتفالات وقع خاص في نفوسهم، بالإضافة إلى أن إجراءات الاحتفالات كانت تتم في أماكنها الطبيعية، وكما وردت في القصص الإنجيلية(٣٩٤).

وقد تعددت الاحتفالات والأعياد الدينية في المملكة، ويرجع ذلك إلى ما تحفل به المدينة المقدسة من ذكريات ومناسبات دينية خاصة بها، بيد أن أهم تلك الأعياد كان عيد الخامس عشر من يوليه، ففيه تحتفل المملكة بمناسبتين هامتين من تاريخها،

---

(390) Richard, Hospitals and hospital., p91.
(391) John of Wurzburg, Op., Cit., p.44.
(392) Hamilton, Op. Cit., p.362.
(٣٩٣) للمزيد من التفاصيل أنظر:
Richard, Op.Cit., p.92.
(394) Prawer, The Latin Kingdom, p.176.

الأولى ذكرى الاستيلاء على المدينة المقدسة، والثانية إعادة تجديد كنيسة الضريح المقدس وتكريسها للخدمة، ولم يتم ذلك الاحتفال واعتباره عيدًا من أعياد المملكة إلا بعد خمسين عامًا من تواجد الصليبيين بالأراضي المقدسة(٣٩٥).

وكانت وقائع ذلك الاحتفال تجري في أماكنها الطبيعية، ويبدأ بموكب مهيب يتقدمه البطريرك، ومع الصباح الباكر يعبر الموكب من كنيسة الضريح المقدس إلى معبد الرب ويتوقف الموكب عند المدخل الجنوبي للصلاة والترتيل، وبعد ذلك يشق طريقه إلى المكان الذي سقط فيه قتلى الفرنجة.

ويقع ذلك المكان عند الجزء الشمالي من أسوار المدينة في الزاوية الشمالية الشرقية حيث يوجد صليب يحدد الموقع الذي اخترق منه أتباع جودفري المدينة المقدسة. وفي ذلك الموقع يقام قداس يرأسه البطريرك ويشهده رجال الدين والعامة، وتقام صلوات الشكر احتفالاً بتلك الذكرى(٣٩٦). ويقدم لنا يوحنا قس ورزبورج جانبًا من ذلك الاحتفال، وصورة لشكله ومراحله وسجلاً للصلاة والتراتيل المقامة في تلك المناسبة(٣٩٧).

وكان للأعياد الدينية ذات الطقوس الخاصة وقع كبير في نفوس المحتفلين من الحجاج أو المقيمين بالمملكة، وفيما عدا عيد الميلاد الذي كان طبيعيا أن يقام في كنيسة المهد ببيت لحم، فإن كل الاحتفالات كانت تبدأ من كنيسة الضريح المقدس وتنتهي في موقع الأحداث التي تمت فيها مناسبة تلك الأعياد(٣٩٨). وكان البطريرك يرأس كل الاحتفالات بنفسه، ولعل مرجع ذلك إلى عدم وجود كرادلة يفوض لهم الأمر(٣٩٩).

---

(٣٩٥) لم يتم الاحتفال بذلك العيد إلا بعد الانتهاء من تكريس كنيسة الضريح المقدس للخدمة الإلهية، ويعني ذلك أن أول مرة يقام فيها كانت بعد مضي خمسين عامًا من الاستيلاء على القدس. انظر:

John of Wurzburg, Op. Cit., p.39.

(396) Prawer, Op., Cit., p.176.

(397) John of Wurzburg, Op., Cit., pp.70-71.

(398) Prawer, Op., Cit., p.177.

(399) Hamilton, Op. Cit., p. 128.

ولقد كانت تلك الاحتفالات تتعرض لما يعكر صفوها، فتقع خلالها بعض المنازعات والمشاجرات، كما أن المحتفلين أنفسهم لم يكونوا دومًا متوافقين فيما يقومون به من مظاهر الاحتفال، ولدينا صورة لمثل تلك الأعمال والتي قام بها الاسبتارية بهدف تعكير صفو مثل تلك الاحتفالات، ففي سنة ١١٥٥م، وأثناء أداء البطريرك لبعض الشعائر الدينية قام فرسان الهيئة برمي السهام عليه. كما قاموا بدق أجراسهم حتى لا يسمع صوت البطريرك فولشر داخل كنيسة القيامة ببيت المقدس[٤٠٠].

ومهما يكن من أمر؛ فإن الأعياد الدينية كان لها بهجتها، رغم كل المنغصات، ومن بين تلك الأعياد "عيد أربعاء الرماد"، ويقع ذلك العيد في أول أيام الصوم الكبير وفيه يترأس البطريرك الاحتفال، وكان الاحتفال يبدأ بمقابلة البطريرك لرهبان الضريح المقدس والأخوة العلمانيين في قاعة الكنيسة، ومع الظهر تدق الأجراس الضخمة داعية الناس إلى قداس في الكنيسة المقامة في موقع الجمجمة Calvary، وينتقل الجميع إلى الضريح المقدس ليلقي البطريرك عظته، وبعد تلقي البركات فإنه يقوم بنثر الرماد فوق رؤوس المجتمعين[٤٠١].

وقد احتفل الفرنجة كذلك بعيد العذراء المباركة وتجسد الرب في الهيكل، وكان ذلك الاحتفال يتم في موكب بسيط يبدأ من الضريح المقدس وينتهي في هيكل الرب، وقد حمل المحتفلون القناديل[٤٠٢].

وكان عيد "أحد السعف" من بين الأعياد الهامة التي يمكن لكل رجال الكنيسة في بيت المقدس المشاركة فيها، لما تتطلبه طقوس ذلك العيد من مساهمة الكنسيين بأكملهم. فقبل أن تشرق الشمس كان رجال الكنيسة والبطريرك ورهبان جبل صهيون وجبل الزيتون ومقدم دير ماريا يوشفاط يذهبون إلى بيثاني، وهي على بعد ميل من القدس، ويأخذون معهم كل الذخائر المقدسة، وكان أقدسها ما اعتقد الفرنجة أنه صليب الصلبوت.

---

(٤٠٠)نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ص١٠٦.

(401) Prawer, Op.Cit., 177.

(402) Ibid, p.178.

وفي ذات الوقت، فإن سكان المدينة يتجمعون في كنيسة القيامة مع رهبان الضريح. وهناك تتم مباركة سعف النخيل وأغصان الزيتون، ويقود رجال الكنيسة الموكب إلى بوابة يوشفاط، وهناك يقابلون الموكب القادم من بيثاني الذي يتقدمه البطريرك ومعه الصليب المقدس.

ويتمثل القوم ما فعله السيد المسيح في ذلك اليوم عندما ترك بيثاني ومضى إلى منطقة بيت فاجه Bet Phage وهي مكان في منتصف الطريق بين بيثاني وجبل الزيتون ثم مضي عبر جبل الزيتون إلى مدينة القدس، ودخل عبر البوابة الذهبية وقد فتح بابها عند اقترابه منها تلقائيًا(٤٠٣).

ومع قدوم موكب البطريرك، وحسب رواية يوحنا قس ورزبورج فأنه يتقدم بوقار من البوابة الذهبية تلك البوابة التي أغلقت خلف عيسي عليه السلام بعد مروره بها وتفتح البوابة في مهابة للموكب والعامة كلهم - مواطنين أو أغراب - حيث يلقي البطريرك عظته الاحتفالية إلى الناس عند أقدام جبل الزيتون، وعقب انتهاء القداس يقفل الباب ثانية لمدة عام، ولا يفتح إلى في يوم تعظيم الصليب المقدس(٤٠٤).

وإذ حرص الفرنجة على أداء الاحتفالات الدينية ذات الذكري الخاصة في مواقعها، فإن ذلك الأمر ينطبق على عيد أو احتفال غسل الأقدام عشية الجمعة الحزينة، وذلك اقتداء بالسيد المسيح عندما غسل أقدام حوارييه. وكان الاحتفال المذكور يتم في دير القديسة ماري بجبل صهيون.

وكان المحتفلون حريصون على تقدمة الفقراء في غسل أقدامهم أولاً، وذلك خشية أن يصابوا بالجذام أو المرض الخبيث في أقدامهم، وفي اعتقادهم أن ذلك يحدث خلال الحفل ذاته. وكما هو مقرر فإن الاحتفال يبدأ بعظة البطريرك، ثم رش الزيت المبارك، ثم تأتي الأحواض والمناشف، وقد حملها الرهبان التابعون للضريح المقدس، ويغسلون رؤوس وأقدام الفقراء، ثم يقبلون أيديهم وتوزع الملابس والأحذية(٤٠٥).

---

(٤٠٣) للمزيد من التفاصيل انظر:

Theodrich, Op.Cit., pp.34-35.

(404) John of Wurzburg, Op., Cit., p.19.

كما ذكر ثيودريك أن البوابة الذهبية لا تفتح إلا مرة واحدة في العام، وذلك في عيد أحد السعف. وتفتح استثناءا في يوم تمجيد الصليب المقدس.

Theodrich, Op.Cit. p.35.

(405) Prawer, Op. Cit., p.178.

وكان الاحتفال بالجمعة الكبيرة يتم في كنيسة في الموقع الذي يقال أن السيد المسيح صُلب فيه، ويستغرق ذلك الاحتفال يوم الجمعة بأكمله، ويقوم البطريرك ورجال الدين في ذلك اليوم بإقامة القداس والاحتفال(٤٠٦).

ويعد عيد النار المقدسة Holy Fire أو الضوء المقدس Holy Light من أعظم وأشهر الاحتفالات، وهو عيد خاص بالمدينة المقدسة فعند اقتراب عيد الفصح يتم ترقب الضوء المقدس كالعادة في كل كنائس القدس، وقد توارث اللاتين ذلك الاحتفال عن اليونانيين، وكان ذلك الاحتفال قائمًا منذ عهد شارلمان، وفيه يتم إضاءة واحد من القناديل بالمدينة المقدسة بضوء إلهي كما يؤكد ذلك من شهد الاحتفال(٤٠٧).

وتبدأ الاستعدادات للاحتفال بعد صلاة الغروب ليوم الجمعة العظيمة، ففي ذلك اليوم ينظف الضريح المقدس، وتغسل كل المصابيح الموجودة به، وتملأ بالزيت النقي ودون ماء. ثم توضع الفتائل وتترك غير مضاءة. وفي ذات الوقت يتم تنظيف المصابيح والقناديل في كل كنائس القدس(٤٠٨)، ويمضي دانييل في وصف مظاهر الاستعداد للاحتفال، ويذكر أنه التقى بالملك بلدوين الأول، وعرف أنه حاج أرثوذكسي شرقي ورحب به وسمح له بوضع مصباحه في ضريح السيد المسيح(٤٠٩) وربما هدف دانييل من سرد تلك الرواية لبيان تسامح اتباع الكنيسة اللاتينية مع المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين.

وتزدحم الكنيسة صباح يوم السبت المقدس Holy Saturday بجموع مختلفة من الحجاج والأهلين، ومع الساعة الثالثة للنهار يبدأ البطريرك في إدارة القداس مع الرهبان ويكون القداس باللاتينية، ثم يقوم الأرثوذكس اليونانيون بأداء قداسهم باليونانية، ويمضي الاحتفال على نفس النمط حتى التاسعة من اليوم. ويعني ذلك تأخر وصول الضوء المقدس - فيقوم واحد من اليونانيين حسب رواية فوشيه الشارتري بالصياح بصوت

---

(406) Theodrich, Op.Cit., p.20.

(٤٠٧) لدينا أكثر من رواية حول ذلك الاحتفال والاستعداد له وطقوسه، انظر:
Daniel, Op.Cit., pp.74 - 75., Theodrick, Op.Cit. 99., Fulcher, in Daniel, Appendx, V.pp, p.106 - 108.

(408) Daniel Op.Cit., p.74.

(409) Ibid, pp.74 -75.

مرتفـع حسـب العـرف القـديم Kyrie Eleison وتعنــي يــا إلهنــا أنــزل الرحمــة علينــا Lord have Mercy upon us ويـردد معـه الجميـع الهتـاف[٤١٠]. واسـتمر ذلـك الهتـاف وتوارثه اللاتين عندما كانوا يديرون ذلك الاحتفـال دون الإغريـق. وإن كنـا نجـد هتافًـا أضافه اللاتين "ساعدنا يا الله" أو "الضريح المقدس".

ومع أصوات المتضرعين فإن البطريرك والأساقفة ينتظرون تلقي النار المقدسـة ومعهم باقي رجال الدين، ومعهم الصليب الـذي أدمجـوا بـه قطعـة خشـبية كبيـرة يعتقد أنـها من الصليب الحقيقي، وكذلك ذخائر القديسين، ويظل الجميع يترقـب أن يرسـل الله ضوء رحمته إلـى القناديل المستعدة لاستقباله، ولا توجد سـاعة محددة لظهـور النـار المقدسـة ولا مكـان أيضـا، فقد تـأتي فـي أي سـاعة وأي كنيسـة. وعنـد وصـول النـار المقدسة جرى العرف أن تقدم إلـى هيكل الـرب قبل أي إنسـان، فيمـا عدا البطريـرك الذي يشعل عنده قنديله[٤١١].

لقـد كـان ذلـك الاحتفـال قمـة احتفـالات المملكـة، إلا أنـه كانـت هنـاك مناسـبات احتفالية أخرى، فهناك خميس الصعود Ascdnsionday ويتم الاحتفال بذلك العيد مـن خـلال موكـب يمضــي إلــى جبـل الزيتـون بعـد الصـلاة فـي كنيسـة الضـريح المقـدس، ويتوجه الموكب إلى كنيسة مقامة في المكان الذي يُعتقد بأن السيد المسيح صـعد منـه، وتوجد آثار مطبوعة في المكان لقدمي السيد المسيح[٤١٢].

واخـتص اللاتـين أنفسـهم باحتفـال دينــي خـاص أطلقـوا عليـه عيـد العثـور علـى الصليب المقدس، وكان يتم الاحتفـال بـه داخـل الكنيسـة المقامـة فـي الموقـع الـذي عُثـر فيه على الصليب.

لقد كانت الأعياد والاحتفالات الدينية كثيرة ومتعددة. وقامت الكنيسـة بواجبهـا مـن احتفاليـات تتمثـل فـي إنشـاد وترتيـل وطقـوس خاصـة بكـل عيـد. كمـا حـرص البطريـرك علـى رئاسـة تلـك الاحتفـالات بنفسـه. ومهمـا يكـن مـن سـبب وراء حرصـه، فـإن تواجده على رأس المحتفلين بـل ومشـاركة أمـراء ونـبلاء المملكـة فـي ذلـك يعكـس مـدى اهتمـام

(410) Fulcher, Op. Cit., p.106.
(411) Theodrich, Op.Cit., pp.14, 15.
(412) Prawer, Op., Cit., p.181.

رجال الدين بالجانب الروحي في حياة المملكة اللاتينية، وفي منطقة تحوي الكثير من المقدسات المسيحية. ويعكس أيضًا محاولة الكنيسة لربط أبناء المملكة الجديدة بجذورها القديمة، ويفسر ذلك تلك الطقوس التي كانت تتبع، والحرص أن تتم الاحتفالات في أماكنها التي دارت عليها في الماضي وبنفس الخطوات.

ويبدو أن الكنيسة نجحت في ذلك إلى حد بعيد، ودلالة ذلك الإعداد الضخمة المشاركة في الاحتفالات من حجاج أو مواطنين.

وإذا كانت الكنيسة قد أدت واجباتها الرعوية المختلفة فإنها حرصت على الانضباط بين أبناء الكنيسة بمختلف رواتبهم الكنسية، وكان للكنيسة محاكمها الخاصة والمستقلة، وكانت تمارس سلطاتها القضائية على كل رجالها، وكذلك على العلمانيين في حالات ما يتصل بالزواج والشرع والوراثة والهرطقة الدينية والانحرافات الجنسية(٤١٣).

وقامت الكنيسة بعقد المجامع للنظر في عزل البطاركة - كما سبق القول - مثلما حدث في حالة دايمبرت وايفرمار، غير أنه يلاحظ أن تلك المجامع كان يرأسها مندوب بابوي يتمتع بتفويض من البابا ذاته(٤١٤). غير أن تلك المجامع لم تكن تعقد للمحاسبة والمحاكمة فقط، فقد كانت تعقد بغرض الإصلاح. ففي سنة ١١٢٠م تم عقد مجمع في نابلس للإصلاح الأخلاقي، وكانت المملكة تمر في تلك الفترة ومنذ ما يقرب من ثلاثة أعوام سابقة بظروف عصيبة، فقد تعرضت للهزائم ولبعض الظواهر الطبيعية مثل الزلازل وهجمات الجراد ونقص المؤن الأمر الذي أرجعه رجال الدين إلى غضب الله عليهم وضرورة مصالحته. ويذكر وليم الصوري أن المجمع الذي عقد في نابلس رأي "ضرورة مصالحة الرب بأعمال التقوى ورفع مستوي الأخلاق والتمسك بالنظام، وصدر عن المجتمعين وبرضاء الجميع خمسة وعشرين مادة لها قوة القانون"(٤١٥).

---

(٤١٣) باركر الحروب الصليبية، ص٨٠.

Conder, The Latin Kingdom, p.192.

(414) Ibid, p.192.

(٤١٥) حضر ذلك المجمع جرموند بطريرك القدس، وبلدوين الثاني ملك القدس، وايفرمار أسقف القدس

لقد قامت الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بواجباتها الرعوية وغير الرعوية سواء الحرب أو إدارة البلاد في حالة غياب الملك، وما إلى ذلك بشكل لا بأس به، إلا أنه كان باستطاعتها أداء ذلك بصورة أفضل في حالة ما يتوافر لها من سلطة حرص ملوك المملكة على أن لا تكون كبيرة، بل عملوا على الحد منها، وعلى أن تبقى الكنيسة خاضعة دومًا لسلطانهم.

بيت لحم، وروجر أسقف اللد وجيليدين المقدم المرشح لدير ماري في وادي يوشفاط وبطرس مقدم جبل طابور وآخرين ... للمزيد انظر:

William of Tyre, Op.Cit., Vol. I, p.536.


الخاتمة

الخاتمة

في ضوء هذه الدراسة يتضح للباحث في دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس وحتى سقوطها سنة ١١٨٧م، أن الكنيسة اللاتينية وعلى رأسها البابوية لم تدخر جهدًا في سبيل تحقيق أغراضها في الزعامة والسلطان والسمو. ووجدت في أوضاع الغرب فرصتها الطيبة لبلوغ ما تريد.

كما عملت جهدها من أجل تحقيق سموها وفرض زعامتها وسلطانها على الشرق. ورأت في المشروع الصليبي فرصتها الذهبية لتحقيق مطامعها، وبذلت الكنيسة أقصى ما تستطيع من جهد لدعم المشروع ومساندته ويمثل ذلك العمل قمة الدور الكنسي.

وكان فرض الزعامة الدينية على رأس القادة والأمراء الصليبيين عملاً له دلالته الواضحة في تأكيد نفوذ الكنيسة، وفرض سلطانها أيا كانت مبرراتها في هذا الصدد.

وإذ نجحت الحملة الصليبية الأولى في إقامة مستعمراتها فوق أرض الشرق الإسلامي وخاصةً فوق أرض فلسطين، فإن الكنيسة سارعت إلى الفوز بالسلطة والنفوذ في مملكة بيت المقدس.

غير أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح. وقد رأينا كيف كانت مطامع النبلاء والملوك عقبة أمام تلك المحاولة. لقد كانت الملكية في بيت المقدس مدركة تمامًا لخطورة مثل تلك المحاولة على أطماعها وآمالها ونفوذها ومستقبلها، في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة عاجزة عن إدراك استحالة نجاحها في مد نفوذها على الشرق في حالة فوزها - وهو مستحيل أيضًا - بما تتطلع إليه.

لذلك فقد عملت الملكية على الحد من نفوذ الكنيسة، وساعدها على ما أرادت انقسام رجال الدين إلى حزبين. وقد خرجت الكنيسة من الصراع مستسلمة لنفوذ الملكية وتابعة لها. يستثني من ذلك محاولات بطاركة مثل ستيفن وغيره تجديد المزاعم الكنسية، حيث قوبلت بالتجاهل من جانب الملكية.

وكان على الكنيسة أن تعمل على تأكيد وجودها - بعد أن فشلت في الفوز بالنفوذ والسلطان في مملكة بيت المقدس - من خلال ممارسة دورها الطبيعي كهيئة دينية لها علاقاتها المختلفة سواء بالمنظمات الدينية الحربية أو الكنائس الشرقية.

وفي هذا المضمار لم تتمكن الكنيسة من فرض نفوذها أو سلطانها على أي من الجانبين. وقد سادت علاقاتها بالمنظمات الدينية الحربية نتيجة لما تمتعت به تلك المنظمات من استقلالية وسلطان. كما ساءت علاقتها بالكنائس الشرقية، وكانت فترة الاحتلال فترة معاناة كاملة لطوائف الشرق عامة.

مما كان له أثره السلبي في مقدرة الكنيسة اللاتينية على القيام بدورها وتحقيق ما كانت تتطلع إليه من أهداف. ويمكن القول دون مبالغة؛ أن تلك العلاقات كانت لها انعكاساتها السيئة وأثرها المدمر في مستقبل المملكة اللاتينية ومصيرها. بل كانت إرهاصًا بما ينتظر تلك المملكة من نهاية سيئة.

وعملت الكنيسة على تنظيم الهيكل الكنسي لنشر نفوذها الديني وفقًا للنظام الأوغسطيني، وقد اتضح من خلال هذه الدراسة أن تنظيم الكنيسة استغرق أمدًا طويلاً، ويرجع الأمر إلى ارتباط التنظيم بالتوسع في المملكة، وأيضًا بشكل العلاقة بين الملك والبطريرك.

كما كان لشكل التنظيم الكنسي اللاتيني أثره على التنظيم الأرثوذكسي القديم، ولم تأبه الكنيسة في بيت المقدس للأمر وقادها مسلكها إلى الدخول في الصراع حول النفوذ الكنسي مع بطريرك أنطاكية.

ويلاحظ أن الكنيسة اللاتينية قامت بإنشاء العديد من الكنائس ولم يكن ذلك بمستغرب في ضوء ما ساد تلك الفترة في الغرب الأوربي من حماسة دينية انتقلت مع الصليبيين. بيد أن عملها هذا كانت له آثاره السيئة وعكس في جوانبه صورة مقيتة للتطرف والتعصب اللاتيني تجاه مسيحي الشرق ومسلميه، وذلك عندما قامت بتحويل الكنائس الشرقية والجوامع إلى كنائس لاتينية.

وقد وضح من خلال الدراسة؛ أن التمويل اللازم لمثل تلك الأعمال كان متعدد المصادر، غير أنه أسيء استعمال البعض منه من قِبل رجال الدين.

ولقد كان للكنيسة دور فعال في حروب المملكة، وقد اتضح من الدراسة اهتمام رجال الدين على كافة المستويات بحروب المملكة. ولم تنس الكنيسة أن الصليبية فعلة كنسية.

وفي إطار دورها الرعوي، اهتمت الكنيسة بالحجاج وعملت على توفير الأمن لهم، ولم تكن الكنيسة غافلة عما يمثله تزايد عدد الحجاج من قيمة اقتصادية بالنسبة للملكة، بيد أنها لم تغفل مساعدة فقراء الحجيج ماليًا أو صحيًا.

كما اتضح من الدراسة اهتمام الكنيسة في مملكة بيت المقدس بالأعياد والاحتفالات الدينية التي كانت كثيرة متعددة. وقد حرص البطاركة على رئاسة الاحتفالات بأنفسهم. ويعكس ذلك حرص الكنيسة على القيام بواجبها الروحي في منطقة تحوي الكثير من المقدسات الدينية، كما تعكس محاولة الكنيسة تأصيل وجودها في الشرق.

لقد تعددت أدوار الكنيسة اللاتينية بايجابياتها وسلبياتها فوق أرض فلسطين، وقامت بواجباتها المختلفة، إلا أنها لم تحقق لنفسها ما كانت تتطلع إليه.

لقد كان بإمكانها أداء واجباتها بصورة أفضل إلا أن أطماعها ومسلكها، وموقف ملوك المملكة تجاهها وحرصهم على الحد من سلطانها لتبقي الكنيسة في بيت المقدس خاضعة لسلطانهم، كل ذلك مع ما سبق تناوله من عوامل كان له أثره في شكل وحجم دور الكنيسة اللاتينية في مملكة بيت المقدس.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا-المصادر الأجنبية:

Anonymous:
The Deeds of the Franks and the other Pilgrims to Jerusalem, Trans. Rosalind Hill, U.S.A.196.
Anonymous Pilgrims:
In P.P.T.S. Vol.VI, London (1889).
A.O.L:
Archives de L Orient Latin, 2 Toms. (eds.p.Riant et H. Hagenmeyer, Paris (1884).
Daniel:
Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in The Holy Land (1106-1107A.D.) Annotated by Sir Wilson, in P.P.T.S., vol. IV, London, (1895).
Enhard:
Vita Carolimagni, trans., by Lewis Trope, in Two Lives of Charlemagne, Penguin Book (1969).
Fulcher of Charter:
A History of the Expedition to Jerusalem 1095-1127, trans., Rita Ryan, ed., Harold Fink, U.S.A.1969.
Gregory II, Pope:
Letter to the Emperor Leo III.
Gregory III, Pope:
- Excomunicate Iconolasts
- Asks Aid of the Franks Ageist the Lombards.
- Letter to Princes wishing to Reconquer Spain1037.
- Calls For a Crusade 1074. Letter to Henry IV, December 1o75.
Henry IV:
The Desposition of Gregory VII, January
وهذه الوثائق موجودة ضمن مجموعة الوثائق في:
Thatcker O.D. &McNeal E.H.:
A Source Book for Medieval History, New York, U.S.A.1905.
John of Wurzburg:
Description of the Holy Land (1160-1170 A.D.), Trans. by Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London 1896.
Pope, Leo VII:
Grants the Emperor the Right to Choose the Pope and Invest all Bishops.
Letter of the Bishopes to Gregory VII January 24 (1076).

وهذه الوثائق موجودة ضمن مجموعة الوثائق في:

Thatcker O.D. &McNeal E.H.:
A Source Book for Medieval History, New York, U.S.A.1905.

Phocas, Johannes:
The Pilgrimage of Johannes Phocas, in the Holy Land 1185AD
Trans by. Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London 1896.
Regesta Regni Hierosolymitani (ed.) R. Rohricht, Insbruck1893.

R.O.L:
Reve D Orient Latin in (vol.1-7)Paris 1893.

Theodrich:
Theodrich s Description of the Holy Places (circ 1172AD)trans.
Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London 1896.

William of Tyre:
A History of the Deeds Done Beyond the Sea, transl. and
annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krery,
Colombia University Press1943.

ثانيًا- المصادر العربية والمعربة:

١- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس.
٢- ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف، ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م
- كتاب الاعتبار، نشره وحققه فيليب حتى، ط. برنستون سنة ١٩١٩م.
٣- أسامة بن منقذ:
- (أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر، ت ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨م)
- كتاب الاعتبار، نشره وحققه فيليب حتى، ط. برنستون سنة ١٩٣٠م.
٤- عماد الدين الأصفهاني:
- (أبو عبد الله محمد ت ٥٩٧ه/ ١٢٠١م)
- الفتح القسي في الفتح القدسي
- تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبيح، ط. القاهرة سنة ١٩٦٥م
٥- قاسم عبده قاسم (دكتور):
الحروب الصليبية، نصوص ووثائق تاريخية، العربية للدراسات والنشر ط، القاهرة سنة ١٩٨٥م.

ثالثا- المراجع الأجنبية:

Adrian J. Boas:

Jerusalem in the time of the Crusades, London 2001.

Ault, Warren:

Europe in The Middle Ages, Boston, U.S.A. (1946).

Baldwin, M.W:

Medieval Church, New Yourk, U.S.A.1962.

Barraclough, G,:

The Medieval Papacy, London, 1968.

Benvenisti, Moron:

The Crusaders in The Holy Land, Jeruslam1970.

Boase, T.S.R:

Kingdoms and Strong Holds of The Crusaders, London1971.

Brehier, L:

L Elise Et L Orient au Moyen Age – Les Croisades, Paris 1928.

Charanis, p. "The West and The Origin of the First Crusade, Byzantium XIX, 1948-49.

Conder, C, R:

The Latin Kingdom of Jerusalem, London1897.

Cowdery:

"THE GENESIS OF THE CRUSADES", in The Holy War, .

Ed. Patrick Murphy, U.S.A.1974.

Deanesly, Margaret:

A History of Medieval Church, 590-1500, London 1973.

Duggan, A:

The Story of the Crusades1097-1291, London1963.

Duncalf, F:

"The Pop s Plan for the Crusade" in The Crusaders Motive and Achievement (ed. James Brundidge), Boston, U.S.A.1964.

Dovrink, F:

Constantinople and Rome, in C.M.H. VOL 4, pr.2, Cambridge1966.

Flich, A:

La Paupte et Les Origines de La Croisadse, Revue d Histoire Ecclesiastique, Tom .XXXIVParis1938, pp.762-775.

Fortescue, A:

Orthodox Eastern Churches, London1923.

Grousset, R:
Histoire Des Croisades Et du Royaume De Jerusalem, Tom. I, Paris 1943.
Hagenmayer:
Chronologies Dela Premier Croisade, in R.O.L.TOM.7, Paris1934.
Halphen, Louis:
The Church From Charlemagne To Sylvester II, in C.M.H., Vol.IIIpr.2, 1966.
Hamilton, Bernard:
The Latin Church in The Crusader States, The Secular Church .London 1980.
Hayward.f:
A History of the Popes, London 1931.
Herman, S.J:
The Secular Church, in C.M.H. Vol. IV, London 1962.
Hulm, Edward:
The Middle Ages, London 1936.
Johnson, p:
A History of The Christianity, London 1930.
Keen, Murice:
A History of The Medieval Europe, London 1967.
Krey:
Urban s Crusade success or Failure ? in A.H.R., L.III, Jan.1948.
Latrie, L. DeMas: Les Patriarchate Latins de Jerusalem, R.O.L. Tom. I. Paris 1092.
Mayer H. e:
The Crusades, Trans. John Gillingham, Oxford 1972.
Miller, William:
Essay On The Latin Orient, Cambridge 1921.
Mills. Charles:
The History of The Crusades, Vol. I, London1892.
Munro, D.C:
The Speech of Pope Urban II, at Clermont, 1095, A.H.R, Vol.XI.1965.
Notes and Suggestions Did The Emperor Alexius I Ask for Aid at The Council of Piacenza 1095. A.H.R. Vol. XXVII, 1922.
Painter, Sidney:
A History of The Middle Ages (284 -1500), New York, 1954.
Pirenne, H:
A History of Europe, Vol. I, Trans.by Bernard Mail, New Yourk 1956.
Prawer, J:

The Latin Kingdom, European Colonialism in The Middle Ages, Israel1972.

Social Class in The Crusader States: The Minorities, Ed. Setton, A History of the Crusades, Vol. V., U.S.A. 1985.

Richard, J:

Le Royaum Latin De Jerusalem, Paris 1953.

Hospital and Hospital Congregation in the Latin Kingdom.

During The First Period of the Frankish Conquest Crosies, Missionares et Voyageurs, London 1983.

The Political and Ecclesiastical Organization of The Crusader States, in Setton ed., A History of The Crusades Vol. V., U.S.A.1985.

Rohricht, R:

Regesta Regni Hierosalymitani, Insbruk1893.

Rowe, John:

The Papacy and The Ecclesiastical Province of Tyre 1100 -1187, The John Ryland's Library, Vol.43, Manchester 1960 -61.

Runciman, Steven:

The Eastern Schism, A Study of The Papacy and The Eastern Churches during The XIth. And XIIth Centuries, Oxford 1955.

Historic Role of The Christian Arabs of Palestine, London 1970.

Smail, R, C:

Crusading Warfare 1097-1193, Cambridge 1950.

The Crusaders in Syria and The Holy Land, Great Brittan 1974.

Smith, J.R:

What Were The Crusade? New Jersey 1977.

Stephenson, C:

Medieval History, Washington, 1944.

Thatcher, O.D. & McNeal, E.H:

A Source Book for Medieval History, New York, U.S.A.1905.

Thomas Asbridge:

The First Crusade, A New History. The Roots of Conflict between Christianity and Islam., Oxford 2004.

Thompson, J.W:

The History of The Middle Ages, Vol. I., London1931.

Thorndike, Lynn:

The History of Medieval Europe, U.S.A. 1956.

Tout, T.F:

The Empire and The Papacy, Period II 918-1273., London 1924.

Walker, Wilson:
A History of Christian Church, U.S.A. 1944.
Zernov, Nicolas:
Eastern Christendom, London 1961.
Zoe Olden Bourg:
The Crusade, Trans. Anne Carter, New York 1966.

رابعًا- المراجع العربية والمترجمة:

- د. أحمد رمضان أحمد، بيت المقدس والخليل، "ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط"، تحرير: قاسم عبده قاسم، رأفت عبد الحميد، المجلد الأول، القاهرة ١٩٨٤م.
- د. اسحق تاضروس عبيد، "روما وبيزنطة من قطيعة فوتيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين"، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م.

الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢.

- ارنست باركر، "الحروب الصليبية"، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٦٠م.
- د. باراكلاف، ج.، "الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطي"، ترجمة وتقديم جوزيف يوسف نسيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م.
- د. براور، يوشع، "عالم الصليبيين"، ترجمة قاسم عبده قاسم، ومحمد خليفة، القاهرة ١٩٨١م.
- جوزيف يوسف نسيم، "العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى"، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية ١٩٦٧م.
- "أنشودة رولان قيمتها التاريخية"، وما أثير حولها من جدل ونقاش، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، تحرير: قاسم عبده قاسم، رأفت عبد الحميد، مج ١، القاهرة، جمهورية مصر العربية. ١٩٨٢م.
- د. حسن حبشي، "الحرب الصليبية الأولى"، القاهرة ١٩٤٧م.
- دوسن، كريستوفر، "تكوين أوربا"، ترجمة ومراجعة مصطفي زيادة، سعيد عاشور، الألف كتاب القاهرة ١٩٦٧م.
- راسل (برتراند)، "حكمة الغرب"، الجزء الأول ترجمة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٣م.

- د. رأفت عبد الحميد، "السمو البابوي بين النظرية والتطبيق" ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، مج ٢، تحرير: قاسم عبده قاسم، رأفت عبد الحميد، القاهرة ١٩٨٥م.

- رنسيمان، ستيفن، "الحضارة البيزنطية"، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: زكي على القاهرة ١٩٦١م.

- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ثلاثة أجزاء. بيروت ١٩٦٧-١٩٦٩م.

- زينب عبد المجيد عبد القوي، "العلاقات الدينية والسياسية بين الإمبراطورية البيزنطية وغرب أوربا في الفترة من ١٠٧١-١١٠٤م"، رسالة ماجستير لم تنشر، إشراف: أ. د. قاسم عبده قاسم، آداب الزقازيق ١٩٨١م.

- د.سعيد عبد الفتاح عاشور، " الحركة الصليبية"، جزاءان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٥م.

أوربا العصور الوسطي، التاريخ السياسي، ج١، ط ٧، القاهرة ١٩٧٨م.

- د. السيد الباز العريني، "مؤرخو الحروب الصليبية"، القاهرة ١٩٦٢م.

الدولة البيزنطية ٣٢٣ - ١٠٨١م، دار النهضة، القاهرة ١٩٦٥م.

الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج١، القاهرة ١٩٦٢م.

- د. عادل زيتون، "العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطي"، دار دمشق، دمشق ١٩٨٠م.

- د. عليه الجنزوري، "إمارة الرها الصليبية"، عين شمس ١٩٧١م.

- د. عمر كمال توفيق، "مملكة بيت المقدس الصليبية"، ١٩٧٨م.

- فشر، هـ. ا. ل، "تاريخ أوربا في العصور الوسطي"، ج١، ترجمة محمد مصطفي زيادة، السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٦٧م.

- د. قاسم عبده قاسم، "الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية"، دراسة عن الحملة الأولى (١٠٩٥ - ١٠٩٩)، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م.

الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، مج ٢، تحرير قاسم عبده قاسم، رأفت عبد الحميد، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥م.

الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩م.

- كانتور، نورمان ف. "التاريخ الوسيط قصة الحضارة: البداية والنهاية (جزءان)"، ترجمة وتعليق: قاسم عبده قاسم، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١- ١٩٨٦م.

- د. محمود محمد الحويري، "الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد"، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

- محروس عبد القدوس، "جستنيان وسياسة الاسترداد"، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف قاسم عبده قاسم، آداب الزقازيق ١٩٨٤م.

- موس، سانت ل.ب. "ميلاد العصور الوسطي ٣٩٥ - ٨١٤"، ترجمة عبد العزيز توفيق، مراجعة السيد الباز العريني، عالم الكتب، الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٧م.

- د. نبيلة إبراهيم مقامي، "فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر"، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف د. حسنين محمد ربيع، جامعة القاهرة ١٩٨٧م.

- نقولا امرازي، "كنز النفائس في اتحاد الكنائس"، تعريب يوحنا حزبون، القاهرة ١٩٠٤م.

- هسي، ج.م. "العالم البيزنطي"، ترجمة وتعليق وتقديم: رأفت عبد الحميد، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية. ١٩٨٢م.

الكنيسة ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية (1099 - 1187)

من المستحيل تفسير الأشياء أو الأحداث مع استبعاد البعد الروحي أو الديني، فلا يمكننا أن نفهم العصور الوسطى أو الحروب الصليبية نفسها إلا من خلال مفاهيم العصر وعقلية البشر في وقت تميز بتضخم الظاهرة الدينية. فقد تمثل هجوم الغرب الأوربي على الشرق الإسلامي في عدة دوافع كان على رأسها الدافع الديني. والراجح أن الحملة الصليبية كانت التطور المنطقي للحج المسيحي إلى فلسطين، إذ لم تكن فكرة الحملة لتطرأ على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية قد استمرت منذ فترة باكرة وحتى أخريات القرن الحادي عشر الميلادي.

موضوع هذه الدراسة هو دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية منذ قيام المملكة 1099 وحتى استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي 1187. وذلك للتعرف على دور الكنيسة وطبيعته، وأهدافه، حتى يمكن تقدير حجمه، ومعرفة أثره، وما حققه من نتائج كان لها أثرها المباشر على مستقبل الحركة الصليبية. مع تناول التواجد الكنسي اللاتيني في الأرض المقدسة، حيث أن الفترة التي يعرض لها البحث تمثل المرحلة الهامة في تاريخ الكنيسة اللاتينية فقد كانت مرحلة خصبة تعددت فيها أعمال وأنشطة وعلاقات الكنيسة.



دار ناشري للنشر الإلكتروني
رقم التسجيل في المكتبة الوطنية الكويتية 2008/ 306
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية مجانية للقارئ العربي
www.nashiri.net